دكتور السيد عبد القادر عويضة
كلية اللغة العربية ـ جامعة الأزهر

دراسة في

مقامات بديع الزمان الهمذاني وخصائصها الفنية

الطبعة الأولى
١٤١١هـ ـ ١٩٩١م

مطبعة الأمانة
٣ شارع جزيرة بدران شبرا ـ مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نحمد الله تبارك وتعالى ونصلى ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد النبى العربى الكريم • وعلى آله وصحبه والتابعين باحسان الى يوم الدين وبعد :

فهذه دراسة جادة تناولنا فيها مقامات بديع الزمان الهمذانى بالبحث والدراسة وطول النظر والتأمل فى ألفاظها ومعانيها ، وفى أسلوبها وصياغتها ، والهدف منها وفى علاقة المقامة بالكدية ، والقالب الفنى الذى صبت فيه • ثم وقفنا على الخصائص الفنية فى المقامات •

وقد حدانا الى هذه الدراسة : أن المقامات الهمذانية على كثرة ما كتب عنها فهى فى حاجة الى المزيد من النظر والتأمل ، والوقوف على ما فيها من ابداع فنى واسلوب باهر وصياغة آثرة ، ومحاولة الربط بينها وبين الآثار السابقة التى تأثر بها الهمذانى وبخاصة عند ابن دريد الذى اشتهر بأحاديثه الأربعين التى عارضها الهمذانى بمقاماته الاثنتين وخمسين أو الأربعمائة كما يقول الهمذانى نفسه فى رسائله •

ومن ثم فقد قسمنا دراستنا هذه الى فصول خمسة :

فى الفصل الأول : تحدثنا عن حياة بديع الزمان منذ مولده ونشأته وتعليمه وتطوافه فى البلاد • كما تحدثنا عن ثقافته الواسعة وذكائه الحاد الذى أفرط الثعالبى وغيره فى وصفه • وكذا عن مؤلفاته، وأنه كان شاعرا وكاتبا من طراز رفيع فبذ عظاما مشاهير فى الأدب واللغة فى عصره وقبل عصره على قلة الزمن الذى عاشه ولم يتجاوز الأربعين عاما من عمره •

وفى الفصل الثانى : تحـدثنا عن معنى المقامة فى اللغـة ، وفى اصطلاح الثنيين ، وعن الهدف منها وهو تعليم الناشئة اللغة وتثقيفهم بها فى صورة قصصية بأسلوب شيق جذاب • فلا ينتهى القــارىء من مقامة الا ليبدأ فى غـيرها عن رغبة ملحة فى القـراءة ، حتى ينتهى من المقامات جميعها وقد حصل رصيدا ضخما من ألفاظ اللغة ومعانيها •

كما وقفنا على نشأة المقامة وعلى آراء القائلين بأسبقية ابن دريد للهمذانى فى هذا الفن • والقائلين بعدم الصلة بين مقاماته وأحـاديث ابن دريــد •

وبعد دراسة وتأمـل فى أحــاديث ابن دريد ومقامات الهمــذانى توصلنا الى أن أحاديث ابن دريد كانت نواة لمقامات الهمذانى فتــأثر هو بها وصاغ بعض أحاديثه على غرارها • ولكنه فى مجموعها فــاق ابن دريد وبذه كما بذ الخوارزمى فى الرسائل •

ولما كان هناك اختلاف بين الدارســين قديما وحديثا حول عــدد المقامات هل هى أربعمائة ، أو هى خمسون أو اثنتان وخمسون ؟

فقد وقفنا على هذه الآراء جميعها ، ورجحنا أنها لا تزيد عــلى اثنتين وخمسين مقــامة •

وعرفنا من خلال دراستنا لحياة الهمذانى ولمقاماته أنه لم يمــل مقاماته جميعها فى نيسابور ، لأنه لم يقــم فيها سوى عام واحــد ، ولا يعقل أن يمليها جميعها فى هذا العام•اذن لابد أن يكون قد أملاها فى البلاد التى رحل اليها وطاف بها • والدلائل من أســماء كثــير من مقاماته وحديثه عنها تنبىء بذلك •

وعرفنا أيضا : أن الراوى والبطل فى مقاماته شخصيتان خياليتان وليستاحقيقيتين • وأن الاسكندرية المنســوب اليها البطل أبو الفتــح

الاسكندرى ليست هى اسكندرية مصر ، وانما هى مدينة على نهر آموى (جيجون) من ثغور الأندلس : وأنها ضمن مجموعة كبيرة من المدن سميت بهذا الاسم (الاسكندرية) ثم تلاشت أسماؤها الى أسماء أخرى،كما ذكر ياقوت الحموى فى (معجم البلدان) ولم يبق منها بهذا الاسم سوى الاسكندرية العظمى التى هى بمصر •

وفى الفصل الثالث : وقفنا على علاقة المقامة بالكدية ، وتحدثنا عن معنى الكدية فى اللغة والاصطلاح • وأن الهمذانى اختار قطاع المكدين المتسولين ليعبر عنه وعن طرقه فى ابتزاز أموال الأغنياء • واختار لذلك بطلا أديبا يتقن فنون التسول بالأحاديث الأدبية الجذابة ، وظهر فى أشكال مختلفة يعرفها المتسولون •

ولم يكن البديع ليبتكر هذا النوع من الحديث عن المتسولين ، وانما هو مسبوق بالجاحظ والأحنف العكبرى وأبى دلف الخزرجى وابن دريد وغيرهم ممن كتبوا عن التسول والمتسولين وطرقهم •

ولعل الذى جعله يختار الكدية سمة واضحة فى مقاماته • أنه رأى المكدين أكثر الناس تلونا فى صور مختلفة ، وبأساليب شتى • وأنهم أكثر الناس تطوافا بالبلدان سعيا وراء قوتهم بالحيلة والدهاء • ولذلك جاء بطل مقاماته فى صور مختلفة وله من الدهاء والحيلة ما يسحر به الناس فيستخرج أموالهم من جيوبهم بسهولة ويسر •

وفى الفصل الرابع : أجبنا على سؤال طرحناه هو : هل المقامة قصة ؟

وعرضنا فى اجابتنا لآراء القائلين بأنها ليست قصة لخلوها من عناصر القصة التى هى : الحبكة والعقدة والمفاجآت والشخصيات والأسلوب •

ولآراء القائلين بأنها قصة لاحتوائها على الكثير من هذه العناصر. ورجحنا الرأى الثانى ، وأتينا ببعض النماذج — من المقامات — الدالة على أن أغلب المقامات ، ان لم يكن كلها قصة . وأن الهمذانى اذا أخفق فى استطاعته كتابة القصة الكاملة بعناصرها فليس ذلك دليل ادانة له فمازالت القصة فى عهده فى طور الترقى . وما هى الا حلقة من حلقات تطور القصة ونموها . ومن الاجحاف أن نطبق عليها مقاييس القصـــة فى القرن العشرين ، ثم ندين الهمذانى بالتقصير .

وفى الفصل الخامس : تحدثنا عن الخصائص الفنية فى المقامات.

وأول ما لفت نظرنا فى هذه المقامات هى الموضوعات العديدة التى تناولها الهمذانى بالكتابة فيها . ورأينا أنه على الرغم من أن الطـــابع العام فى المقامات للكدية الا أن الهمذانى أملى مقامات كثيرة فى المديح والوصف وفى الأدب والنقد ، وفى الدين والعقيدة على سبيل الوعظـــة وكذا الحوار والجدل . ومعنى هذا أن هناك من المقامات ما ليس نصا فى الكدية،وان كانت تمت الى الكدية بصلة كمقامات المديح مثلا .

ثم تحدثنا عن الفكاهة فى المقامات . ورأينا أن الفكاهة قدر عام وشائع فى المقامات الهمذانية.واذا كنا قد ذكرنا بعض المقامات كنماذج للدلالة على الفكاهة فى المقامات،فان ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر.

ولما كانت صورة المجتمع العباسى فى القرن الرابع الهجرى واضحة فى مقامات الهمذانى فقد عرضنا لبعضها مما يشيع فى كل عصر وفى كل مجتمع لندلل بذلك على أن مقـــامات الهمذانى صـــورة وثائقية لمجتمع القـــرن الرابع الهجرى .

ثم عرضنا لاسلوب الهمـــذانى فى مقـــاماته . وأنه قد تحـــدث بأسلوبين كل منهما يناسب المقام والموضوع الذى يريد الحديث فيه .

فكان أسلوبه فى بعض الأحايين سهلا سلسا رقيقا ، وفى بعضها خشنا جافا غليظا •

كما كان يهتم بفنون البديع اهتماما كبيرا ، ويكثر من الاقتباس والاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، وكذا بشعر العرب ونثرهم • وهذا كله ان دل على شىء فانما يدل على ذكاء بديع الزمان ومقدرته اللغوية ومهارته الفنية • وأنه تفوق على ابن دريد الذى تحداه بمقاماته كما تفوق على الخوارزمى الذى تحداه برسائله •

واذا كان الهمذانى قد جعل من أحاديث ابن دريد نواة لمقاماته ينسخ على غرارها ويستفيد منها ايجابا بالمحاكاة أو سلبا بالاتجاه الى غير ما اتجه اليه ، بأن جعل من مقاماته قصصا تشيع فيها الفكاهة والمتعة وصاغها بأسلوب رائع مشوق على كثرة الغريب فيه الذى حقق به هدفه وهو تعليم الناشئة اللغة وتثقيفهم بها • فانه قد فاقه شكلا وموضوعا •

وفى نهاية المطاف ختمنا دراستنا هذه بخلاصة قصيرة ومركزة لما قمنا بدراسته فى هذا البحث القصير •

نسأل الله تعالى أن يجعل عملنا هذا نافعا مقبولا • انه على كل شىء قدير وهو نعم المولى ونعم النصير •••

دكتور

السيد عبد القادر عويضة

الزقازيق

فى ٢٥/١٢/١٩٩٠

الفصـــل الأول

بديع الزمان الهمذانى

حياته وثقــافته :

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذانى ، المشهور بلقبه « بديع الزمان الهمذانى » ، الذى أطلقه عليه أبو منصور الثعالبى حين ترجم له بقوله : « هو أحمد بن الحسين بديع الزمان ومعجزة همذان ، ونادرة الفلك ، وبكر عطارد ، وفرد الدهر ، وغـــرة العصر ، ومن لم يلق نظيره فى القريحة ، وسرعة الخاطر »(١) وتابعـــه معاصروه ومن جاءوا بعده فى هذا الاطلاق .

ولد فى همذان فى « يوم ١٣ من جمــادى الآخرة سنة ٣٥٨هـ ـــ يونيه ٩٦٩ م » (٢) وهى احدى مدن ايران التابعة لفارس آنذاك .

الا أن مولده بهمذان لا يعنى أنه فارسى الأصل . فقـــد ورد فى رسائله ما يفيد بأنه كان عربيا متعصبا لعروبته اذ يقول فى رســالته الأولى التى كتبها الى الشيخ أبى العبــاس الفضل الاســفرائينى : « انى عبد الشيخ واسمى أحمد ، وهمذان المولد ، وتغلب المــورد ، ومضر المحتــد »(٣) .

---

(١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٢٥٦ .

(٢) بروكلمن ـ تاريخ الادب العربى جـ ٢ ص ١١٢ .

(٣) كشف المعانى والبيان عن رسائل بديع الزمــان ـ الشــيخ ابراهيم الاحدب ص ٨ طبعة بيروت ١٨٩٠ .

ولاشك أنه بهذا قد جمع بين أخلاق العرب وصفات العجم « فظهرت عبقريته الخارقة وذكاؤه الوقاد • بالاضافة الى تمازج واختلاط وتزاوج بين آبائه وأجداده العرب ، وبين عائلات الفرس فى تلك المنطقة العجمية ، كما أن أخاه الحسين بن يحيى كان مفتى البلدة »(٤) •

وقد عاش حياته الأولى فى همذان حيث تربى فيها وترعرع وتثقف ، ثم غادرها سنة ٣٨٠ هـ ، وكانت سنه اذ ذاك اثنتين وعشرين سنة ، وكان حينئذ شابا فتيا ذكيا متفتحا للحياة والثقافة بأجل معانيها وأنواعها ، فطوف فى حياته القصيرة التى لا تزيد على الأربعين عاما ببلاد كثيرة كايرن وخراسان وسجستان وأفغانستان وسمرقند وغيرها من البلدان،واتصل بكثير من العلماء الأدباء وتتلمذ على أيديهم،وتزود من ثمار علمهم وأدبهم ورشف من رحيق أخلاقهم ، فتتلمذ على أحمد ابن فارس اللغوى وعيسى بن هشام الأخبارى ، والصاحب بن عباد والخوارزمى الأديبين ونال من أدبهما وعلمهما الشىء الكثير •

ونزح الى نيسابور « فوافاها فى سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة ، فنشر بها بزه : وأظهر طرزه ، وأملى أربعمائة مقامة (٥) نحلها — أى الهمذانى — أبا الفتح الاسكندرى فى الكدية وغيرها ، وضمنها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، من لفظ أنيق ، قريب المأخذ بعيد المرام،وسجع رشيق المطلع والمقطع كسجع الحمام »(٦) •

---

(٤) مقامات بديع الزمان الهمذانى — دكتورة : اكرام فاعور ص ١٤ طبعة بيروت ١٠٨٣ دار اقرأ •
وانظر معجم الأدباء لياقوت الحموى ج ١ ص ١٦٢ •

(٥) هذا الكلام فيه نظر •

(٦) الاساليب الادبية فى النثر العربى القديم ص ١٠٧ •

وحين سار البديع فى مضمار أستاذه الخوارزمى فى كتابة الرسائل والمشافهة بها « احتقره الخوارزمى فى أول الأمر ولم يتح له الاجتماع به فى مجلس للأدباء ، فتحداه فى فنون الكتابة فلم يجر فى مضماره ، فحكم له الأدباء بالفوز على خصمه الكبير » (٧) .

ويقول الثعالبى فى ذلك : « ثم شجر بينه — أى الهمذانى — وبين أبى بكر الخوارزمى ما كان سببا لهبوب ريح الهمذانى وعلو أمره وقرب نجحه وبعد صيته : اذا لم يكن فى الحسبان والحساب أن أحدا من الأدباء والكتاب والشعراء ينبرى لمباراته ، ويجترىء على مجاراته ، فلما تصدى الهمذانى لمساجلته ، وتعرض للتحكك به ، وجرت بينهما مكاتبات ومباهاة ومناظرات ومناضلات وغلب هذا قوم وذاك آخرون ، وجرى من الترجيح بينهما ما يجرى بين الخصمين المتحاكمين والقرنين المتصاولين ، طار ذكر الهمذانى فى الآفاق ، وارتفع مقداره عند الملوك والرؤساء ، وظهرت أمارات الاقبال على أموره .. وأجاب الخوارزمى داعى ربه ، فخلا الجو للهمذانى ، وتصرفت به أحوال جميلة وأسفار كثيرة ، ولم يبق من بلاد خراسان وسجستان وغزنة بلدة الا دخلها ، وجنى ثمرتها ، واستفاد خيرها وميرتها ، ولا ملك ولا أمير ولا وزير ولا رئيس الا استمطر منه بنوء ، وسرى معه فى ضوء ، ففاز برغائب النعم ، وحصل على غرائب القسم »(٨) .

الا أن الهمذانى لم يستقر فى نيسابور التى تفوق فيها على أستاذه الخوارزمى ، حيث لمع اسمه وذاع صيته ، وأصبح له فيها

---

(٧) الاساليب الأدبية فى النثر العربى القديم ص ١٠٧ .
د/ كمال اليازجى — دار الجيل — بيروت .
(٨) اليتيمة ج ٤ ص ٢٥٧ — ٢٥٨ .

تلامذة كثيرون ، وجمع غفير من الرواد والمحبين ، وأملى بها معظم مقاماته التى اشتهر بها •

فتركها الى سجستان وهناك مدح حاكمها (خلف بن أحمد) بقصائد شعرية رائعة وبمقاماته الست التى أشاد فيها بكرم فضله ونبل أخلاقه وحسن استقباله ورعايته له ، ثم تركها هى الأخرى وعاد الى تطوافه فى البلاد حتى استقر به الحال الى هراة « وهناك تزوج فيها من ابنة أبى على الحسين بن محمد الخشنامى أحد أغنيائها وساداتها ، وأنجب أولادا واقتنى مالا وضياعا »(٩) •

وظل بهراة حتى وافته منيته فيها يوم الجمعة الحادى عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة (٣٩٨ هـ) •

ولابن خلكان روايتان فى سبب وفاة الهمذانى يقول فى الأولى: « وكانت وفاته سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة مسموما بمدينة هراة رحمه الله »(١٠) •

والثانية يقول فيها : « انه ــ أى الهمذانى ــ مات من السكتة وعجل دفنه ، فأفاق فى قبره وسمع صوته بالليل ، وأنه نبش عنه فوجدوه قد قبض على لحيته ومات من هول القبر »(١١) •

هذا هو الهمذانى العالم الأديب والشاعر الأريب الذى كان مفخرة عصره ونادرة زمانه ، قال عنه الحصرى : « اسم وافق مسماه ولفظ طابق معناه وكلام غض المكاسر ، أنيق الجواهر ، يكاد الهواء يسرقه لطفا والهوى يعشقه ظرفا »(١٢) •

---

(٩) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٢٥٨ •
(١٠) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢٩ •
(١١) نفس المصدر والصفحة •
(١٢) زهر الآداب ج ١ ص ٣٠٥ •

ولاشك أن تطوافه فى البلاد واتصاله بالعلماء والتلمذة عليهم مع وجود الذكاء الحاد والقريحة النادرة ، والبديهة الحاضرة ، وقوة الحافظة والموهبة المتقدة ، كل ذلك كان له تأثيره الشديد فى توجيهه وجهة ثقافية وعلمية كبيرة لفتت الأنظار اليه . فكان أعجوبة عصره وفرد زمانه وأستاذا لتلامذته ومريديه بعد هزيمة ساحقة لشيخ كبير من شيوخ عصره وكاتب عظيم من كتاب دهره هو أبو بكر الخوارزمى.

وقد أفاض الثعالبى فى الحديث عن علم الهمذانى وآدابه وقوة ذاكرته وحسن حاضرته فقال : « فانه كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب ، فمنها انه كان ينشر القصيدة التى لم يسمعها قط،وهى أكثر من خمسين بيتا فيحفظها كلها ويؤديها من أولها الى آخرها ، لا يخرم حرفا ولا يخل بمعنى ، وينظر فى الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهذها عن ظهر قلبه هذا؟ ويسردها سردا ، وهذه حالة فى الكتب الواردة عليه وغيرها وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو انشاء رسالة فى معنى بديع وباب غريب فيفرغ منها فى الوقت والساعة والجواب عنها فيها . وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدىء بآخر سطر منه ، ثم هلم جرا الى الأول ويخرجه كأحسن شىء وأملحه ، ويوشح القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من انشائه . فيقرأ من النظم والنثر ، ويروى من النثر والنظم ، ويعطى القوافى الكثيرة فيصل بها الأبيات الرشيقة ويقترح عليه كل عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجله فى أسرع من الطرف على ريق لا يبلعه ونفس لا يقطعه »(١٣) .

---

(١٣) اليتيمة للثعالبى ج ٤ ص ٢٥٦ .

وهذا الكلام وان كانت فيه مبالغات كثيرة لكنه فى الجملة يعبر عن ذكاء الرجل وحسن حاضرته وسرعة بديهته وقوة ذاكرته وقدرته على النظم والنثر فى آن واحد وبتفوق عجيب .

ولم تكن ثقافته العربية فحسب ، بل أيضا والفارسية ، حيث يقول الثعالبى : « وكان يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعانى الغريبة بالأبيات العربية فيجمع بين الابداع والاسراع ، الى عجائب كثيرة لا تحصى ، ولطائف يطول أن تستقصى »(١٤) .

ولهذا كله وصفه الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد بأنه : « الكاتب المترسل والشاعر المجيد ، قدوة الحريرى ، وقريع الخوارزمى ، ووارث مكانته : معجزة همدان ، ونادرة الفلك ، وفريد دهره رواية وحفظا وغرة عصره بديهة وذكاء » (١٥) .

الى غير ذلك من الأقوال الكثيرة التى تحدث بها عنه معاصروه ومن اهتموا بدراسة آثاره الأدبية الى عصرنا هذا الحديث ، حتى اقتفى أثره غير واحد فى مقاماته ، وقد شهد له بالتفوق أشهر من تتلمذوا على أدبه وعلمه واقتفوا أثره فى فن المقامة وهو الحريرى حيث يقول فى مقدمة مقاماته : « وبعد : فانه قد جرى ببعض أندية الأدب الذى ركدت فى هذا العصر ريحه ، وخبت مصابيحه ، ذكر المقامات التى ابتدعها بديع الزمان ، وعلامة همذان ... وعزا الى أبى الفتح الاسكندرى نشأتها ، والى عيسى بن هشام روايتها ، وكلاهما مجهول لا يعرف ، ونكرة لا تتعرف .. هذا مع اعترافى بأن البديع ــ رحمه

---

(١٤) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٥٧ .
(١٥) شرح مقامات الهمذانى ص ٧ .

الله — سباق غايات ، وصاحب آيات : وأن المتصدى بعده لانشاء مقامة ولو أوتيته بلاغة قدامة لا يغترف الا من فضالته ، ولا يسرى ذلك المسرى الا بدلالته » (١٦) .

ولبديع الزمان من المؤلفات :

١ — ديوان شعر مطبوع من الحجم الصغير نظم فيه شعرا فى جميع الأغراض المعروفة للشعراء .

٢ — مجموعة كبيرة من الرسائل بعضها يطول وبعضها يقصر وقد بلغ عددها ثلاثة وثلاثين بعد المائتين . شرحها وفسر غوامضها الشيخ ابراهيم الأحدب الطرابلسى . وهى وان كانت فى أول أمرها قد كتبت للرد على الشيخ أبى بكر الخوارزمى ومساجلته للانتصار عليه فى فن الرسائل ، الا أن الهمذانى قد ضمنها أغراضا كثيرة . منها : المديح والاعتذار والاستعطاف والعتاب والشكوى والهجاء والرثاء والوصف والود والنصيحة ... الى آخره .

٣ — المقامات المشهورة التى ذكر هو بأنها أربعمائة مقامة . ووافقه غيره من القدامى على ذلك ولكن المحدثين بعد استقراء وجدوا أنها لا تزيد على اثنتين وخمسين مقامة . قدم لها وشرح غوامضها كل من الشيخ محمد عبده والشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد . وكتبت عليها دراسات كثيرة .

وقد عنى الهمذانى فى كل كتاباته بالزينة والزخرف ، فأكثر من المحسنات البديعية وبخاصة السجع والجناس والطباق . فتميزت كتاباته عن غيره بهذه المحسنات اللفظية منها والمعنوية على السواء .

---

(١٦) مقامات الحريرى ص ٤ بدون ناشر .

الفصل الثانى

المقـــامات الهمـذانية

معنى المقـــامة :

وردت أقوال كثيرة حول تفسير كلمة « مقامة » وكلها تدور حول المعانى التى وردت فى لسان العرب وغيره من المعاجم العربية •

فقد جاء فى لسان العرب لابن منظور : المقام : موضع القدمين • والمقام والمقامة : بالضم : الاقامة ، والمقامة بالفتح : المجلس والجماعة من النـــاس »(١) •

وهذان المعنيان — أعنى المجلس والجماعة من الناس — أكثـر المعانى التى دارت حول لفظة مقام أو مقامة فى الجاهلية • فكان معناها فى أول الأمر مجلس القبيلة ثم تطورت لتـدل على معنى زائد عـلى المعنى الأول ولا يختلف معه : بل يعاضـده ويوافقه ، اذ أنهـا عنت الى جانب «المجلس أو المكان» الناس سكان المجلس والقاطنين فى المكان، وربما أشار زهير ببيتيه هذين الى هذا المعنى حيث يقول :

وفيهم مقـــامات حســان وجـــوهها
وأندية ينتـــابها القـــــول والفعــــل

وان جئتهم ألفيت حـــــول بيـــــوتهم
مجـــالس قد يشفى بأحـــلامها الجهل(٢)

ويقول لبيد فى ذلك أيضا :

---

(١) لسان العرب : المجلد ١٢ ص ٤٩٨ طبعة بيروت •

(٢) ديوان زهير ص ١١٣ طبعة دار الكتب المصرية •

ومقامة غلب الرقـــاب كأنهم   جن لدى باب الحصير قيام(٣)

ويقـــــول أيضا :

ومقام ضـــــيق فرجتــه   بلسان وبيان وجـــدل(٤)

كما وردت لفظة مقام هذه فى القــرآن الكريم بمعنى المــكان أى المجلـس والمــكانة أى المنــزلة الرفيعــة حيث يقــول الله تعــالى : « أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا »(٥) ويقول تعالى : «عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا »(٦) •

كما استعملها البلاغيون بمعنى الحــال التى عليها النــاس حين قالوا : « لكل مقام مقال » •

ثم أطلقت الكلمة هذه على الأحاديث التى تجرى فى محيط الخلفاء والأمراء ، الى أن تخصص معناها عندما وجدت مقامات الهمذانى التى تحمــل هذه التســمية وأصبحت الكلمة تطلق على ضرب من الــكلام المسجوع الذى يحمل فى طيه قصة قصيرة يتلفظ بها مشافهة فى المجالس الأدبية لمحبى الحكاية باللفظ البليغ المنمق •

ثم غدت المقامة بعد ذلك وعلى أثر اهتمام الهمذانى بها : « نمطا جديدا مستحدثا فى العصر العباسى وفــرعا من فروع النثر فى القــرن الرابع الهجرى »(٧) •

---

(٣) ديوان لبيد بن ربيعة العامرى ص ١٦١ طبعة دار صــادر ـ بيروت ١٩٨٥ •

(٤) ديوان لبيد بن ربيعة العامرى ص ١٤٧ •

(٥) سورة مريم الآية : ٧٢ •

(٦) الاسراء الآية : ٧٩ •

(٧) فى النثر العباسى ص ٣٠٩ د/ وهيب طنوس •

هذا وقد وردت أقوال أخرى غير هذه فى تفسير كلمة « مقامة » والوقوف على معناها ومدلولها اللغوى والاصطلاحى •

من ذلك ما جاء على غلاف الكتاب الذى شرح فيه الشيخ محمد عبده مقامات بديع الزمان الهمذانى ، حيث ورد على غلاف الكتاب كلام فى معنى المقامة وأسلوبها والغرض منها بعنوان : « قول فى المقامة » • وتحت هذا العنوان : « المقامة شطحة من شطحات الخيال بل هى دوامة من الواقع اليومى فى أسلوب مسجع ومصنوع •

تدور حول بطل أفاق أو أديب شحاذ • يحدث عنه وينشر طويته راوية جوالة • يتزيا بزى البطل أحيانا •

وغرض المقامة هو : اظهار الاقتدار على مذاهب الكلام ومصادره ثم اطلاقه فى عظات بليغة تقلقل الدراهم فى أكياسها ، وفى نكات طريفة تتميز بالدعابة والزخرف والتأنق »(٨) •

وليس تحت هذا الكلام توقيع ، ويغلب أنه من كلام الشيخ محمد عبده شارح مقامات الهمذانى فى نفس الكتاب الذى على متنة هذا الكلام •

وقد عنى البديع نفسه بكلمة مقامة : الخطبة والموعظة حيث يقول فى مقامته « الأسدية » : « حدثنا عيسى بن هشام قال : كان يبلغنى من مقامات الاسكندرى ومقالاته ما يصغى اليه النفور ، وينتفض له العصفور »(٩) •

---

(٨) انظر غلاف (مقامات بديع الزمان للهمذانى) شرح وتعليق الشيخ محمد عبده •

(٩) مقامات بديع الزمان الهمذانى ــ المقامة الاسدية ٢٩ •

ولما كان الاسكندرى بطل مقامات الهمذانى أديبا بارعا وخطيبا مفوها يصغى اليه النفور وينتفض له العصفور • فكلمة مقامة لا تعنى هنا سوى معنى واحد هو « الخطبة » •

والخطبة : مجموعة من المواعظ • وقد وردت المقامة بهذا المعنى أيضا ، أى الخطبة والموعظة فى المقامة « الوعظية » حيث يقول الهمذانى : « قال عيسى بن هشام فقلت لبعض الحاضرين : من هذا؟ قال : غريب قد طرأ لا أعرف شخصه ، فاصبر عليه الى آخر مقامته لعله ينبىء بعلامته »(١٠) •

وكما وردت أقوال فى مدلولات الكلمة من الناحية اللغوية وردت أقوال أيضا فى مدلولاتها من الناحية الاصطلاحية • فالدكتور فيكتور الك يتحدث عن انحراف الكلمة عن معناها اللغوى وهو الدلالة على المجلس والمكان والجماعة من الناس الى الدلالة على كلام الشحاذين فيقول : « والجدير بالذكر أن معنى المقامة انحراف فى القرن الثالث الهجرى فتدنى الى الدلالة على كلام الشحاذين الذين اضطروا فى توسلهم الى المحسنين بدعاءات توجيهية أن يستعملوا لغة مختارة منمقة • ذلك أن الثقافة الأدبية التى كانت فيما سلف من مميزات البلاطات وروادها أخذت فى الانتشار بين طبقات الشعب »(١١) •

واذا كانت المقامة فى رأى الدكتور / الك مجرد كلام منمق يستعمله الشحاذون فى توسلهم الى المحسنين • فهى فى رأى الدكتور زكى مبارك قصة قصيرة يودعها الكاتب ما يشاء من أفكار ولمحات حيث

---

(١٠) المصدر نفسه – المقامة الوعظية ص ١٣٦ •

(١١) بديعات الزمان الهمذانى ص ٤٤ •

يقول : « وأظهر أنواع الأقاصيص فى القرن الرابع هو فن المقامات وهى القصص القصيرة التى يودعها الكاتب ما يشاء من فكرة أدبية أو فلسفية أو خطرة وجدانية أو لمحة من لمحات الدعابة والمجون »(١٢)

وهكذا اختلفت مدلولات الكلمة من باحث الى آخر ولكن هذا الاختلاف لا يعنى فى النهاية أن الكلمة تختلف فى مدلولها عن مسماها ، كلا •• فهى موائمة لهذا الفن وعنوان له،كما أن بديع الزمان لا يصعب عليه وهو الأديب البارع واللغوى الماهر أن يختار اسما لقصصه وحذاياته ، حتى ليقال انه أول مبتكر لهذه التسمية التى أطلقها على فنه • يقول فى ذلك الدكتور مصطفى الشكعة : « ومهما يكن من أمر اللفظة وما احتملته من معان مختلفة ومدلولات متباينة فى بعض الأحيان فهى تسمية موائمة كل الموائمة لهذا الفن من فنون الكتابة أو القصة ، ولاشك أن بديع الزمان هو أول مبتكر لهذه التسمية التى أطلقها على فنه ••• »(١٣) •

اذا بعد هذا العرض لآراء الباحثين والكتاب حول مدلول كلمة « مقامة » نستطيع القول بأن المقامة هى : قصة قصيرة تدور حول موضوع يختاره الكاتب ويجرى الحوار فيه على لسان راوى القصة وهو عيسى بن هشام الذى يمثل الراوى المتنقل بين مدينة وأخرى وفى كل مدينة يروى قصة — أى مقامة — ويتحدث عن بطل كل القصص وهو أبو الفتح الاسكندرى الذى التقط البديع نموذجه من الساسانيين نسبة الى ساسان ، وهو شخص فارسى قديم ، يقال : ان

---

(١٢) النثر الفنى ج ١ ص ٢٤٢ •
(١٣) بديع الزمان الهمذانى ص ٣٠٦ •

أباه جرمه من الملك فهــام على وجهــه محترفا للكدية ، وكان أديبــا سـيارا »(١٤) ٠

ولعل مكانة الساسانيين الأدبية فى القرن الرابع الهجرى — وهو القرن الذى عاش فيه البديع — وما كان من محــارفتهم واحتــرافهم الكدية هو الذى حدا به لأن يجعل نموذجه منهم ، وبلغ من اعجــابه بهم أنه سمي مقامة من مقاماته بالمقامة « الساسانية » نسبة الى هذه الطـــائفة ٠

نشأة المقــامات الهمذانية :

هناك رأيان ، من تناول مقامات الهمذاني بالدراسة لا يخرج على واحد منهما يرجحه ويعلل لهذا الترجيح ، أحدهما للحصري فى كتــابه زهر الآداب ، يرى فيه أن البديع الهمــذانى لم يبتدع فن المقــامات وانما ابتدعها قبله ابن دريد ، ثم جاء الهمذانى فعارضه بمقــاماته ٠ يقول فى ذلك الحصرى:« ولما رأى الهمذانى أبا بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدى أغرب بأربعين حديثا،وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره، وانتخبها من معادن فــكره ، وأبداها للابصــار والبصائر وأهــداها للأفكار والضمائر ، فى معارض أعجمية وألفاظ حوشية ، فجاء أكثــر ما أظهر تنبو عن قبوله الطباع ، ولا ترفع له حجبها الأسماع،وتوسع فيها اذ صرف ألفاظها ومعانيها ، فى وجوه مختلفة ، وضروب متصرفة، عارضها بأربعمائة مقامة فى الكدية ، تذوب ظــرفا ، وتقطر حســنا ، لا مناسبة بين المقامتين لفظــا ولا معنى ، وعطف مســاجلتها ، ووقف مناقلتها بين رجلين سمى أحدهما : عيسى بن هشام ، والآخر أبا الفتح

---

(١٤) انظر المقامة ص ٢٠ د/ شوقى ضيف ٠

الاسكندرى ، وجعلهما يتهاديان الدر ، ويتنافثان السحر ، معان تضحك الحزين ، وتحرك الرصين ، يتطلع منها كل طريفة ، ويوقف منها على كل لطيفة ، وربما أفرد أحدهما بالحكاية وخص أحدهما بالرواية »(١٥) •

والثانى الحريرى الذى جاء بعد الهمذانى فاغترف من ورده ، ونهج فى مقاماته نهجه وسار فى كثير منها على هديه وان اختلف عنه أحيانا فى أمور فنية فهو يرى أسبقية الهمذانى لفن المقامات حيث يقول فى مقدمة مقاماته : « وبعد : فانه قد جرى ببعض أندية الأدب الذى ركدت فى هذا العصر ريحه ، وخبت مصابيحه ، ذكر المقامات التى ابتدعها بديع الزمان وعلامة همذان ••• وعزا الى أبى الفتح الاسكندرى نشأتها ، والى عيسى بن هشام روايتها ، وكلاهما مجهول لايعرف ونكرة لا تتعرف••هذا مع اعترافى بأن البديع — رحمه الله — سباق غايات وصاحب آيات،وأن المتصدى بعده لانشاء مقامة ولو أوتى بلاغة قدامة لا يغترف الا من فضالته ، ولا يسرى ذلك المسرى الا بدلالته »(١٦) •

فالواضح من الرأيين أنهما مختلفان تمام الاختلاف ، اذ أن الحريرى قد قطع الصلة تماما بين مقامات الهمذانى وبين أحاديث ابن دريد معتبرا أن المقامات تعود فى نشأتها وابتداعها الى الهمذانى وله فضل السبق ، ومن جاء بعده اغترف من فضالته • ولعله وجد فى المقامات الهمذانية ما لم يجده فى أحاديث ابن دريد من حسن الصياغة والسبك ، ومن التنويع فى الاسلوب والاهتمام بفنون البديع وبخاصة

---

(١٥) زهر الآداب ج ١ ص ٣٠٥ ، ص ٣٠٦ طبعة دار الجيل بيروت •

(١٦) مقدمة مقامات الحريرى ص ٤ وما بعدها •

السجع ، وكذا التنويع فى الموضوعات والأفكار والمعانى ومن الصبغة الفكاهية التى أشاعها البديع فى مقاماته دفعا للسأم والملل ، والأثواب القصصية التى ألبسها معظم مقاماته ، وفرق ذلك كله جعل لمقاماته جميعها بطلا واحدا هو أبو الفتح الاسكندرى : وراوية واحدا هو عيسى بن هشام ، وهدفه مع تحقيق ذلك كله فى المقامات هو نفس هدف ابن دريد(١٧) وهو تعليم الناشئة اللغة وتثقيفهم بها ، لكنه استطاع أن يحقق هدفه بطريقة فى الصياغة • وكذا فى المعانى والأفكار تفوق طريقة ابن دريد الذى كانت أحاديثه يغلب عليها الاختصار الشديد ، مع العناية بالألفاظ العنجهية والمعارض الحوشية التى ينبو عن قبولها الطباع ولا ترفع لها حجب الأسماع ، كما يقول الحصرى • وليس لها بطل ، ورواتها متعددون ، وان غلبت عليها هذه الصيغة : « حدثنا عبد الرحمن عن عمه قال ••• » الا أن عبد الرحمن لم يرو جميع الأحاديث كما رواها عيسى بن هشام فى مقامات الهمدانى حيث بدأها جميعها بقوله : « حدثنا عيسى بن هشام قال ••• » •

كما أن ما نسب الى ابن دريد يسمى « أحاديث » وهى أربعون فقط، وما نسب الى الهمذانى يسمى « مقامات » وهى أكثر من خمسين مقامة •• كل هذا وغيره جعل الحريرى يجزم بأن البديع الهمذانى ليس مسبوقا فى فنه الذى سماه « مقامات » ولكنه كان سابقا فيه لمن جاء بعده • ووافقه على ذلك كثير ممن كتبوا عن بديع الزمان ومقاماته فى العصر الحديث •

---

(١٧) هو : « أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد • ولد بالبصرة فى خلافة المعتصم سنة ٢٢٣ هـ •

ثم صار الى عمان فأقام بها مدة ، ثم صار الى فارس ، فسكنها مدة ، ثم قدم بغداد فأقام بها الى ان مات سنة ٣٢١ هـ » •

انظر فى ترجمته : النثر الفنى ج ١ ص ٢٧٨ د/ زكى مبارك - وغيره ممن عنوا بالترجمة لابن دريد •

ومن هؤلاء الدكتور / وهيب طنوس الذى يقول : « أما الهمذانى فقد ظهر فى هذا المجال — أعنى المقامات — متميزا بنزعة خاصــة الى الحكايات القصصية التمثيلية القصيرة التى يغلب عليها الصبغة البلاغية الا وهى « المقامات » • الضرب الجديد من الكتابة الذى ابتكره بديع الزمــان »(١٨) •

ومنهم الأستاذ مارون عبود الذى ينفى تأثر البديع الهمدانى فى مقاماته بابن دريد وكذا بابن فارس ، وهو بذلك يرد على ابن خلكان الذى يقول : « وهو — أى الهمذانى — أحد الفضلاء الفصحاء ، روى عن أبى الحسين أحمد بن فارس صاحب « المجمــل » فى اللغــة وعن غــيره »(١٩) •

« وعــلى ابن العماد الحنبــلى الذى يقــول : « روى — أى الهمذانى — عن أبى الحســين بن فارس صــاحب « المجمــل » وعن غــيره »(٢٠) •

يقول مارون عبود : « ان خطة المقامات هى من عمل البــديع ، فلا لابن فارس ولا لابن دريد يد فى صنعها • فالهمذانى ألبسها هــذا الطراز الموشى وعلى طريقته هــذه التى شقها ســارت عجلة الأدب ألف عام • فعبثــا نحــاول العثور على أثر لهــذه الخطة عنــد غير البــديع »(٢١) •

---

(١٨) فى النثر العباسى ص ٣٠٨ •
(١٩) وفيات الاعيان ج ١ ص ١٢٧ •
(٢٠) شذرات الذهب ج ٣ ص ١٥٠ •
(٢١) بديع الزمان الهمذانى ص ٣٤ •

وحين أكد الحصرى فى كلامه السابق على أسبقية ابن دريد للبديع الهمذانى فى هذا الفن : بمعنى أن له فضل السبق فى فن المقامات، وأن ما كتبه البديع كان معارضا به ابن دريد • ووافقه الدكتور زكى مبارك على رأيه هذا وكأنه يردد قوله حين يقول : « ان بديع الزمان عارض بمقاماته أربعين حديثا أنشأها ابن دريد • والمعارضة كانت تتقارب دائما فى الكمية »(٢٢) •

اذا بالدكتور/مصطفى الشكعة يتوجس خوفا من موافقة الحصرى والدكتور زكى مبارك صراحة على رأييهما ، ويتحفظ هو تحفظا شديدا فى قبوله لكل منهما ، ويرى من الظلم والتجنى على البديع أن يكون له سابق فى هذا الفن ، مع أن الحديث غير الحديث • والدافع غير الدافع ، والاسلوب غير الاسلوب ، فأحاديث ابن دريد كانت بهدف تعليم الناشئة أصول اللغة وغريبها ، أى أنها كانت تعليمية صرفة ، وكانت تقصر وتطول ، ولا تعتمد على بطل أو راوية •

أما مقامات البديع فكانت قصصا تهدف الى التعليم والتسلية معا، ولها بطل وراو ، وموضوعاتها متعددة فى المديح والاكتداء والوعظ وغير ذلك •

يقول الدكتور الشكعة فى تعليقه على كلام الحصرى والدكتور مبارك : « نحن يجب أن نتقبل هذا الكلام بتحفظ شديد ، فقد يكون من الظلم لبديع الزمان والتجنى عليه أن نلصق به هذه الفكرة على علاتها ، اذ أن الدافع والهدف عند كل من ابن دريد وبديع الزمان مختلف الى حد كبير ، ذلك أن أحاديث ابن دريد كانت تعليمية صرفة ،

---

(٢٢) النثر الفنى ٢٠٦/١ •

وكان المقصود بها تلقين الناشئة أصول اللغة وغريبها عن طريق هـذه الأحاديث الحوشية والجمل المليئة بالغريب والعجيب .

وأما المقامات فكانت بجانب غرض الانشاء الجميل ، والاطـراف المضحك ، تتخذ موضوعات بعينهـا فى مدح واكتداء ووعظ فى صـيغة قصة هى فى كثير من الأحيان مسبوكة النسج والهيكل ، مربوطة العقـد مبسوطة العرض .. ولا كذلك أحاديث ابن دريد التى تقصر أحيـانا فلا تكاد تتجاوز سطورا أربعة ، وتطول أحيانا أخرى فتستغرق صفحة كاملة ، وأحيانا أخرى لا تحوى الا شعرا » (٢٣) .

وهذا كلام طيب ورأى سديد من الدكتور الشكعة : اذ أنه لم يلق برأيه هذا جزافا ، ولكن بعـد روية وطول فكر ودراسة لمقامات البديع وأحاديث ابن دريد .

وحين نقف على أحـاديث ابن دريد نجـد فيها صدق ما يقـوله الدكتور الشكعة اذ من الأحاديث القصيرة له ما رواه أبو على القـالى حيث قال (٢٤) : « حدثنا أبو بكر قال : حـدثنى عمى عن أبيـه عن ابن الكلبى قال : « ابتاع شاب من العرب فرسا ، فجاء الى أمه وقد كف بصرها فقال : يا أمى قد اشتريت فرسا ، فقالت صفه لى . فقال : اذا استقبل فظبى ناصب ، واذا استدبر فهقل خاضب : واذا استعرض ضيد رقاب ، مؤلل المستمعين طامح الناظرين ، مذ علق الصبيين قالت : أجدت ان كنت أغربت . قال : انه مشرف التليل ، سبط الخصيل ، وهواه

---

(٢٣) بديع الزمان الهمذانى ص ٣٠٨ .

(٢٤) الأمالى ٢٨/٢ .

الصهين • قالت : أكرمت فارتبط »(٢٥) •

فهذا الحديث لابن دريد لم يتعد وصف الفرس : والغرض منه هو تلقين وتعليم الناشئة الكلمات الغريبة والمعانى العجيبة •

وهذا نموذج آخر من أحاديث ابن دريد الطويلة • يقول أبو على القالى : « وحدثنا أبو بكر ابن دريد قال : حدثنا السكن بن سعيد عن العباس بن هشام عن أبيه قال : كان مصاد بن مذعور القينى رئيسا قد أخذ مرباع قومه دهرا ، وكان ذا مال ، فند ذود من أذواد له ، فخرج من بغائها ، قال : فانى لفى طلبها اذا هبطت واديا شجيرا كثيف الظلال : وقد تفسخت أينا ، فأنخت راحلتى فى ظل شجرة ، وحططت

---

(٢٥) ناصب : ناصب عنقه ـ الهقل : ذكر النعام والمؤنث هقلة ـ الخاضب : الذى أكل الربيع فاحمر ريشه ـ السيد : الذئب ـ مؤلل محدد ـ مذعلق : الذعلوق نبات يشبه الكرات يلتوى ـ الصبيان : مجتمع لحييه ـ التليل : العنق ـ الخصيل : كل ما انماز من لحم الفخذ بعضه من بعض ـ الوهواه : الصوت يقطعه ـ السبط : المستقيم المعتدل •

المفـردات :

مرباع : ربع الغنيمة ـ ند : شرد ـ الذود : ما بين الثلاثة الى العشرة ـ بغائها : طلبها ـ تفسخ أينا : أى تعب ، والاين الكلال ـ رسغ بعيره : شد رسغه ـ الجرام : الجسد ـ الجمل النياف : الجمل العالى ـ علاكد : سلاب مفردها علكد ـ كوم : عظيمة السنام مفردها كوماء ـ صلاخد : شداد ـ مقاصد : غليظة السنام مفردها مقحاد ـ جدائد : جمع جدود وهى التى انقطع لبنها ـ شسف : مفردها شاسف : وهو أشد ضمرا من الشاذب ـ صمارد : قليلة اللبن ـ الكراع : ماء السماء ينزل فيستنقع ـ العقدات : ما تعقد من الرمل ـ الغائط : المطمئن من الارض ـ الافيح : الواسع ـ الملأ : الفضاء ـ الصحيح : الصحراء ـ الاجرع : المكان لا ينبت شيئا ـ النشب : المال ـ العرج : حوالى خمسمائة ـ عكامس : كثير ـ بهراء : اسم قبيلة ـ أسحفتها : استأصلتها ـ الرغس : النماء والبركة •

رحلي ، ورسفت بعيري ، واضطجعت في بردي ، فاذا أربع جوار كأنهن اللآلىء يرعين بهما لهن ، فلما خالطت عيني السنة ، أقبلن حتى جلسن قريبا مني ، وفي كف كل واحدة منهن حصيات تقبلهن ، فحطت احداهن ثم طرقت فقالت : قلن يا بنات عراف في صاحب الجمل النياف ، والبرد الكثاف ، والجرم الخفاف •

ثم طرقت الثانية فقالت : مضل أذواد علاكد ، كوم صلاخد ، منهن ثلاث مقاحد ، وأربع جدائد ، نسف صمارد •

ثم طرقت الثالثة فقالت : رعين الفرع ، ثم هبطن السكرع بين العقدات والجرع •

فقالت الرابعة : ليهبط الغائط الأفيح ثم ليظهر في الملا الصحصح بين سدير وأملح • فهناك الذود رتاع بمنعرج الأجرع •

قال : فقمت الى جملي ، فشددت عليه رحله ، وركبت ، ووالله ما سألتهن من هن ؟ ولا ممن هن ؟ • فلما أدبرت قالت احداهن : أبرح فتى ان جد في طلب ، فما له غيرهن نشب ، وسيثوب عن كثب ، ففرح قلبي والله قوله • فقالت : وكيف هذا وقد خلفت بوادي عرجا عكامسا • فركبت السمت الذي وصف لي حتى انتهيت الى المواضع ، فاذا ذودي رواتع ، فضربت أعجازهن حتى أشرفت على الوادي الذي فيه أبي ، فاذا الرعاء تدعو بالويل • فقلت : ما شأنكم ؟ قالوا : أغارت بهراء على أبلك فاستحفتها ، فأمسيت والله ما لي مال غير الذود ، فرمى الله في نواصيهن بالرغس واني اليوم لأكثر بني القين مالا • وفي ذلك أقول :

هو الدهر آس تارة ثم جارح
سوانحه مبثوثة والجوارح
فبينا الفتى في ظل نعماء غضة
تباكره أفياؤها وتراوح

الى أن رمتــــه الحـــادثات بنكبـــة
تضـــيق به منهـا الرحاب الفسـائح
فأصـــبح نضـــوا لا ينـــوء كأنما
بأعظمـــه ممـا عـراه القـــوادح
فما خلتنى من بعـــد عـرج عـكامس
أقـــس أذوادا وهـــن روازح
حـــدا بير ما ينهضـــن الا تحـــاملا
شـــواسف عوج أســـأرتها الجوائح
فيا واثقـــا بالـــدهر كن غـــير آمـن
لمـا تنتضـيه الباهظات العـــوادح
فلست عـــلى أيامـــه بمحـــكم
أذا فهـــرت فاجا الخطـوب اللوالح
مجـيرك منـه الصـبر ان كنت صـابرا
والا كما يهوى العدو المكاشـــح »(٢٦)

وعلى الرغم مما فى هذين النموذجين اللذين مثلنا بهما من أحاديث ابن دريد من خشونة الألفاظ وغرابتها الا أن أحاديثه التى رواها يغلب عليها أنها من محفوظـه ، أو أنها نقلت اليـه من كتب الأدب واللغة بقصد تعليم الناشئة ليس غير •

وهذا يتضح من أن الكتب التى روت عنه أحاديثه لم ترو عنه بأنه صاحب الحديث وقائله ، وانما روت عن غـيره ، أى أن ابن دريد روى هذه الأحاديث عن غيره لتلاميذه ومعاصريه • يقول المؤلف من أصحاب

---

(٢٦) الامالى ٢/٣٩ •

المفردات : أقس : أتبع ـ روازح : سقطت من الهزال ـ حدابير : تقوست من الهزال واحدها حد بار •

الكتب القديمة مثل القالي وابن خلكان وغيرهما : « حدثنا أبو بكر بن دريد الأزدي عن فلان عن فلان قال » .

بالاضافة الى أن الراوي ليس واحدا في أحاديثه جميعها .

وهناك أمر آخر . هو أن أحاديثه التي رويت عنه لم تكن كلها في مستوى واحد من الغرابة اللفظية مع أن الهدف منها تعليم الناشئة أصول اللغة وغريبها ، وانما كان يروي عن غيره بعض الأحاديث أو الحكم التي يقل فيها الغريب ويكثر فيها السهل الواضح . مثل هذه الحكم التي رواها عن غيره . يقول أبو علي القالي : « وحدثنا أبو بكر - رحمه الله - قال أخبرنا عبد الرحمن عن عمه قال : « سمعت أعرابيا يقول : لا يوجد العجول محمودا ، ولا الغضوب مسرورا ، ولا الملول ذا اخوان ، ولا الحر حريصا ، ولا الشره غنيا »(٢٧) .

ويقول صاحب الأمالي أيضا : « وحدثنا أبو بكر قال : أخبرنا عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابيا يقول : « صن عقلك بالحلم، ومروءتك بالعفاف ونجدتك بمجانبة الخيلاء : وخلتك بالاجمال في الطلب »(٢٨) .

وكما تكون أحاديث ابن دريد نثرا خالصا ، أو من قبيل النثر والشعر على السواء تكون أيضا شعرا خالصا . ومن ذلك ما ورد في «وفيات الأعيان» لابن خلكان : « حدثنا أبو بكر بن دريد الأزدي قال: أخبرنا عبد الرحمن عن عمه قال : رأيت بالبادية امرأة على راحلة لها ، تطوف حول قبر وهي تقول :

(٢٧) الامالي ٢/٩ .
(٢٨) المصدر نفسه ٢/٣٠ .

يـا مـن بمقلتـه زعـا الدهـر
قـد كان فيـك تضـاءل الأمـر
زعمـوا فقلـت وما لهـم خبـر
كذبوا — وقبـرك — ما لهم عـدر
يا قبـر سـيدنا المجـن سـماحة
صـلى الالـه عليـك يا قبـر
ما ضـر قبرا فيـه شلوك سـاكن
ألا يمـر بأرضـه القطـر
فلينبعن سـماح جـودك فى الثرى
وليـورقن بقـربك الصـخر
واذا غضـبت تصـدعت فرقـا
منـك الجبـال وخـافك الذعـر
واذا رقـدت فـأنت منتبـه
واذا انتبهـت فوجهـك البـدر
والله اسـو بك لـم ادع أحـدا
الآ قتـلت لفـاتنى الدهـر

قال : عبد الرحمن — فدنوت منهـا لأسـألها عن أمرها فاذا هى ميتة » (٢٩) وهكذا كانت أحاديث ابن دريد تنبىء من طريقة روايتها ، ومن اختلافها فيما بينها بين الغرابة اللفظية والسهولة ، وبين الطول والقصر وتعدد الرواة ، بأنها ليست من وضع ابن دريد : ولكنهـا من محفوظة ، أي من رواية الرواة وكذا من كتب الأدب واللغـة . ولكن مقامات الهمذانى من وضـعه هو باجمـاع الشراح والدارسين وهذا

---

(٢٩) وفيات الاعيان ٢/٣٠٨ ، ٣٠٩ .

واضح من طريقة صياغته لمقاماته فى هيكل قصصى وجعله لمقاماته راوية وبطلا وكذا من أسلوبه وتنــوعه فى الأداء والموضوعات وافتتاناته فى سبك الحديث واشاعة جو الفكاهة فيهــا كلهــا فى أغلبها • واهتمامه بالفنون البديعية وبخاصة السجع والجناس والطباق •

واذا كان البديع الهمذانى ينوع أحيانا فى أســلوبه بين الغرابة والسهولة ، فانه كان ذكيا فطنــا يعرف ما يصــلح لكل موضوع من الألفاظ والمعانى وما يناسبه من الأفكار التى يصيغها • فلكل مقام مقال كما يقول هو ، وكما يقول غيره • ولكن هذا لا يعنى أن يكون البديع قد صاغ مقاماته على غير مثال سابق • ولكن من البدهيات ما قرره الدارسون ونقرره نحن أيضــا ، بأن البديع الهمذانى قد اطلع على أحاديث ابن دريد واستلهمها فى مقاماته وتأثر بكثير منهــا فى مقاماته وسنعرض ذلك بالتفصيل فيما بعد •

يقول فى ذلك الدكتور مصطفى الشكعة « فلاشك فى أن أحاديثه ــ أى بن دريد ــ كانت ذات مقصد واحــد هو التلقين اللغوى دون أى اعتبار آخر ، وليس فيهــا من الفن القصصى الا خيــال خاطف فى بعضها • وبشىء من التساهل يمكننا أن نقول : انها كانت احدى الشهادات الكثيرة التى ألهمت بديع الزمان مقاماته ، وليست هى كل شىء فى أصول المقامات » (٣٠) •

اى أن أحاديث ابن دريد هى التى ألهمت البــديع فكرة انشــاء المقامات ، وأنهــا كانت بذورا لوجودها • وان اختلفت أحاديث ابن دريد عن المقامات فى الصياغة والمعنى والمنهج الذى سلكه كل منهما ، مع اتحاد فى الهدف ، وهو تعليم الناشئة غريب اللغة وأصولها •

---

(٣٠) بديع الزمان الهمذانى ص ٣١٢ •

وهذا ما حدا بالحصرى لأن يجعل لابن دريد السبق فى هذا النوع من الحديث • واذا كان الحصرى قد أطلق على حكايات ابن دريد (أحاديث) وعلى حكايات الهمذانى (مقامات) ، فلعله يعنى بكل منهما الآخر ، والا لما وجدت الموازنة بينهما ، ولما تحدث هو عن أسبقية ابن دريد للهمذانى فى هذا النوع من الأحاديث أو المقامات •

وهذا ما يراه الدكتور / شوقى ضيف فى الموازنة التى عقدها بين أحاديث ابن دريد ومقامات الهمذانى حيث يقول : « على أنه ينبغى أن نلاحظ أن أحاديث ابن دريد تخالف مقامات الهمذانى فى موضوعها، اذ أن ما رواه له القالى فى كتابه الأمالى منها ما يدور غالبا حول حكايات عربيه قديمة ، للتاريخ والحب فيها نصيب بينما أقاصيص بديع الزمان تدور على التسول والكدية،ومع ذلك فالعلاقة بين العملين واضحة أولا : من حيث الاسم ، فان من معانى كلمة مقامة التى اختارها بديع الزمان لقصصه « حديثا » وتجمع على أحاديث وهو نفس الاسم الذ اقترحه ابن دريد لأقاصيصه ، وثانيا : من حيث الغاية • فأحاديث ابن دريد ومقامات بديع الزمان ألفتا لغاية واحدة هى تعليم الناشئة » (٣١) وما يراه الدكتور / زكى مبارك أيضا حيث يقول : « ومع أن ابن دريد هو المبتكر لفن المقامات فان عمل بديع الزمان فى هذا الفن أقوى وأظهر ، وطريقته فى القصص تختلف عن طريقة ابن دريد ، والذين كتبوا مقامات بعد ذلك لم يكن فى أذهانهم غير فن الزمان، فهو بذلك منشىء هذا الفن فى اللغة العربية ، ولم تسم تلك القصص بعد ذلك أحاديث كما سماها ابن دريد ، وانما سميت مقامات كما سماها بديع الزمان » (٣٢) •

---

(٣١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى • ص ٢٤٨ ، الطبعة العاشرة • دار المعارف المصرية •

(٣٢) النثر الفنى فى القرن الرابع ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ •

وهذا ما نرجحه ، وهو أن المقامات من حيث النشأة والابتكار تعود الى ابن دريدالذى سماها أحاديث ، ولكن من حيث قوة الصياغة وتنويع الأداء والتوسع فى الجوانب الفنية التى تجعل من المقامات فنا قصصيا محببا الى النفس مع الوقوف على الكثير من الجوانب الاجتماعية فى عصر البديع بالمعالجة واظهار ما فيها من مساوىء كمن وضع يده على الداء ليصف له الدواء ، فهذا كله للبديع وليس لغيره .

ولما كانت مقامات الهمذانى دائمة ومنتشرة بين أيدى القراء فضلا عما بها من جوانب فنية مشرقة وبارزة لم يسبق بها عرف بين القراء فى عصره وبعد عصره بأنه منشىء فن المقامة وليس ابن دريد الذى لم يطلع على أحاديثه كثير من القراء ، أو أنهم اطلعوا عليها فوجدوا الفوارق الفنية الكثيرة فتجاهلوها ، وأنكروا تأثير السابق فى اللاحق . ومن هنا عرف البديع بأنه منشىء هذا الفن وليس غيره .

وكان أول من قال بذلك منكرا تأثير ابن دريد فى مقامات الهمذانى هو الحريرى الذى روج لأسبقية الهمذانى لفن المقامات فى كلامه السابق . وجعل له فضل السبق فى هذا الميدان ، ومن كتب فى هذا الفن أخذ عنه واقتدى به وتحسس خطاه . وهذا هو الغلط الذى أذاعه الحريرى فى رأى الدكتور / زكى مبارك حيث يقول : « وكان المعروف أن بديع الزمان الهمذانى هو أول من أنشأ فن المقامات ، ولم أجد فيمن عرفت من رجال النقد من ارتاب فى سبق بديع الزمان الى هذا الفن ، وانما رأيت من يعلل سبقه بنزعته الفارسية ، اذ كان الفرس فيما يظن بعض الناس أحرص من العرب على القصص وأعرف بمصنوع الأحاديث .

وفى رأيى : أن الحريرى هو الذى أذاع هذا الغلط ، ثم آمن

الناس بقوله ، اذ كان أشهر من أقبل الجمهور عليهم من كتاب المقامات وهو فى مقدمة مقاماته ينسب الى بديع الزمان فضل السبق » (٣٣) .

من هذا كله نستطيع القول بأن بديع الزمان الهمذانى مسبوق فى هذا الفن حتى ولو لم يكن من وضع ابن دريد وانما هو من محفوظة أو منقول اليه ، ولكن للبديع فضل التفوق فى هذا الفن الذى هو من وضعه هو بلا أدنى شك .

عدد المقامات الهمذانية :

ورد فى كلام بديع الزمان الهمذانى ما يفيـد صراحة بأنه أملى أربعمائة مقامة . وما قاله فى هذا الشأن ليس فى صميم مقاماته ولكن فى رسائله التى عارض فيها أبابكر الخوارزمى ، وسابقه بها فسـبقه وتفوق عليـه .

ففى الرسالة الثالثة والخمسين بعد المـائة التى كتبها الهمذانى ينقض فيها قصـيدة لأبى بكر الخوارزمى ، تحداه فيهـا على طريقة القرآن الكريم حين تحدى الله تعالى فيه مشركى مكة أن يأتوا بمثله ، أو بمثل عشر سـور مفتريات من مثله ، أو بمثل أقصر سـورة منـه فعجزوا .

ففى هذه الرسالة يقرر الهمذانى أولا مفهوما عاما وهو أن الشاعر قد يجيد وقد يخفق ، وأن شعر الشاعر الواحد قد يأتى جيدا وقد يأتى رديئا ، ولكن شعر الخوارزمى لا يكون جيدا أبدا ، وانما هو ردىء — من وجهة نظر خصمه الهمذانى باستمرار ، ومع هـذا يقلل من شـأن الهمذانى بأنه لا يحسن سوى هذه المقامات ولا يجيد غيرها . فتحـداه

(٣٣) النثر الفنى ص ٢٤٢ .

بأن يأتى بخمس مقـامات ، أو عشر مفتريات ، والا كشف الهمذانى عيوبه ، وهو حقيق بذلك .

يقول الهمذانى فى رسالته هذه . « فقد يسمى الشاعر ثم يغث ، ويجيـد القائل ثم يرث . ولكن لا كما تراه فى شعر أبى بكر ، وكنت لأكشف تلك الأسرار . وأهتك هذه الأستار ، وأظهر منه العار والعوار ، لولا ما بلغنا عنه من اعتراض علينا فيما أملينا ، وتجهيز قدح علينا فيما روينا . من مقامات الاسكندرى من قوله : انا ــ يقصد الهمذانى نفسه ــ لا نحسن سواها ، وانا نقف عند منتهاها . ولو أنصف هذا الفاضل لراض طبعه على خمس مقامات ، أو عشر مفتريات . ثم عرضها على الأسماع والضمائر : وأهداها الى الأبصار والبصـائر . فان كانت تقبلها ولا تزجها ، أو تأخذها ولا تمجها . كان يعترض علينا بالقدح ، وعلى املائنا بالجرح ، أو يقصر سعيه ، ويتداركه وهنه ؛ فيعلم ان من أملى من مقـامات الكـدية أربعمائة مقـامه ؛ لا مناسـبة بين المقامتين لا لفظـا ولا معنى ، وهو لا يقدر منهـا على عشر . حقيق بكشف عيوبه . والسلام »(٣٤) وتابعه فى ذلك عدد ممن عرضوا لحياته وذكروا مقـاماته كالثعالبى وياقوت الحمـوى والحصرى وابن خلكان والحريرى وغيرهم من المؤلفين القدامى (٣٥) بل أيضا وبعض الكتاب المحدثين ، ومنهم : الدكتور / عمر فروخ الذى ردد ما قاله الثعالبى

---

(٣٤) كشف المعانى والبيان عن رسائل بديع الزمـان ــ الشـيخ ابراهيم الاحدب ، ص ٣٩٠ .

(٣٥) انظر : اليتيمة ٢٥٦/٤ وما بعدها . ومعجم الادباء ١٦١/١ وما بعدها . وزهر الآداب ٣٠٥/١ .
ووفيات الأعيان ١٢٩/١ ، ومقدمة مقامات الحريرى ص ٤ .

فقال : « وغادر بديع الزمان جرجان الى نيسابور (٣٨٢ هـ) حيث نشر بزه وأظهر طرزه وأملى فيها على أحد الكتاب أربعمائة مقامة » (٣٦) .

والدكتور مصطفى الشكعة الذى لا يجد مانعا من أن البديع قد كتب أربعمائة مقامة فعلا ، فضاع أكثرها كما ضاعت كتب كثيرة لأئمة الأدب وأهل العلم فى عصره وقبل عصره وبعــد عصره . وبنى الدكتور الشكعة توقعه هذا على أن البديع يملك من القدرة اللغوية والقوة البيانية والذكاء النادر ما يجعله يملى أو يكتب هذا العدد من المقامات . وأن مانع فى ذلك ؟ يقول الدكتور الشكعة : « ما الذى يمنع من أن يكون بديع الزمان قد كتب أربعمائة مقامة بالفعل ، ولدينا من قدرته الخارقة وذكائه النادر ، الشواهد الكثيرة التى تثبت تلك القدرة . هذا بالاضافة الى آن كثيرا من الكتب القيمة لأئمة الفكر والأدب من أمثــال الجاحظ وأبى حيــان والدينورى والبلخى وغيرهم قد ضــاعت مع فرط حرص الناس عليها ، والمقامات بجانب هذه الكتب لا تعدو أمرا خطيرا . وأدن فنحن نميل الى ما ذكره الثعالبى وما ذكره البديع نفسه من أن عــدد المقامات كان أربعمائة اندثر منها أغلبها ، فلم يصل الينا الا هذا القدر الصغير البالغ اثنتين وخمسين مقامة » (٣٧) .

وهذا الكلام يناقضه واقع المقامات وما هى عليه الآن . اذ لو كانت المقامات أربعمائة وضاع أغلبها كما يقول د / الشكعة وغيره لوجــدت المقامات عند واحد من الدارسين مثلا خمسين ، وعند آخر مائة ، وعند ثالث مائتين .

---

(٣٦) تاريخ الادب العربى ٥٩٦/٢ طبعــة دار العلم للملايين ـ بيروت .

(٣٧) بديع الزمان الهمذانى ص ٣٢٨ .

وهكذا • أى لتضاربت الأقوال فى عدد المقامات الهمذانية ، كما تضاربت فى أسمائها وأنواعها وموضوعاتها • ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، وانما الذى حدث هو اجماع الغالبية العظمى من الدارسين الذين لم يقنعوا بآراء السابقين على علاتها دون مناقشة ، ودون استقراء وتمحيص وانما بعد استقراء منهم وتمحيص للأقوال السابقة ومقارنتها بواقع المقامات وما هى عليه قديما وحديثا ، صارت عندهم قناعة بأن المقامات من يوم أن أملاها الهمذانى لا تتجاوز اثنتين وخمسين مقامة • وفى هذا يقول الدكتور كمال اليازجى : « وقد وضع البديع من هذه المقامات خمسين مقامة • نسج أحداثها حول (أبى الفتح الاسكندرى) وأسند روايتها الى عيسى بن هشام » (٣٨) •

ويقول الدكتور / زكى مبارك : « المتفق عليه عند كتاب التراجم أنها ــ أى المقامات الهمذانية ــ كانت أربعمائة ، ونحن نرجح أنها كانت خمسين لدليلين :

الأول : أنه عارض بها أربعين حديثا أنشأها ابن دريد ، والمعارضات كانت تتقارب دائما فى الكمية •

الثانى : أن مقاماته لم يحفظ منها غير خمسين ، فليس بمعقول أن يضيع من آثاره خمسون وثلثمائة مقامة ، مع أن آثاره لم يضع منها الا القليل •

يضاف الى ذلك أن الحريرى حين عارض بديع الزمان لم ينشىء معارضته غير خمسين مقامة ، ثم صار عدد الخمسين هو الرقم المتبع فيما كتب فى هذا النوع من الأقاصيص » (٣٩) •

---

(٣٨) الاساليب الادبية فى النثر العربى القديم ص ١٣٠ •

(٣٩) النثر الفنى ص ٢٥٢ •

وردد الدكتور / وهيب طنوس ما قاله الدكتور / زكى مبارك، فقال : « يقال : ان مقامات البديع أربعمائة ، لكن من المرجح أنها حوالى الخمسين فقط ، وذلك لسببين :

١ — أنه عارض فيها أربعين حديثا من أحاديث ابن دريد .

٢ — ليس من المعقول أن يضيع منها ٣٥٠ مقامة علما بأن الضائع من مؤلفاته قليل » (٤٠) .

وهناك من المؤلفين والكتاب المحدثين من يرجح أو يظن أن كلمة (أربعين) حرفت الى الأربعمائة ، أو أن بديع الزمان كان بصدد التزيد والافتخار فى عمله . فقال هذا الرقم فى معرض تحديه لابن دريد ثم تتابع النساخ والكتاب على ذلك .

ومن هؤلاء الدكتور عبد الوهاب عزام الذى يرجح أن بديع الزمان أملى أربعين مقامة فى الكدية ، وحرفت الكلمة الى أربعمائة ، وتتابع النساخ على ذلك (٤١) .

والدكتور شوقى ضيف الذى يقول : « ويقول بديع الزمان أنه صنع أربعمائة قصة من هذا النوع — أى القصص القصيرة — أو كما يسميها مقامة . غير أنه لم يصلنا منها الانيف وخمسين فقط ، وأكبر الظن أن بديع الزمان كان بصدد الافتخار والتزيد فى عمله ، وذلك ينبغى ألا نفهم العدد الذى ذكره بمعناه الحرفى »(٤٢) .

---

(٤٠) فى النثر العباسى ص ٣١١ .

(٤١) انظر : مجلة الرسالة العدد ٤٥ المجلد الثانى من السنة الثانية ص ٨٢٤ .

(٤٢) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٢٤٧ .

الى غير ذلك من الأقوال الكثيرة التى تناقض أقوال من يرى بأن المقامات أربعمائة مقامة بما فيها رأى المؤلف نفسه — أعنى البديع الهمذانى — وأنا أميل الى هذه الآراء الأخيرة وأرجحها ، لأنه لم لم يوجد بين أيدى الدارسين سوى هذه الخمسين أو على الأكثر اثنتين وخمسين مقامة • وهى فقط المتداولة بين أيديهم وأقلامهم • وكلهم — تقريبا — يبنون آراءهم على أنه ليس من المعقول أن يضيع هذا العدد الكبير من مقامات الهمذانى ، مع اتفاق الجميع على قلة ما ضاع من آثاره ، وأن ما ذكره فى بعض رسائله من أنه أملى أربعمائة مقامة فى الكدية ، انما هو على سبيل التزيد والافتخار والتحدى لمن خاصمه فى الكتابة سواء فى المقامات أو فى الرسائل •

ولكن هل أمليت مقامات الهمذانى جميعها فى نيسابور ؟

هذا الكلام قاله أبو منصور الثعالبى فى (يتيمة الدهر) وتابعه فيه غيره ممن عرضوا للهمذانى ومقاماته من المؤلفين القدامى • يقول فى ذلك الثعالبى : « ولما استقرت عزيمته — أى بديع الزمان — على قصد نيسابور ، أعانه (٤٣) على حركته وأزاح علله فى سفرته ، فوافاها فى سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة ، ونشر بها بزه وأظهر طرزه ، وأملى أربعمائة مقامة نحلها أبا الفتح الاسكندرى فى الكدية وغيرها • وضمنها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين » (٤٤) •

ومعنى هذا أن مقامات الهمذانى جميعها — أيا كان عددها — أمليت فى نيسابور مع أن المعروف عن الهمذانى أنه لم تطل اقامته فى نيسابور

---

(٤٣) يقصد أبا سعد محمد بن منصور الذى نزل عليه بديع الزمان فى جرجان فاكرم وفادته ونفقت عنده بضائعه ، وأعانه على سفره منها الى نيسابور •

(٤٤) اليتيمة ٤/٢٥٧ •

بل أقـــام فيها عاما واحـــدا من سنة ٣٨٢هـ ـــ ٣٨٣هـ فقط وهذه المدة لا تكفى لكتابة مقاماته •

والمعروف عنه أيضا أنه كان جواب آفاق • وأكثر من تطوافه فى البلاد ، فرحل الى ايران وأفغانستان وسمـــرقند والرى ونيســـابور وجرجان وخراسان وسجستان وغيرها من البلدان ، فدخل كل مدينة وتنقـــل من علمها ونال من خيرها • وفى ذلك يقول الثعالبى نفســـه : « انه لم يبق من بلدة فى هذه الأنحاء الا دخلها وجنى ثمرتها ، واستفاد خيرها وميرتها ، ولا ملك ولا أمـــير ولا وزير ولا رئيس الا اســـتمطر بنوئه ، وسرى فى ضوئه ، ففاز برغائب النعم ، وحصـــل على غرائب القســـم ، وألقى عصاه بهراة واتخـــذها دار قراره ، ومجمع أسبابه ، واقتنى ضـــياعا فاخرة ، وعاش عيشـــة راضية ، وحين بلغ أشـــده ، وأربى على الأربعين ناداه الله فلباه،وفارق دنياه سنة ٣٩٨هـ »(٤٥) •

أضف الى هذا الكلام ما قالهالدكتور مصطفى الشكعة : «المعروف أن بديع الزمان دخل نيسابور سنة ٣٨٢هـ ، وخرج منها سنة ٣٨٣هـ ، وبذلك تكون اقامته فيها حـــوالى العام ، الأمر الذى لا يعقـــل معـــه أن يكون البديع قد وجد من فسحة الوقت ما يسمح له بانشـــاء هـــذا العدد الضخم من المقامات فى تلك الفترة القصيرة » (٤٦) •

ويجتهد الدكتور الشكعة فى الاتيـــان بالقرائن الدالة عـــلى أن الهمذانى لم ينشىء كل مقاماته فى نيسابور فيقول : « وهناك من القرائن ما يدل على أنه لم ينشىء كل المقامات فى نيسابور ، مثـــل تلك المقامات الست التى أنشأها فى مدح خلف بن أحمد أمير سجستان لا فى نيسابور •

---

(٤٥) المصدر نفسه ٤/٢٥٦ •

(٤٦،٤٧) بديع الزمان الهمذانى ص ٣٣٩ •

هذا من ناحية • ومن ناحية أخرى يصرح الحصرى صاحب زهر الآداب أن المقامة الحمدانية أنشأها البديع سـنة ٣٨٥ هـ أى بعد أن غادر نيسابور بثلاث سنوات » (٤٧) •

ولعل فى حديث الهمذانى فى مقاماته التى ذكر فيها أسماء كثير من البلدان ما يفيد أنه أملاها فى غير نيسابور •

ففى المقامة « الجرجانية » يقول : « حدثنا عيسى بن هشام قال : بينا نحن بجرجان فى مجمع لنا نتحدث وما فينا الا منا ••• » (٤٨) •

وفى المقامة « الأصفهانية » يقول : « حدثنا عيسى بن هشـام قال:كنت بأصفهان أعتزم المسير الى الرى فحللتها حلول الفى••»(٤٩)

وفى المقامة « الأهوازية » يقول : « حدثنا عيسى بن هشام قال : كنت بالأهواز فى رفقة متى ترق العين فيهم تسهل ••• »(٥٠) •

وفى المقامة « البغدادية » يقول : « حدثنا عيسى بن هشام قال : اشتهيت الأزاز(٥١) وأنا ببغداد • وليس معى عقد على نقد • فخرجت أنتهز محالة حتى أحلنى الكرخ ••• »(٥٢) •

وفى المقامة (البصرية) يقول : « حدثنا عيسى بن هشـام قال : دخلت البصرة وأنا من سنى فى فتاء ••• » (٥٣) •

---

(٤٨) مقامات بديع الزمان ص ٤٦ شرح الشيخ محمد عبده •

(٤٩) المصدر نفسه ص ٥١ •

(٥٠) مقامات بديع الزمان الهمذانى ص ٥ •

(٥١) الأزاذ : أجود أنواع التمر •

(٥٢) مقامات بديع الزمان الهمذانى ص ٥٩ • والكرخ : محل لبيع التمر فى الجانب الغربى من بغداد •

(٥٣) مقامات بديع الزمان الهمذانى ص ٦٣ •

وفى المقامة (الفزارية) يقول : « حدثنا عيسى بن هشام قال : كنت فى بعض بلاد فزارة مرتحلا نجيبة، وقائدا جنيبة ... »(٥٤) .

وفى المقامة (البخارية) يقول : « حدثنا عيسى بن هشام قال : أحلنى جامع بخارى يوم . وقد انتظمت مع رفقة فى سلك الثريا .... » (٥٥) .

وفى المقامة (القزوينية) يقول : « حدثنا عيسى بن هشام قال : غزوت الثغر بقزوين سنة خمس وسبعين ... »(٥٦) .

وفى المقامة (الساسانية) يقول : « حدثنا عيسى بن هشام قال : أحلتنى دمشق بعض اسفارى . فبينا أنا يوما على باب دارى، اذ طلع على من بنى ساسان كتيبة قد لفوا رؤوسهم ، وطلوا بالمغرة لبوسهم ... » (٥٧) .

وفى المقامة (الموصلية) يقول : حدثنا عيسى بن هشام قال : لما قفلنا من الموصل ، وهممنا بالمنزل .. » (٥٨) .

وفى المقامة « العراقية » يقول : « حدثنا عيسى بن هشام قال : « طفت الآفاق حتى بلغت العراق . وتصفحت دواوين الشعراء»(٥٩).

---

(٥٤) مقامات بديع الزمان الهمذانى ص ٦٨ .

(٥٥) مقامات بديع الزمان الهمذانى ص ٨٢ .

(٥٦) مقامات بديع الزمان الهمذانى ص ٨٦ . ويقصد : الخمس والسبعين بعد الثلاثمائة أى القرن الرابع الهجرى .

(٥٧) مقامات بديع الزمان الهمذانى ص ٩٢ .

(٥٨) مقامات بديع الهمذانى ص ٩٨ .

(٥٩) مقامات بديع الزمان الهمذانى ص ١٤٢ .

الى غير ذلك من المقامات الكثيرة التى ذكر فيها أسماء كثير من البلاد التى رحل اليها وتحدث فى مقاماته عن أنه جابها وطاف فى أنحائها . وكانت طريقته فى حديثه عن هذه المقامات هى نفس طريقته فى حديثه عن المقامة « النيسابورية » . حيث قال فى مطلع المقامة « النيسابورية » : « حدثنا عيسى بن هشام قال : كنت بنيسابور يوم جمعة ، فحضرت المفروضة » (٦٠) .

أضف الى ذلك أن الهمذانى نفسه حين ذكر فى رسائله : أنه أملى أربعمائة مقامة ، لم يتحدث بأنه أملاها فى نيسابور .

واذا تأكد لنا أن الراوى والبطل فى المقامات شخصيتان خياليتان علمنا بأن الذى طاف بالبلاد هو بديع الزمان نفسه . وهذا ما يؤكد لنا أن المقامات لم تمل جميعها فى نيسابور ، وانما فى بلدان مختلفة .

البطل والراوى فى المقامات الهمذانية :

اذا كان بديع الزمان قد أبدع فى تصوير قطاع من الحياة فى مجتمعه الذى عاش فيه — أعنى مجتمع القرن الرابع الهجرى — من خلال مقاماته التى أجاد سبكها وصياغتها والتعبير فيها عما أراد . فانه أيضا قد أبدع فى اختيار البطل والراوى لهذه المقامات ولما كان الساسانيون قد عرفوا فى عصره باللباقة والذكاء وحسن التخلص من المواقف الحرجة والمآزق التى تفرض عليهم شباكها أحيانا . متخذين من الأدب وسيلة للتكسب والسؤال . فقد اختار الهمذانى بطل مقاماته على هذه الصورة ، وسماه أبا الفتح الاسكندرى ، وأظهره فى صور مختلفة حيث كانت صورته فى كل مقامة تختلف عن بقية صوره فى بقية

(٦٠) مقامات بديع الزمان الهمذانى ص ١٨٩ .

مقاماته•فكان يتنقل بين البلدان ويغير مهنته وحرفته من بلد الى آخر . فهو فى بلد امام يصلى بالناس ويعظهم ، وفى بلد آخر ساحر واثق من نفسه يقوى على ما لا يقوى عليه غيره من الناس • وفى بلد ثالث قراد يظهر ألعابا مضحكة يدهش بها الناس ويبتز أموالهم ، وفى بلد رابـــع وراق يكتب الأوراق ويجيد الصياغة والتحبير •• الى آخره •

وهو فى كل ذلك من الأدباء السيارين المكادين الذين يطوفون بـــين البلدان يسألون الناس من فضـــلهم ويستجدونهم بفصاحتهم ويؤثرون فيهم ببلاغتهم ويجذبون انتباههم بما يدور بينهـــم من حوار قصصى محبب الى القلوب والأسماع • ودائمـــا يلتقى به عيسى بن هشـــام ويعجب بفصاحته وكيفية خروجه من المآزق التى يوضع فيها فى أحيان كثيرة ، ويروى حكايته ويظهر أمره للناس • « ولا شـــك أن شخصية أبى الفتح الاسكندرى كانت تدعو الى الكثير من العجب والاعجاب ، فهو بطل فى الكدية ، وبطل فى المغامرات ، وبطل فى الفصاحة والشعر ، وشخصية فكاهية من الطراز الأول ، عليهـــا بنى بنيان المقامات ورونقها ونجاح مغامراتها ونشاط حركتها » (٦١) •

وحتى يجعل البديع قصصه مقبولة تثير الدهشة باستمرار فقـــد جعل الراوى عيسى بن هشام يتنقـــل من بلد الى بلد دون صحبة البطل أبى الفتح الاسكندرى وجعل اللقـــاء يتم بينهما فجأة فى البلـــد الذى ينتقل اليه ابن هشام ، وكأن ابن هشام لا يعرف صاحبه من قبل ولا يتعرف عليه الا من خلال القصة ، وكأنه شخصية أخرى غير التى روت من قبل•وكأن صاحبه شخصية أخرى ليس له بها سابق معرفة •

---

(٦١) بديع الزمان الهمذانى ص ٣٤١ د/ مصطفى الشكعة •

وزاد من ابداع الهمذانى فى مقاماته هذه أنه اختار راوية وبطلا من نسج الخيال وليس لهما وجـود حقيقى فى عالـم الناس • وهذا ما تحدث به الحريرى فى مقدمة مقاماته فقال : « وبعد : فانه قد جرى ببعض أندية الأدب الذى ركدت، فى هذا العصر ريحه ، وخبت مصابيحه، ذكر المقامات التى ابتدعها بديع الزمان ، وعلامة همذان •

وعزا الى أبى الفتح الاسكندرى نشأتها ، والى عيسى بن هشام روايتها ، وكلاهما مجهول لا يعرف ، ونكرة لا تتعرف » (٦٢) •

ويقول الدكتور شوقى ضيف : « ولا يختلف باحث فى أن هـذا البطل من خيال بديع الزمان فلم يسبقه باسمه أحـد ، وانما هو الذى وضعه لمقاماته •• وكما أن شخصية أبى الفتح بطل المقامات خيالية ، فكذلك شخصية الراوى عيسى بن هشام فهما جميعا من صنع البديـع واقتراحه » (٦٣) •

هل الاسكندرية المنسوب اليها أبو الفتح هى اسكندرية مصر،أم غيرها؟

بالرجوع الى معجم البلدان لياقوت وجدناه يذكر أنواعا عـديدة من البلدان التى سميت بالاسكندرية • والتى بناها الاسكندر المقدونى أو الاسكندر الأكبر الذى يطلق عليه هو الاسكندر بن فيلفوس الرومى فهو يقول : « قال أهل السـير : ان الاسـكندر بن فيلفوس الرومى قتل كثيرا من الملوك وقهرهم ، ووطىء البلدان الى أقصى الصين وبنى السد وفعل الأفاعيل ، ومات وعمره اثنتان وثلاثون سنة وسبعة أشهر لم يسترح فى شىء منها ••• على أن الاسكندر كان اذا ملك البـلاد عمرها ، واستخلف عليها •• قال أهل السير : بنى الاسكندر ثلاث عشرة

---

(٦٢) مقدمة مقامات الحريرى ص ٤ وما بعدها •
(٦٣) المقامة ص ٢٣ ، ص ٢٤ •

مدينة وسماها كلها باسمه ثم تغيرت أساميها بعده ، وصار لكل واحدة منها اسم جديد ٠

فمنها الاسكندرية التى بناها فى باور نقوس ٠
ومنها الاسكندرية التى بناها تدعى المحصنة ٠
ومنها الاسكندرية التى بناها ببلاد الهند ٠
ومنها الاسكندرية التى بناها فى جاليقوس ٠
ومنها الاسكندرية التى فى بلاد السقوياسيس ٠
ومنها الاسكندرية التى على شاطىء النهر الأعظم ٠
ومنها الاسكندرية التى بأرض بابل ٠
ومنها الاسكندرية التى هى ببلاد الصغد وهى سمرقند ٠
ومنها الاسكندرية التى تدعى مرغبلوس وهى مرو ٠
ومنها الاسكندرية التى فى مجارى الأنهار بالهند ٠
ومنها الاسكندرية التى سميت كوش وهى بلخ ٠
ومنها الاسكندرية العظمى التى ببلاد مصر ٠

فهذه ثلاث عشرة اسكندرية نقلتها من كتاب ابن الفقيه كما كانت فيه مصورة » (٦٤) ٠ ثم يذكر ياقوت أنواعا أخرى من الاسكندرية ٠ ومنها : « الاسكندرية التى هى قرية بين حلب وحماة ٠ والاسكندرية التى هى قرية على دجلة بازاء الجامدة بينها وبين واسـط خمسة عشر فرسخا ٠ ومنها الاسكندرية التى هى قرية بين مكة والمدينة ٠٠ وجميع ما ذكرنا من المدن ليس فيها ما يعرف الآن بهذا الاسم الا الأسكندرية العظمى التى بمصر » (٦٥) ٠

---

(٦٤) معجم البلدان ١٨٢/١ ، ١٨٣ ٠
(٦٥) المصدر نفسه ١٨٣/١ ٠

على أن الشيخ محمد عبده فى شرحه لمقامات الهمذانى يذكر لنا اسكندرية أخرى غير ما ذكره ياقوت • فحين قال بديع الزمان فى المقامة « الجرجانية » على لسان أبى الفتح الاسكندرى : « ياقوم انى امرؤ من أهل الاسكندرية من الثغور الأموية » •

قال الشيخ محمد عبده فى شرحه فى الهامش : « أراد بالاسكندرية مدينة فى ثغور الأندلس لا اسكندرية مصر المشهورة » (٦٦) •

وقال الدكتور الشكعة عن تلك المدينة نفسها التى أشار اليها الشيخ محمد عبده : « وقد بنى الاسكندر مدينة على نهر آموى « جيحون » • وأغلب الظن أن البديع قد نسب بطل مقاماته اليها ، ولعل هذه المدينة كانت موجودة فى أيام البديع ، وكلمة الثغور فى العرف الاسلامى تطلق على البلد المجاور لبلاد الأعداء ، سواء أكانت على بحر أم فى الداخل • وبذلك تكون الاسكندرية المقصودة فى الغالب ، المدينة التى بناها الاسكندر على نهر آموى « جيحون » (٦٧) •

وأنا أميل الى هذا الرأى وأرجحه بأن الاسكندرية التى أرادها الهمذانى ونسب اليها بطل مقاماته هى تلك المدينة التى هى من ثغور الأندلس ، والتى هى على نهر آموى « جيحون » • وذلك لأن الهمذانى لم يتعد فى مقاماته البلاد التى أشار اليها فى مقاماته وهى : بلاد الشام والعراق وما جاورها من بلاد الشرق الاسلامى فى شرق وشمال شرق

---

(٦٦) مقامات بديع الزمان الهمذانى ص ٤٦ •

(٦٧) بديع الزمان الهمذانى ص ٣٤١ • ورأى الدكتور الشكعة هذا مأخوذ من رأى الدكتور عبد الوهاب عزام فى مذكراته لطلبة الليسانس سنة ١٩٤٤ بكلية الآداب جامعة القاهرة •

آسيا . فلم يكتب عن مصر حتى يظن بأن الاسكندرية المنسوب اليهــا أبو الفتح هى اسكندرية مصر . ولم يكتب عن غير البلاد المذكورة فى مقاماته وهى : بلاد الشام والعراق ونيسابور وأذربيجــان وسجستان وجرجان وأصفهان . . وغيرها من البلاد التى سمى مقاماته باسمها . ولذا فقد نسب بطل مقاماته الى مدينة تسمى الاســكندرية من مــدن البلاد التى سمى مقاماته باسمها . وأن كان هذا الاسم لتلك المدينــة قد عفى وتلاشى الى غيره الآن .

الفصل الثالث

علاقـــة المقامات بالكديـــة

معنى الكدية وعلاقتها بالمقامات الهمذانية :

حين نبحث عن معنى هذه الكلمة فى كتب المعاجم العربية نجد من معانيها الاستعطاء والاستجداء . ففى تاج العروس للزبيدى .

« كدّ ـ كدّا » : اشتد فى العمل ـ طلب الرزق ـ وألح فى الطلب.

وأكد واكتد : أمسك وبخل .

والكدود : البخيل .

كدى يكدى كديا : الرجل بخل فى العطاء .

كدى تكدية : سأل واستعطى .

أكدى اكداء : بخل فى العطاء .

تكدى تكديا : تسول وتكلف التكدية .

الكدية والكداة والكداية : ما جمع من التراب والحبوب .

الكدية بالضم جمع كدى : الاستعطاء وحرفة السائل الملح» (١).

من التتبع والاستقصاء لمعانى هذه المادة عرفنا أنها تدور حـول معنى الاستعطاء والاستعطاف من ناحية ، والبخل فى العطاء من ناحية ثانية ، وكلا المعنيين واضح فى مقامات البديع ولاسـيما فى مقـامته « الوصية » . حيث أوصى البديع ابنه فيها بأن يكون شحيحا بخيلا ، وحذره من «الكرم والقرم» ورخص له فى مطعومين يتناولهما اذا أراد، هما « الملح والبصل » . وكانت هذه وصايا لابنه على الرغم من أنه

(١) تاج العروس للزبيدى ج ١٠ ـ ص ١١٠ ـ ٦٢ .

يستجدى الناس ويحتال عليهم بجميع الوسائل لأخذ أموالهم وما استطاعه منهم .

ويبدوا أن الهمذانى كان له ولع شديد بمعرفة أحوال المكدين فى زمنه وقبل عصره ، فاستوعب أحوالهم وصنائعهم ، وماذا يقولون ، وماذا يفعلون ؟ والأشكال المختلفة التى يظهرون بها فى جميع أحوالهم، وكلما سلكوا سبيل الكدية والاحتيال على الناس ، والأساليب المختلفة التى تتفق مع الأماكن المختلفة فكل مكان له أسلوب يناسب الناس فيه .

ولا شك أنه استوعب ذلك كله فجعل بطل مقاماته أبا الفتح الاسكندرى يتلون بجميع الألوان ويظهر فى جميع الأشكال ، ويتحدث بكل الأساليب التى يستخدمها المحتالون على الناس نهبا لأموالهم واستغلالا لمواردهم مع اعجابهم بفصاحته وبيانه وطلاقة لسانه ، فظهر بطل مقاماته فى مظاهر مختلفة وحيل متعددة ، وبكلام مرتب منسق .

فكان يظهر تارة اماما يصلى بالناس ويعظهم ، وتارة يصطحب معه طفلا صغيرا وهو فى حاجة الى من يعينه على أطفاله ، وتارة نبطيا خرج عن دينه الى الاسلام وهو فى سبيل الله ومن أبناء السبيل ، وتارة يبدو قرادا يرقص قردا ، وتارة يدق على صدره بحجر وخلفه رجال وصبيان يرددون أقوالا خاصة بالكدية .. الى غير ذلك من الأشكال الكثيرة والمختلفة التى يحتال بها على الناس طلبا لعطائهم ونيلا لرفدهم .

ولكن من قراءاتنا الكثيرة والمتأنية لمقامات الهمذانى ومن وقوفنا على الأدوار المختلفة التى يقوم بها أبو الفتح الاسكندرى بطل المقامات محتالا على الناس . أجد نفسى أمام علامة استفهام كبيرة مضمونها :

هل استوحى الهمذانى فكرة المكدين وطرق احتيالهم من نفسه وتفكيره فقط ؟ أم أنه استوحاها من واقع عصره ، ومما قرأه لغيره من معاصريه ومن سبقوه كالجاحظ وغيره ؟

أعتقد الأمرين معا . والأمر الثانى أكثر . أى أنه استوحاها من غيره بعد تفكير وطول نظر .

وحين نتصفح يتيمة الدهر للثعالبى وهو الكتاب الذى اهتم بالهمذانى اهتماما كبيرا ، ومن جاء بعده أخذ عنه . حين نتصفح هذا الكتاب نجد فيه شعرا كثيرا للأحنف العكبرى يتحدث فيه عن الساسانيين مفتخرا وعن صفاتهم وأساليبهم فى الاحتيال .

يقول عنه الثعالبى : « شاعر المكدين وظريفهم ومليح الجملة والتفصيل منهم .. وهو فرد بنى ساسان اليوم بمدينة السلام » . ويروى عنه قوله :

على أنى بحمد اللـ	ـه فى بيت من المجد
باخوانى بنى ساسا	ن أهل الجد والخد
لهم أرض خراسا	ن فقاشان الى الهند
الى الروم الى الزنج	الى البلغار والسند
اذا ما أعوز الطرق	على الطراق والجند
حذارا من أعاديهم	من الأعراب والكرد
قطعنا ذلك النهج	بلا سيف ولا غمد
ومن خاف أعاديه	بنا فى الروع يستعدى

ويذكر الثعالبى تعليقا على البيت الأخير يقول فيه : « ولهذا البيت الأخير معنى بديع وتفسيره : يريد أن ذوى الثروة وأهل الفضل

والمروءة اذا وقع أحدهم فى أيدى قطاع الطريق وأحب التخاص ، قال: أنا مكدى . فانظر كيف غاص وأبرز فى هذا المعنى المعثاص ؟ » .

وروى الثعالبى له شعرا كثيرا منه قوله :

قد قسم الله رزقى فى البـــلاد فما   يـــكاد يـــدرك الا بالتفـــــاريق
ولست مكتسـبا رزقا بفلسـفة   ولا بشـــعر ولكن بالمخـــــاريق
والناس قد علموا أنى أخـــو حيل   فلست أنفق الا فى الرساتيق (٢)

كما نجد فى اليتيمة أيضا شعرا كثـــيرا لأبى دلف الخزرجى الذى عارض الأحنف العكبرى فى داليته . يقول عنه الثعالبى : « شاعر كثير الملح والظرف ، مشحوذ المدية فى الكدية ، خنق التسـعين فى الاطراب والاغتراب ، وركوب الأسفار الصـــعاب ، وضرب صـــفحة المحـــراب بالجراب ، فى خدمة العلوم والآداب ، وفى تدويخه البلاد . يقول من أبيات أنشدنيها أبو الفضل الهمذانى(٣) :

وقد صـــارت بـــلاد اللـــ   ه فى ظعنى وفى حلى
تغايـــرن بلبثى (٤) و   تحاسدن على رحلى
فمـــا أنزلهـــــا الا   على أنس من الأهل

وكان ينتاب حضرة الصاحب ويكثـــر المقام عنده ويكثر ســـواد غاشيته وحاشيته ويرتفق بخدمته ، ويرتزق فى جملتـــه ، ويتزود كتبه فى أسفاره ، فتجرى مجرى السفائج فى قضاء أوطاره ، وكان الصاحب يحفظ مناكاة ــ حيل ــ بنى ساسان حفظا عجيبا ويعجبه من أبى دلف

---

(٢) اليتيمة ج ٣ ص ١٠٤ ، ١٠٥ .
(٣) أبو الفضل الهمذانى هو بديع الزمان الهمذانى .
(٤) اللبث : الاقامة . والتغاير عن الغير .

وفور حظه منها ، وكانا يتجاذبان أهدابها ويجريان فيما لا يفطن له حاضرهما ، ولما أتحفه أبو دلف بقصيدته التى عارض بها دالية الأحنف العكبرى فى المناكاة وذكر المكدين والتنبيه على فنون حرفهم وأنواع رسومهم ، وتنادر بادخال الخليفة المطيع لله فى جملتهم ، وقد فسرها تفسيرا شافيا كافيا اهتز ونشط لها وتبجح بها وتحفظ كلها وأجزل صلته عليها » •

ويقول الثعالبى : « وأنشدنى بديع الزمان لأبى دلف ونسبه فى بعض المقامات الى أبى الفتح الاسكندرى :

ويحك هذا الزمان زور	فلا يغرنك الغرور
زوق ومخرق وأطبق	واسرق وطبق لمن يزور
لا تلتزم حالة ولكن	در بالليالى كما تدور »

وهذه الأبيات الثلاثة ذكر منها بديع الزمان الهمذانى البيتين الأول والثالث فى نهاية المقامة القريضية ونسبهما الى أبى الفتح الاسكندرى ، ولما كان أبو الفتح بطلا وهميا من خيال البديع • اذن فالبيتان كتبهما البديع فى نهاية المقامة « القريضية » وهما لأبى دلف كما نسبهما اليه البديع نفسه فى اليتيمة وتأثر بهما أيما تأثر والا ، لما أوردهما على لسان بطله ، وهذا ما يدل على أنه تأثر فى الكدية بأبى دلف والأحنف العكبرى وغيرهما •

ويذكر الثعالبى فى اليتيمة مائة وأربعة وتسعين بيتا تحت عنوان : « وهذا ما اخترته من قصيدته الساسانية التى أولها :

جفون دمعها يجرى	لطول الصد والهجر
وقلب ترك الوجد	به جمرا على جمر
لقد ذقت الهوى طعمين	من حلو ومن مر
ومن كان من الأحرا	ر يسلو سلوة الحر »

وظل أبو دلف ينشد فى هذه القصيدة موضحا صفات الساسانيين الذين هو منهم وأساليبهم فى الكدية وتطوافهم فى البلاد مكدين مستجدين فيقول :

فنحـن النـاس كل النا	س فى البر وفى البحـر
أخـذنا جزيـة الخلـق	مـن الصـين الى مصـر
الى طنجـة بـل فى كـ	ـل أرض خيلنـا تسرى
اذا ضـاق بنـا قطـر	نـزل عنـه الى قطـر
لنـا الدنيا بمـا فيها	من الاسـلام والكفـر
فنصـطاف عـلى الثلـج	ونشـتو بلدة التمـر
فنحـن الميزقـانيو (٥)	ن لا ندفـع عن كـبر (٦)

على أن البديع الهمذانى قد تأثر تأثرا كبيرا بهـذين الشـاعرين وبالقوم الذين انتسبا اليهم وهم الساسانيون لدرجة أن البديع ينشىء مقامة باسم « المقامة الساسانية » يتحـدث فيها عيسى بن هشـام عن « كتيبة من بنى ساسان قد لفوا رءوسهم ، وطلوا بالمغرة — الطـين الأحمر — لبوسهم ، وتأبط كل واحد منهم حجرا يدق بـه صـدره ، وفيهم زعيم لهم يقول وهم يراسـلونه ويدعو وهم يجاوبنه » فلمـا رأى زعيمهم عيسى بن هشام أخذ يفصح عن مطالبه : أريد منك رغيفا .. أريد ملحا جريشا .. أريد بقلا قطيفا .. أريد لحمـا غريضـا .. أريد .. أريد .. الى آخر مطالبه . ومن عجب أن يكون هذا الزعيم لبنى ساسان هو أبو الفتح الاسكندرى الذى سـأله الراوى عيسى بن هشام قائلا له : ما هذه الحيلة ويحك ؟ فأنشأ يقول :

---

(٥) الميزقانيون : من أصحاب الكرية ، وميزق : كرى .

(٦) اليتيمـة جـ ٣ من ص ٣٢١ — ٣٢٤ الطبعـة الأولى سـنة ١٩٣٤ مطبعة الصاوى بمصر .

هذا الزمان مشـــوم كمـــا تـــراه غشـــوم
الحمـــق فيه مليـــح والعقـــل عيب ولوم
والمـــال طيـــف ولكن حول اللئام يحوم»(٧)

لا شك أن ما فى هذه المقامة من حيل ، بل من معان وصور وأساليب كلها منتزعة من أساليب وحيل وصـــفات الساسانيين الذين تأثر بهـــم البديع الهمذانى فى كل مقاماته ، لا سيما التى نسجت خيوطها فى الكدية.

على أن شعر الأحنف وأبى دلف وكذا تأثر البديع بالساسانيين ، ليس هذا هو كل ما أوحى اليه بفكرة الكدية فى مقاماته ، بل أيضا ما ذكر من نوادر المكدين وصفاتهم وحيلهم فى عصره وقبل عصره كان مما أوحى اليه كـــذلك بهذه الفكـــرة ، وقد جمـــع البيهقى فى كتابـــه « المحاسن والمساوىء » كثيرا من هذه الصفات وتلك النوادر والحيل . وفى الكتاب فصل بعنوان : « أصناف المكدين وأفعالهم » . وتحت هذا العنوان :

« منهم المكى وهو الذى يأتيـــك وعليه سراويل واســـع دبيقى أو نرسى وغيه تكة أرمنية قد شدها الى عنقه فيأتى المسجد فيقول أنا من مدينة مصر ابن فلان التاجر وجهنى أبى الى مرو فى تجارة ومعى متاع بعشرة آلاف درهم فقطع على الطريق وتركت على هذه الحال ، ولست أحسن صناعة ولا معى بضاعة وأنا ابن نعمـــة وقـــد بقيت .. ومنهم السحرى الذى يبكر الى المســـاجد من قبـــل أن يؤذن المـــؤذن .. والشجرى الذى كان يؤثر فى يـــده اليمنى ورجليـــه حتى يرى الناس أنه كان مقيدا مغلولا .. ومنهم الذراحى الذى يأخذ الذراريح فيشدها فى موضع من جسده من أول الليل ويبيت عليه ليلته حتى يتنفط فيذر ... بالغداة عريان وقد تنفط ذلك الموضع وصار فيه القيح الأصفر ، ويدهنه

---

(٧) مقامات بديع الزمان الهمذانى ص ٩٢ ــ ٩٥ .

على ظهره قليل رماد فيوهم الناس أنه محترق .. ومنهم الخاقانى الذى يحتال فى وجهه حتى يجعله مثل وجه خاقان ملك الترك ويسوده بالصبر والمداد ويوهمك أنه ورم وزكيم المغالطــة .. ومنهــم السكوت الذى يوهمك أنه لا يحسن أن يتكلم .. » (٨) الى آخر طرق الاحتيال الكثيرة التى هى من أفعال المكدين . هذا وقد احتفظ البيهقى فى كتابه هذا — أعنى المحاسن والمساوىء — بفصل طريف كتبه الجاحظ عن أهل الكدية ونوادرهم وطرق احتيالهم ، ويبدأ الفصل « بمحاورة بين شيخ من أهل الكدية وشاب منهم حديث العهد بالصناعة ، وقد سأله عن حاله ، فسب الكدية وصناعتها ، فغضب الشيخ وثار لصــناعته وأخــذ يتحدث عن شرفها وأن صاحبها فى نعيم لا ينفد « فهو على بريد الدنيا ومســاحة الأرض ، وخليفة ذى القرنين الذى بلغ المشرق والمغرب حيثما حل ، لا يخاف البؤس ، يسير حيث شاء ، يأخذ أطايب كل بلدة » .. ويذكر له الملم صاحب الكدية بكل بلدة فى موسم حصادها يأكل من طيباتها ، « فهو رضى الحال ، حسن البال ، لا يغتم لأهــل ولا مال ، ولا دار ، ولا عقار » ثم يقص على الشاب أنه دخل بعض بلدان الجبل ووقف فى مسجدها الأعظم وعليه فوطة قد ائتزر بها ، وتعمم بحبل من ليف وبيده عكاز ، فنادى فى الناس ، فاجتمعوا عليه فقال :

« يا قوم : رجل من أهل الشام ، ثم من بلد يقال لها المصيصة فى أبناء الغزاة والمرابطين فى سبيل الله من أبناء الركاضة وحرسة الاسلام غزوت مع والدى أربع عشرة غزوة ، سبعا فى البحر ، وسبعا فى البر ، وغزوت مع الأرمنى ، قولوا : رحم الله أبا الحسن ، ومع عمر بن عبيدالله قولوا : رحم الله أبا حفص ، وغزوت مع البطال بن الحسين ، والرزداق

---

(٨) المحاسن والمساوىء للبيهقى ج ٢ ص ٢١٨ ، ٢١٩ مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٠٦ .

ابن مدرك ، وحمدان بن أبى قطيفة ، وآخر ما غزوت مع يازمان الخادم ودخلت قسطنطينية ، وصليت فى مسجد مسلمة بن عبد الملك ، من سمع باسمى فقد سمع ، ومن لم يسمع فأنا أعرفه نفسى : أنا ابن الغزيل ابن الركان المصيصى المعروف المشهور ، فى جميع الثغور ، والضارب بالسيف والطاعن بالرمح ، سد من أسداد الاسلام ، نازل الملك على باب طرسوس ، فقتل الذرارى ، وسبى النساء ، وأخذ لنا ابنان ، وحملوا الى بلاد الروم ، فخرجت هاربا على وجهى ، ومعى كتب من التجار ، فقطع على ، وقد استجرت بالله ثم بكم ، فان رأيتم أن تردوا ركنا من أركان الاسلام الى وطنه وبلده ؟ .

فوالله ما أتممت الكلام حتى انهالت على الدراهم من كل جانب ، وانصرفت ومعى أكثر من مائة درهم ، فوثب اليه الشاب وقبل رأسه ، وقال ، أنت والله معلم الخير ، فجزاك الله عن اخوانك خيرا » .

ولا يتم هذا الفصل الطريف عند ذلك ، بل يعرض فى اسهاب لحيل المكدين فى استخلاص الأموال والطعام من الناس ، ويروى بعض نوادرهم . وكل من يقرأ هذا الفصل ويقرأ مقامات البديع لا يستطيع أن يجحد أثره فيه » (٩) وليس هذا هو كل ما كتبه الجاحظ عن المكدين وطرقهم فى الاحتيال ، بل انه كتب فصولا مطولة فى كتابه « البخلاء » تحدث فيها عن أشخاص كثيرين جمعوا بين صفتى البخل والكدية ، وهما صفتان طالما تتوافران فى كل مكدى .

ومن ذلك أنه عقد فصلا لخالد بن يزيد مولى المهالبة . يقول عنه

---

(٩) المقامة ص ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ د. شوقى ضيف وانظر : المحاسن والمساوىء للبيهقى ج ٢ ص ٦٢٢ .

فيه : « وكان — أبى خالد — قد بلغ فى البخل والتكدية وفى كثرة المال المبالغ التى لم يبلغها أحد » (١٠) .

ويحكى الجاحظ بعضا من نوادر خالد فى البخل والكدية فيقول : « وكان ينزل فى شق بنى تميم فلم يعرفوه ، فوقف عليه ذات يوم سائل ، وهو فى مجلس من مجالسهم فأدخل يده فى الكيس ليخرج فلسا — وفلوس البصرة كبار — فغلط بدرهم بغلى ، فلم يفطن حتى وضعه فى يد السائل ، فلما فطن استرده ، وأعطاه الفلس . فقيل له : هذا لا نظنه يحل ، وهو بعد قبيح . قال : قبيح عند من ؟ انى لم أجمع هذا المال بعقولكم ، فأفرقه بعقولكم ، ليس هذا من مساكين الدراهم ، هذا من مساكين الفلوس ، والله ما أعرفه الا بالفراسة . قالوا وانك لتعرف المكدين ؟ قال وكيف لا أعرفهم ؟ وأنا كنت « كاجار » فى حداثة سنى .. ولم يبق فى الأرض كعبى ولا مكد الا وقد أخذت العرافة عليه » (١١) .

والمعروف أن الفلس هو ١/١٠ واحد على عشرة من القرش عند من يتعاملون بالدينار والدرهم ، وهو يساوى المليم فى العملة المصرية ، والدرهم هو عشرة قروش فى عملة الدينار والدرهم ، وبلغ من بخل خالد بن يزيد أنه سحب من السائل الدرهم وأعطاه الفلس ، وقال : انه ليس من مساكين الدراهم ، بل من مساكين الفلوس . ولا شك أنه أعرف الناس بالمتسولين لأنه منهم ، وعادة المتسول لا ينفق على مثله ، ولكنه يستجدى ويتسول فقط ، ثم يبخل حتى على نفسه بما أنفق عليه .

---

(١٠) البخلاء ج ١ ص ٨٥ وما بعدها .

(١١) نفس المصدر والصفحة .

وكثيرا ما يوصى المتسولون أبناءهم بالحرص وعـدم الانفاق من المال المجموع بالحيلة والاستجداء ، استمرارا لحالة البخل التى طبـع عليها المتسولون • ومن ذلك وصية خالد بن يزيد لابنـه التى نقلهـا الجاحظ عنـه •

يقول الجاحظ : وهو الذى قال لابنه عند موته : « انى قد تركت لك ما تأكله ان حفظته ، وما لا تأكله ان ضيعته ، ولما ورثتك من العرف الصالح ، وأشهدتك من صواب التدبير ، وعودتك من عيش المقتصدين خير لك من هذا المال ، ولو دفعت اليك آلة لحفظ المال عليك بكل حيلة ، ثم لم يكن لك معين من نفسك لما انتفعت بشىء من ذلك ، بل يعود ذلك النهى كله اغراء لك ، وذلك المنع تهجينا لطاعتك » •

ويتحدث خالد لابنه عن الطرق التى جمع بها المال وحفظه له فقال : « انى قد لابست السلاطين والمساكين ، وخدمت الخلفـاء والمكدين ، وخالطت النساك والفتاك ، وعمرت السجون كما عمرت مجالس الذكر ، وحلبت الدهر أشطره ، وصادفت دهرا كثير الأعاجيب ، فلولا أنى دخلت من كل باب ، وجريت مع كل ريح ، وعـرفت السراء والضراء ، حتى مثلت لى التجارب عواقب الأمور ، وقربتنى من غوامض التدبير ، لمـا أمكننى جمع ما أخلفه لك ، ولاحفظ ما حبسته عليك ، ولم أحمد نفسى على جمعه ، كما حمدتها على حفظه ، لأن بعض هذا المال لم أنله بالحزم والكيس ، قد حفظته عليك من فتنة البناء ، ومن فتنة النساء ، ومن فتنة الثناء ، ومن فتنة الرياء ، ومن أيدى الوكلاء ، فانهم الداء العياء •• » ويقول له : « يابن الخبيثة انك وان كنت فوق أبناء هذا الزمان ، فان الكفاية قد مسختك ، ومعرفتك بكثرة ما أخلف قد أفسدتك ، وزاد فى ذلك أن كنت بكرى وعجزة أمك » •

ويتحدث له عن صفات المكدى فيقول : « أنا لو ذهب مالى لجلست قاصا ، أو طفت فى الآفاق — كما كنت — مكديا ، اللحية وافرة بيضاء ،

والحلق جهير طل ، والسمت حسن ، والقبول على واقــع • ان ســألت عينى الدمع أجابت ، وصرت محتالا بالنهار واستعملت صناعة الليل ، أو خرجت قاطع طريق ، أو صرت للقوم عينا ولهم مجهــرا •• » الى آخر ما يتحدث به عن طرق المكدين وصــفاتهم التى يتحلون بهــا عند الحيلة وجمع المال •

ثم يوصى ابنه بألا يثق فى أحد من الناس ، ولا حتى فى نفســه فيقول له : « وليس شىء أخوف عليك عندى من حسن الظن بالناس ، فاتهم شمالك على يمينك ، وسمعك على بصرك ، وخف عبــاد الله على حسب ما ترجو الله » •

وظل يوصى ابنه بالبخل وحفظ المال وعدم التفريط فيه حتى مات• ويبدو أن ابنه لم يعجب بصــنيع أبيه ولا بوصاياه فلم يهتم به بعــد موتــه •

يقول الجاحظ : « ومات من ساعته ، وكفنه ابنه ببعض خلقانه ، وغســله بماء البئــر ، ودفنــه من غــير أن يضرح له ، أو يلحد له ، ورجع » (١٢) •

هذا نموذج واحد من النماذج الكثيرة التى كتبها الجاحظ أو نقلها فى كتبه وبخاصة كتاب « البخلاء » عن المكدين وطرقهم فى الاســتجداء وصفاتهم •

ولا شك فى أن البديع الهمذانى قد انتفع بها فى مقاماته ، اذ ان صفات المكدين وحيلهم المبثوثة فى هذه النماذج نجد معظمها ــ ان لم يكن كلها ــ مرددا فى مقامات البديع الهمذانى •

(١٢) البخلاء للجاحظ ص ٤٦ ــ ٥١ •

كما أن صفات البطل أبى الفتح الاسكندرى مرددة هى الأخرى فى هذه النماذج ، ومن ذلك قول الجاحظ عن خالد بن يزيـد : « وكان قاصا متكلما بليغا داهية » •

وهذه الصفات تنطبق تمامـا على أبى الفتـح الاسـكندرى بطل مقامات الهمذانى • كما أن وصايا خالد بن يزيد لابنه بأن يكون شحيحا حريصا تشبه الى حد كبير وصايا أبى الفتح لابنه فى مقامته «الوصية»• وبنفس اللفظة التى سب بها خالد ابنه وهى « يابن الخبيثة » سب بها أيضا أبو الفتح ابنه ، وأكثر منها ، ومن غيرها • اذ أنه بعد كل فقـرة أو مجموعة من الفقرات فى وصيته يقول له : « أفهمتها يابن الخبيثة•• أفهمتها يابن المشئومة •• أفهمتها لا أم لك » • وهكذا يردد بعـض الجمل والمعانى التى كان يرددها الشحاذون فى وصاياهم لأبناءهم خوفا منهم على بعثرة أبنائهم للأموال التى شقوا فى جمعها •

وليس هذا فقط هو كل ما تأثر به البديـع فى مقاماتـه من حيث الاهتمام بالكدية وجعلها موضوعا غالبا على مقاماته ، بل أيضـا تأثـر بابن دريد فى ذلك ، ولا سيما ما كان من حديث له عن الأعرابى السائل الذى خطب فى المسجد الحرام • يقول أبو على القـالى : « وحدثنـا أبو بكر رحمه الله قال أخبرنا أبو حاتم قال : أخبرنا أبو زيـد قال : « بينا أنا فى المسجد الحرام اذ وقف علينا أعرابى فقال : يا مسلمون : ان الحمد لله والصلاة على نبيه ، انى امرؤ من أهـل هذا الملطاط (١٣) الشرقى المواصى (١٤) أسياف (١٥) تهامة ، عكفت (١٦) على سـنون

(١٣) الملطاط : كل شفير نهر أو واد •

(١٤) المواصى : والمواصل واحد ، يقال تواصى النبت : اذا اتصل بعضه ببعض •

(١٥) الأسياف : جمع سيف بكسر السين وهو ساحل البحر •

(١٦) عكفت : أقامت •

محش (١٧) ؛ فاجتبت (١٨) الذرى ، وهشمت (١٩) العرى (٢٠) ، وجمشت (٢١) ، النجم (٢٢) ، وأعجت (٢٣) ، البهم ، وهمت (٢٤) الشحم والتحبت اللحم (٢٥) ، وأحجنت (٢٦) العظم ، وغادرت التراب مورا (٢٧) ، والماء غورا (٢٨) ، والناس أوزاعا (٢٩) ، والنبط قعاعا (٣٠) ، والضهل (٣١) جزاعا (٣٢) والمقام جعجاعا (٣٣) ، يصبحنا

---

(١٧) السنون : الجدوب .

(١٨) محش : جمع محوش وهى التى تمحش الكلأ أى تحرمه .

(١٩) اجتبت : اقتلعت من الجب وكل شىء استأصله .

(٢٠) العرى : جمع عروة ، وهى القطعة من الشجر لا يزال باقيا على الجدب .

(٢١) جمشت : احتلقت .

(٢٢) النجم : ما نجم من النبت ولم يستقل على ساق .

(٢٣) أعجت : جعلتها عجايا ، والعجى : الهزول من سوء الغذاء .

(٢٤) همت : أذابت .

(٢٥) التحبت اللحم : عرقته من العظيم .

(٢٦) أحجنت العظم : أى عوجته فصيرته كالمحجن .

(٢٧) مور : الذى يجىء ويذهب .

(٢٨) الغور : الغائر .

(٢٩) أوزاع : فرق .

(٣٠) النبط : الماء الذى يستخرج من البئر أول ما تحفر . والقعاع الماء المالح المر .

(٣١) الضهل : القليل من الماء .

(٣٢) الجزاع : أشد المياه مرارة .

(٣٣) الجعجاع : الذى لا يطمئن من قعد عليه .

الهـاوى (٣٤) ويطرقنـا العـاوى (٣٥) ، فخرجت لا أتلفع (٣٦) بوصيدة ، ولا أتقوت هبيدة (٣٧) ، فالبخصات وقعة (٣٨) ، والركبات زلعة (٣٩) ، والأطراف قفعـة (٤٠) ، والجسم مسلهم (٤١) ، والنظـر مدرهم (٤٢) ، أعشو فأغطش (٤٣) ، وأضحى فأخفش (٤٤) ، أسهل ظالعا (٤٥) وأحزن راكعا (٤٦) ، فهل من آمر بمير (٤٧) ، أوداع بخير ، وقاكم الله سطوة القادر ، وملكة الكاهر (٤٨) وسوء الموارد ، وفضوح المصادر (٤٩) •

---

(٣٤) الهاوى : الجراد •

(٣٥) العاوى : الذئب •

(٣٦) التلفع : الاشتمال • والوصيدة : كل منسوج •

(٣٧) الهبيدة : حب الحنظل •

(٣٨) البخصات : واحدها بخصة وهى لحم باطن القدم ـ الوقعة : من قولهم : وقع الرجل اذا اشتكى لحم بطن قدمه •

(٣٩) زلعة : متشققة •

(٤٠) قفعة : مقفعة وهى التى تقبضت ويبست •

(٤١) المسلهم : مدبر ، أى الضامر المتغير •

(٤٢) المدرهم : الضعيف البصر من جوع أو مرض •

(٤٣) أعشو : انظر ، فأغطش : أى اصير غطشا ، والغطش : ضعف فى البصر •

(٤٤) أخفش : يخف بصرى من فساد فى الجفون •

(٤٥) أسهل ظالعا : اذا مشيت فى السهل ظلعت أى غمزت •

(٤٦) أحزن راكعا : أى اذا علوت الحزن ركعت ، كبوت على وجهى

(٤٧) المير : العطية •

(٤٨) الكاهر : الزاجر الذى يزجر المحتاج وينهره •

(٤٩) المصادر : الأصول جمع مصدر بمعنى أصل • وفضوح مصدر فضح وهو : كشف المساوىء والعيوب •

قال : فأعطيته دينارا ، وكتبت كلامه واستفسرته مالم أعرفه»(٥٠)

هذه الخطبة من الأحاديث التى اهتم بها ابن دريد ونقلها عن رواة آخرين • وهى — أعنى الخطبة — مروية عن أبى حاتم السجستانى عن أبى زيد •

وفيها يتحدث الأعرابى عن حاله وحال قومه الذين يسكنون تلك الأرض الواسعة المنخفضة الموصلة الى ساحل بحر تهامة ، وقد أصاب أرضهم جدب السنين فأحرق الكلأ وأتلف الزرع وقضى على الأخضر واليابس ، فلم يترك لهم شيئا ، وترتب على ذلك ضعف البهائم حتى أصبحت مهزولة منهوكة ، وقد ذاب شحمها وهزل جسدها وظهر عليها الاعياء الشديد ، فبدت معوجة العظام ناتئة الهيكل ولم ينته الأمر عند ذلك بل ان الرياح قد ذرت التراب فوق الآبار فغار الماء وجف نبعه وتحولت المياه من عذبة سائغة الى مالحة لا تستساغ •

وأكثر من هذا أن الجراد قد انتشر فى أرضهم وأماكن سكناهم وكثرت الذئاب عليهم • الأمر الذى جعل الناس لا يستطيعون البقاء فى هذه الوديان ولا فى تلك الأراضى • فتفرق الناس وتشتت شملهم •

وهذا الأعرابى كان واحدا منهم ، لم يجد بدا من أن يذهب الى أعظم مكان دينى مقدس وهو المسجد الحرام الذى يضم وفودا من كل حدب وصوب ، وكلهم قد رق قلبه حين وقف بين يدى ربه ، فشرح لهم حاله ووصف لهم قومه وما أصابهم من الضياع والهلاك وسوء المنقلب ، وما جره ذلك عليه من الدمار فخرج من دياره لا يملك شيئا من حطام الدنيا ، فلا ثوب يرتديه ، ولا مكان يأويه ، ولا قوت يطعمه ، حتى الحنظل عز وجوده عليه وصعب وصوله اليه •

---

(٥٠) الأمالى : جـ ١ ص ١١٣ •

فما كان منه الا أن تحمل المشاق وركب الصعاب حتى وصل الى البيت الحرام ، وما أن انتهى الأعرابى من هذا الوصف الذى قصد منه ترقيق القلوب عليه وعلى قومه الا وقد استجدى الحاضرين داعيا لهم بالخير والبركة وأن يقيهم الله سطوة القاهر وسوء الموارد وكشف المساوىء والعيوب .

وقد صعب أمره على أبى زيد الراوى فأعطاه دينارا .

وهذه لا تتعدى لغة الشحاذين وطريقتهم فى الكدية والاستجداء ، يتحدثون عن أحوالهم ، مغالين فى وصف مساوئهم وما نزل بهم ، ثم فى نهاية الأمر يطلبون العطاء ، داعين للمعطى بالبركة والنماء والخير العميم .

ولما كان المتحدث أعرابيا من بوادى تهامة فليس بغريب منه ما حشده فى خطبته من ألفاظ غريبة حوشية ، لا تعرف الا بالكشف عنها فى المعاجم العربية .

ولما كان ابن دريد مولعا بحشد الغريب والحوشى من الألفاظ ، فليس بغريب عليه أن يخبر بهذا الكلام الذى نقل اليه عن أبى زيد الذى استحسن هو الآخر هذا الكلام وكتبه واستفسر عن غريبه من الأعرابى ذاته .

والمعروف أن ابن دريد كان لغويا مولعا بالغريب والعجيب من الألفاظ ، ولذلك كان يغلب على أحاديثه هذا الطابع من الغرابة والصعوبة يقول الحصرى فى ذلك متحدثا عن أحاديث ابن زيد وغلبة هذا الطابع عليها : « استنبطها من ينابيع صدره واستنتجها من معادن فكره وأبداها للأبصار والبصائر ، وأهداها للأفكار والضمائر فى معارض عجمية وألفاظ حوشية ، فجاء أكثر ما أظهر تنبو عن قبوله

الطباع ، ولا ترفع له حجبها الأسماع ؛ وتوسع فيها اذ صرف ألفاظها ومعانيها فى وجوه مختلفة وضروب متصرفة » (٥١) .

وتقول فى ذلك أيضا الدكتورة اكرام فاغور : « والظاهر أن ابن دريد فى أحاديثه كان يقصد الى اظهار مقدرته فى اللغة وطول باعه فى الالمـام بمفرداتها ، ورسوخ قدمه فى تراكيبها ومذاهب الكلام فيها ، لذلك فهو يعمد الى المفردات الصعبة والحوشـية فى هذا الحديث — تقصد حديث الأعرابى فى المسجد الحرام — كما يغرف من بحر التراكيب المجازية . ويبدو أن هذا الاسلوب .. موافق غاية أحاديث ابن دريد التعليمية ، لذلك يسترسل فى ذكر المفردات الغريبة والتعابير المختلفـة الوجوه » (٥٢) .

وليست خطبة الأعرابى السـائل فى المسـجد الحرام هى كل ما تحدث به ابن دريد عن الكدية بل له أحاديث كثيرة فى هـذا المعنى منها : حديث أعرابى آخر فى مسجد البصرة مستجديا الناس فضلهم ، وهذا الحديث هو (٥٣) : حدثنا أبو بكر رحمه الله قال : أخبرنا أبو حاتم عن أبى عبيـدة عن يونس قال : وقف أعرابى فى المسـجد فى البصرة فقال : قل النيل ونقص الكيل ، وعجفت الخيل ، والله ما أصبحنا ننفخ فى وضح (٥٤) ، ومالنا فى الديوان من وشـمة (٥٥) ، وانا لعيـال جربة (٥٦) ، فهل من معين أعانه الله ، يعين ابن سبيل ، ونضو طريق ؛

---

(٥١) زهر الآداب جـ ١ ص ٢٧٣ .
(٥٢) مقامات بديع الزمان على أحاديث ابن دريد ص ٨٤ .
(٥٣) الأمالى جـ ٢ص ١٩٤ .
(٥٤) الوضح : اللبن ، سمى وضحا لبياضه .
(٥٥) الوشمة : مثل الوشم فى الذراع ، يريد الخط .
(٥٦) الجربة : الجماعة — ويقال : الجربة : المتساوون .

وقلّ (٥٧) سنة ؟ فلا قليل من الأجر ولا غنى عن الله ، ولا عمل بعد الموت » .

ومنها حديث حكيم أهل فارس للمهلب وطلبه منه كدية صريحة ، فقال : « حدثنا أبو بكر قال حدثنا العكلى عن أبى خالد عن الهيثم قال : قدم حكيم من حكماء أهل فارس على المهلب فقال : أصلح الله الأمير ، ما أشخصتنى الحاجة ، وما قنعت بالمقام ، ولا أرضى منك بالنصف اذ قمت هذا المقام ، قال : ولم ذلك ؟ قال : لأن الناس ثلاثة : غنى وفقير ومستزيد ، فالغنى من أعطى ما يستحقه ، والفقير من منع حقه ، والمستزيد الذى يطلب الفضل بعد الغنى . وانى نظرت فى أمرك فرأيت أنك قد أديت الى حقى فتاقت نفسى الى استزادتك فان منعتنى فقد أنصفتنى ، وان زدتنى زادت نعمتك على فأعجب المهلب بكلامه وقضى حوائجه » (٥٨) .

الى غير ذلك من أحاديث ابن دريد التى أوردها فى الكدية غير معنى بها ولا مغلب اياها على أحاديثه ، بل كانت مجرد حكاية حال يريد من ورائها تعليم الناشئة اللغة ، وان لم تكن جميعها حافلة بالغريب من الألفاظ بل كان التفاوت واضحا بين حديث وآخر من حيث الغريب البعيد عن الأفهام ، والذى يحتاج منه الى تفسير وتوضيح عند ما يقتضى الأمر ذلك .

أما الهمذانى الذى تأثر بالكدية فى مقاماته مما أورده ابن دريد فى أحاديثه ومما أورده غيره من معاصريه ومن سبقوهم ، فقد عنى

(٥٧) الفل : القوم المنهزمون ، يعنى أنه انهزم من الجدب . والفل : الأرض التى لم يصبها مطر وجمعها أفلال .

(٥٨) الأمالى ج ٢ ص ١٧٩ .

بالكدية أيما عناية وتفنن فى أنواع الحيلة والدهاء فيها وجعلها طابعا عاما على أكثر مقاماته •

فها هو ذا فى مقامته (البخارية) يتحدث عن بطل مقاماته أبى الفتح الاسكندرى الذى ارتدى ثوبين باليين واصطحب معه طفلا صغيرا عريان الجسد — كما يفعل الشحاذون — الى جامع بخارى،حين احتفل الجامع بأهله وامتلأ بالمصلين وأخذ يتحدث عن حاله ومآله وأنه عزيز قوم ذل حين غدر الدهر به وقلب له ظهر المجن ، فقد طعم الكباج ، وركب الهملاج ، ولبس الديباج•• وما الى ذلك من مظاهر الترف والنعيم التى زالت عنه حين غدر به الدهر ، فعاد الهملاج قطوفا والديباج صوفا ، وساء حاله ومد اليه الفقر أظفاره ، فهو يرتضع ثدى دهر عقيم •

وقد أحوجه الحال وسوء المآل الى نداء أصحاب الخطوط الممتازة ، والأردية المطرزة ، والدور المزينة والقصور المشيدة ، ان يبادروا الى الخير ما أمكن وأن يحسنوا مع الدهر ما أحسن •

وكان الهمذانى ذكيا فى هذا الشأن فلم يجعل الحديث كله لبطله ، ولكنه جعل البطل يتحدث عن نفسه ، والطفل أيضا يتحدث عن نفسه شارحا حاله مفصحا عن فقره المدقع ومحنه العاثر فى الحياة ، حتى ترق القلوب الغليظة لحال الطفل ان لم ترق لأبيه ، وكانت النتيجة أن الناس جميعا صعب عليهم حاله ، وقاموا فأعطوا وجادوا عليه بفضلهم ، لدرجة أن الراوية عيسى بن هشام قد رق قلبه هو الآخر ولم يجد ما يتصدق عليه به سوى خاتمه ، الذى أخذه منه أبو الفتح الاسكندرى وختم به خنصره ، ثم أعجب به فى يده ونظم فيه أبياتا من الشعر ، ثم ترك المسجد ورحل فتبعه عيسى بن هشام وتحدث اليه مستفهما ومتعجبا من وضعه ، فهو صديق له يعرفه ولكنه أمام الناس لا يسلم عليه

ولا يتكلم اليه فأفهمه بأنه أمام الناس لا يريد أن يكلمه حتى لا يعرفه الناس عن طريقه ، ولكنه يريد أن يظل غامضا مغمورا بالنسبة اليهم • فاذا ما عادا الى أوطانهما وصارا فى ســترة من الناس فليكن الكلام وليكن السلام ، ولهــذا قال الراوى : « فعلمت أنه يكره مخــاطبتى فتركته وانصرفت » •

يقول بديع الزمان فى مقامته هذه :

« حدثنا عيسى بن هشام قال : احلنى جامع بخارى يوم ، وقــد انتظمت مع رفقة فى سلك الثريا(٥٩) ، وحين احتفل الجامع بأهله(٦٠)، طلع الينا ذو طمرين (٦١) قد أرسل صــوانا (٦٢) واستتلى طفــلا عريانا(٦٣) ، يضيق بالضر وسعه ، ويأخذه القر ويدعه ، لا يملك غير القشره بردة (٦٤) ، ولا يكتفى لحماية رعدة (٦٥) فوقف الرجل وقال : لا ينظر لهذا الطفــل الا من الله طفله (٦٦) ، ولا يرق لهــذا الضر

(٥٩) أى اندرجت فى جمــاعة كأنهم فى الألفة قد نظموا فى ســلك انتظمت فيه كواكب الثريا •

(٦٠) أى امتلأ بأهله •

(٦١) طمرين : ثوبين باليين •

(٦٢) الصوان للثوب وعاؤه الذى يحفظ فيه ، وقد ارسله أى جعل طرفا منه على عاتقه وأرسل بقيته تسيل على ظهره لفراغه اذ لو كان فيه شىء ما أمكن ارساله •

(٦٣) استتلى : استتبع • القر : البرد •

(٦٤) يريد بالقشرة : جلده • والبردة كساء يلتحف به ، أى لاملحفة له الا جلده •

(٦٥) الرعدة : الرعشة • أى ليس عنده ما يحتمى به من البرد الذى يرعــده •

(٦٦) طفله : أى رفق به • فصار رقيقا رفيقا •

الا من لا يأمن مثله • يا أصحاب الجدود المفروزة (٦٧) ، والأردية المطروزة (٦٨) والدور المنجدة ، والقصور المشيدة : انكم لن تأمنوا حادثا ، ولن تعدموا وارثا،فبادروا الخير ما أمكن ، وأحسنوا مع الدهر ما أحسن ، فقد والله طعمنا السكباج(٦٩) وركبنا الهملاج ، ولبسنا الديباج ، وافترشنا الحشايا بالعشايا ، فما راعنا الا هبوب الدهر بغدره (٧٠) ، وانقلاب المجن لظهره ، فعاد الهملاج قطوفا (٧١) ، وانقلب الديباج صوفا ، وهلم جرا الى ما تشاهدون من حالي وزيي ، فها نحن نرتضع من الدهر ثدي عقيم (٧٢) ونركب من الفقر ظهر بهيم(٧٣) ، فلا نرنو الا بعين اليتيم(٧٤) ، ولا نمد الا يد الغريم ، فهل من كريم يجلو غياهب هذه البؤوس (٧٥) ويفل شبا هذه النحوس (٧٦) •

---

(٦٧) الجدود المفروزة : الحظوظ الممتازة ، اى الأرزاق المتسعة •

(٦٨) الأردية المطروزة : الأكسية المعلمة بالزينة •

(٦٩) السكباج : لحم يطبخ باخل • وهو من أطعمة المترفين•الهملاج: الدابة الحسنة السير في سرعة وسهولة والديباج الحرير ، والحشايا : جمع حشية • ما يحشى بقطن أو صوف ليفرش لجلوس او نوم ، والعشايا جمع عشية ، وهى آخر النهار •

(٧٠) هبوب الدهر : ثورته عليهم بغدره • وانقلاب المجن لظهره : كناية عن غدره بهم وسوء حالهم •

(٧١) القطوف : الدابة الضيقة الخطا البطيئة السير •

(٧٢) كنى بعقم الدهر عن العدم والفاقة •

(٧٣) البهيم الأسود ، وركوب الفقر كناية عن دوامه واستمراره •

(٧٤) لا نرنو : لا ننتظر •

(٧٥) البؤوس جمع بؤس وهو شدة الحاجة ، والغياهب : الظلمات

(٧٦) النحوس : جمع نحس ، وهو ما قدر من الشقاء • وشبا جمع شباة وهى من النصل حده ، ومن العقرب ابرته •

ثم قعد مرتفعا ، وقال للطفل · أنت وشـأنك (٧٧) • فقـال : ما عسى أن أقول وهذا الكلام لو لقى الشعر لخلقه أو الصخر لفلقه ، وان قلبا لم ينضـجه ما قلت لنيء(٧٨) وقد سمعتم يا قوم ، ما لم تسمعوا قبل اليوم ، فليشغل كل منكم بالجود يده ، وليذكر غـده ، واقيـا بى ولده(٧٩) ، واذكرونى أذكركم ، وأعطونى أشـكركم قال عيسى بن هشام : فما آنسنى فى وحدتى الا خاتم ختمت به خنصره(٨٠)، فلما تناوله أنشأ يصف الخاتم على الاصبع ، وجعل يقول :

وممنطق من نفســـه	بقلادة الجوزاء حسنا(٨١)
كـمتيم لقى الحبـــ	ـيب فضمه شغفا وحزنا(٨٢)
متألف من غــير أهــ	ـله على الأيام خدنا(٨٣)
علق سـنى قـــدره	لكن من أهداه أسنى (٨٤)
أقســمت لو كــان الورى	فى المجد لفظا كنت معنى

(٧٧) يريد : تكلم عن نفسك كما تكلمت أنا عن نفسى ·

(٧٨) لنيء : أى لم ينضج ولم يتهيأ للانتفاع به ·

(٧٩) يريد : أن من يتصدق على لا يضره الله فى ولده · وهذه لغـة الشحاذين ·

(٨٠) ختمت به خنصره : أى ألبسته اياه فى خنصره ·

(٨١) ممنطق من نفسـه : مستدير بمنطقة من نفسـه ليست من خارج عنه · والجوزاء : مجموعة من الـكواكب تحسب فى البـروج الاثنى عشر ·

(٨٢) المتيم : المذلل بالحب · يشبه ضم الخـاتم لخنصره بضـم المحب لمحبوبه عند لقائه به ضمة المشتاق ·

(٨٣) الخدن : الصاحب والصديق ·

(٨٤) العلق : النفيس من كل شئ ·

قال عيسى بن هشام : فنلناه ما تاح من الغور ، فأعرض عنا حامدا لنا ، فتبعته حتى سفرت الخلوة عن وجهه (٨٥) ، فاذا هو والله شيخنا أبو الفتح الاسكندرى . واذا الطلا زغلوله . فقلت :

أبا الفتح شبت وشب الغلام   فأين السلام وأين الكلام ؟

فقـــال :

غريبا اذا جمعتنا الطريق   أليفا اذا نظمتنا الخيام(٨٦)

فعلمت أنه يكره مخاطبتى فتركته وانصرفت » (٨٧) .

والواضح من هذه المقامة أن البديع الهمذانى قد تأثر فيها تأثرا كبيرا بابن دريد فى حديثه عن الأعرابى الســائل فى المسجد الحرام . حيث عمد الأعرابى الى الحديث الذى يرقق به قلوب المصلين عليه ، وكان مجمل حديثه أنه من قوم ذلوا بعد عز ، حيث كانت لهم الأرض الواسعة والخيرات الوفيرة ، ثم حدث الجدب وتغيرت الحال وســاء المــآل ، وها هو بينهم يطلب فضلهم وجميل كرمهم . وقام كل من فى المسجد فأعطاه لدرجة أن صعب حاله على أبى زيد الراوى فأعطاه دينـــارا .

وقريب جدا من هذا الحديث وتلك المعانى ، ما صاغه البديع فى مقامته هذه . حيث شرح حاله للمصلين فى جامع بخارى ، وأنه كان

---

(٨٥) سفرت الخلوة عن وجهه : أى حتى كشف عن وجهه فى الخلاء بعيـدا عن الناس .

(٨٦) يريد : أمام الناس لا أعــرفك ولا تعرفنى ، واذا صرنا الى أوطاننا بعيدا عن الناس فهناك السلام والكلام .

(٨٧) مقامات بديع الزمان الهمذانى ص ٨٢ ـ ص ٨٥ . للشيخ محمـد عبـده .

مترفا يعيش حياة نعيم وبلهنية ، ثم انقلب الحال وساء المآل ، حين قلب له الدهر ظهر المجن ، وأصبح فقيرا مدقعا بعد أن كان صاحب غنى وثراء • ومبالغة منه فى ترقيق قلوب المصلين عليه ، اصطحب معه طفلا عريانا ، وجعله يفصح عن أمره وما صار اليه • وقام المصلون فأعطوه من أموالهم الشىء الكثير • وصعبحاله — أى البطل أبو الفتح الاسكندرى — على عيسى بن هشام لدرجة أنه فى هذا الوقت لم يكن يملك سوى خاتمه الذى أعطاه اليه فتختم به فى خنصره ، وقال فيه شعرا •

فخيوط المقامة تشبه الى حد كبير حديث ابن دريد عن الأعرابى السائل فى المسجد الحرام •

وفى المقامة (الأصفهانية) : يستعطف الناس ويستجديهم فى مسجد أصفهان بحيلة قريبة من حيلته على الناس فى مسجد (بخارى)• الا أنه فى هذه المرة كان اماما للمصلين • وأراد أن يؤثر فى الناس وأن يجذب انتباههم اليه حتى يثقوا فيه ، ويعطوه ولاءهم واحترامهم ، فتظاهر بالخشوع والخضوع لله رب العالمين ، فأطال القراءة كما أطال الركوع والسجود • ثم أعقب الصلاة بدرس فى العلم ، واستطاع بنباهته وذكائه أن يسيطر على الناس جميعا فلم يخرج منهم واحد • وما ذلك الا لينال عطاءهم جميعا دون استثناء •

وحديث أبى الفتح فى هذه المقامة يشبه أيضا حديث أبى بكر بن دريد عن الأعرابى السائل فى مسجد البصرة ، الا أن مقامة الهمذانى هذه أطول من حديث ابن دريد ، والحيلة فى المقامة أقوى وأجذب الى القلوب وأكثر تأثيرا فى النفوس •

فحديث ابن دريد مختصر ، وقد دلف فيه الأعرابى يشرح حاله ويطلب المعونة مباشرة دون مقدمات •

أما الهمذانى فعلى الرغم من تأثره بهذا الحيث فى مقامته هذه ، الا أنه كان أكثر ذكاء وحنكة من ابن دريد • حيث عمد الى ما يجذب به القلوب ويرقق به النفوس وهى الامامة واظهار الورع والتقى حتى ينال الثقة من الناس ، ثم يطلب منهم بعد ذلك ما يريد •

يقول الهمدانى فى هذه المقامة : « حدثنا عيسى بن هشـام قال : كنت بأصفهان ، أعتزم المسير الى الرى (٨٨) فحللتها حلول الفى (٨٩) أتوقع القافلة كل لمحة ، وأترقب الراحلة كل صبحة (٩٠) ، فلما حم ما توقعته ، نودى للصلاة نداء سمعته ، وتعين فرض الاجابة (٩١) ، فانسللت من بين الصحابة ، أغتنم الجمـاعة أدركهـا ، وأخشى فوت القـافلة أتركهـا ، لكنى اسـتعنت ببركات الصـلاة ، على وعثـاء الفلاة (٩٢) نصرت الى أول الصفوف • ومثلت للوقوف (٩٣) وتقدم الامام الى المحراب ، فقرأ فاتحة الكتاب بقراءة حمـزة ، مدة وهمزة ، وبى الغم المقيم المقعـد فى فوت القافلة (٩٤) والبعـد عن الراحلة ، وأتبع الفاتحة الواقعة وأنا أتصلى نار الصبر وأتصلب (٩٥) ، وأتقلى

---

(٨٨) اصفهان والرى مدينتان بايران •

(٨٩) الغى : الظل •

(٩٠) القافلة : الجماعة من الناس فى السفر •

(٩١) تحتمت عليه فريضـة اجابة المنـادى للصلاة • فاتسللت : خـرجت •

(٩٢) وعثاء الفلاة : متاعب السفر فى الصحراء •

(٩٣) مثلث للوقوف : تهيأت للوقوف •

(٩٤) الغم اذا اشتد بالمغموم أقلقه ، فهو فى قلق شديد خـوفا من فـوات القافلة •

(٩٥) أتصلى النار : أقاسى حرها • أتصلب : أتجلد وأتصبر • وتقلى على الجمر : تفعل ، من قلا اللحم اذا شواه •

على جمر الغيظ وأتقلب ، ليس الا السكوت والصبر أو الكلام والقبر(٩٦) ، لما عرفت من خشونة القوم في ذلك المقام ، أن لو قطعت الصلاة دون السلام (٩٧) ، فوقفت بقدم الضرورة ، على تلك الصورة ، الى انتهاء السورة ، وقد قنطت من القافلة(٩٨) وأيست من الرحل والراحلة ، ثم حتى قوسه للركوع(٩٩) بنواع من الخشوع ، وضرب من الخضوع ، ثم أعياه من قبل ، ثم رفع رأسه ويده ، وقال سمع الله لمن حمده ، وقام حتى ما شككت أنه قد نام ، ضرب بيمينه ، وأكب لجبينه (١٠٠) ، ثم انكب لوجهه ، ورفعت رأسي أنتهز فرصه فلم أرى بين الصفوف فرجة ، فعدت الى السجود ، حتى كبر للقعود ، وقام الى الركعة الثانية ، فقرأ الفاتحة والقارعة قراءة استوفى بها عمر الساعة ، واستنزف أرواح الجماعة(١٠١) فلما فرغ من ركعته ، وأقبل على التشهد بلحيته ، ومال الى التحية بأخدعيه(١٠٢) ، وقلت قد سهل الله المخرج ، وقرب الفرج قام رجل وقال : من كان منكم يحب

---

(٩٦) أو الكلام والقبر : أى أنه اذا تكلم قتل وحمل الى القبر ٠

(٩٧) أى قبل أن يسلم الامام فأسلم معه ٠

(٩٨) القنوط : اليأس ٠

(٨٩) شبه بدنه فى حالة الركوع بالقوسى بجامع الانحناء فى كل ٠

(١٠٠) أكب لجبينه : أى سقط الى الارض فى حالة السجود ٠

(١٠١) يريد : أنه أطال فى القراءة ، حتى ظن ابن هشام أنه بعد نهاية القراءة تكون الساعة ٠ وأنه بذلك قد استنزف ــ أى استخرج ــ أرواح الجماعة ٠ أى جماعة المصلين ٠

(١٠٢) الاخدعان : عرقان فى العنق ، يميل بهما المصلى يمينا ويسارا عند السلام ٠

الصحابة والجماعة ، فليعرني سمعه ساعة (١٠٣) قال عيسى بن هشام : فلزمت أرضى صيانة لعرضى (١٠٤) ، فقال حقيق على أن لا أقول غير الحق (١٠٥) ، ولا أشهد الا بالصدق ، قد جئتكم ببشـــارة من نبيـــكم لكنى لا أؤديها حتى يطهر الله هذا المسجد من كل نذل يجحد نبوءته ، قال عيسى بن هشام : فربطنى بالقيود ، وشدنى بالحبال السود (١٠٦) ، ثم قال : رأيته صلى الله عليه وسلم فى المنام ، كالشمس تحت الغمام ، والبدر ليل التمام ، يسير والنجوم تتبعـــه ويسحب الذيل والملائكة ترفعه ، ثم علمنى دعاء أوصانى أن أعلم ذلك أمته ، فكتبته على هذه الأوراق بخلوق ومسك وزعفران وسك (١٠٧) فمن استوهبه منى وهبته ، ومن رد على ثمن القرطاس أخذته (١٠٨) ، قال عيسى بن هشـــام : فلقد أنثالت عليه الدراهم حتى حيرته وخرج فتبعته متعجبا من حذقه بزرقه (١٠٩) وتمحل رزقه • وهممت بمسألته عن حـــاله ، فأمسكت ،

---

(١٠٣) اعارة السمع : مجاز عن الاصغاء • والجماعة هم : جماعة المسلمين من التابعين بعد الصحابة •

(١٠٤) أرضى : أى التى يجلس عليها • صيانة لعرضه من قولهم : لا يحب الصحابة والجماعة •

(١٠٥) حقيق عليّ : أى واجبٌ عليّ فى ذمتى أن لا أقولَ غير الحق •

(١٠٦) المراد بالحبال السود : حبال الحديد وهى السلاسل لميـــل لونهـــا الى الســـواد •

(١٠٧) الخلوق : نوع من الطيب • والسك : بالضم مادة ســـوداء يخلطونها بالمسك أحيانا •

(١٠٨) استوهبه : طلبه هبة • رد ثمن القرطاس : دفـــع ثمـــن الورق المكتوب فيه •

(١٠٩) الزرق بتقديم الزاى : مصدر زرق الصائد صيده رمـــاه بالمزارق وطعنه به • والتمحل : طلب الشيء بالحيلة • أنثالت عليـــه الدراهم : انصبت عليه ، حتى حيرته : أى من كثرتها •

وبمكـــالمته فســكت ، وتأملت فصـــاحته فى وقاحتـــه ، وملاحتـــه فى استماحته (١١٠) ، وربطه الناس بحيلته وأخذه المـــال بوسيلته ونظرت فاذا هو أبو الفتح الاسكندرى ، فقلت : كيف اهتـــديت الى هـــذه فتبسم وأنشأ يقول :

النـــاس حمـــر فجـــوز   وابرز عليهم وبرز(١١١)
حـــتى اذا نلت منهـــم   ما تشتهيه ففروز (١١٢)

منتهى التحايل ، بل الســـخرية والاستهزاء بالناس ، واستغلال ثقتهم فيه حين رمى عليهم شباكه وفرض عليهم القيود الثقيلة . فحتى لا يخرج الناس من المسجد قال لهم : « من كان منكم يحب الصـــحابة والجماعة ، فاليعرنى سمعه ساعة » فلم يرد أحد أن يخرج من المسجد حتى لا يظهر بين الناس بأنه يكره الصحابة والجمـــاعة . ولذلك قال ابن هشام : « فلزمت أرضى صيانة لعرضى » . ثم زاد على ذلك فربط الناس بالمسجد وأوثقهم بحباله حين قال لهم : « حقيق على أن لا أقول غير الحق ، ولا أشهد الا بالصدق ، قد جئتكم ببشارة من نبيكم لكنى لا أوديها حتى يطهر الله هذا المســـجد من كل نذل يجحـــد نبوءته » . ولذلك قال عيسى بن هشام : « فربطنى بالقيود ، وشـــدنى بالحبـــال السود » . وبعد أن قيد الناس بوثيق القيود ومتين الحبال . لم يشأ أحد من المصلين أن يخرج من المسجد مهما كانت ظروفه حتى لايكون

---

(١١٠) الاستماحة : الاستعطاء .

(١١١) شبه الناس بالحمر جمع حمار . فجوز : أمر من جـــواز الابل ونحوها اذا قادها بعيرا بعيرا حتى تجوز وتمضى . فالناس حمر فقدهم الى ما تريد ولا تبال بهم . وبرز : أى تفوق عليهم .

(١١٢) فروز : من فروز الرجل مات . أى لا تخف الموت بعد ان تنال شهوتك من الناس .

فذلا يجحد نبوءة النبى صلى الله عليه وسلم • وهذه حيلة لم يفطن اليها الشحاذون،ولا حتى من تحدثت عنهم ابن دريد عن الأعراب السائلين فى المساجد •

وبعــد أن فرض عليهم الحصـــار الشديد أعلمهم بالبشـــارة التى جـــاءهم بها النبى صلى الله عليه وسلم وهى رؤيتـــه له فى المنـــام وتعليمه دعـــاء أوصاه أن يعلمـــه أمته • فكتب الدعاء بالخلوق والمسك والزعفران وانواع الطيب • ثم قال لهم : من طلبه على سبيل الموهبة وهبته اياه ، ومن أعطاه ثمن القرطاس — أى الورق — والخلوق الذى كتب الدعاء به أخذه دون زيادة عليه ، وهذا من متممات الحيـــلة كما يقول الشيخ محمد عبده : « يظهر به أنه يبلغ رسالته عن رســول الله لا يبتغى على تبليغها أجرا فتتأكد ثقة القـــوم بصـــدقه فيعتقدون به اختصاصـــا الهيـــا فيفيضـــون عليـــه من المنـــح والعطـــايا بقـــدر ما يستطيعون » (١١٣) •

وهذا ما حدث بالفعل ، فقد انهالت عليه الدراهم وانثالت ، فهذا يعطيه من أمامه ، وهذا من يمينه ، وهذا من شماله •• حتى تحير كيف يأخذ أعطيات الناس لكثرتها • وتعجب منه ابن هشام فسأله : « كيف اهتديت الى هذه الحيلة ؟ » فتبسم وأفهمه بأن الناس حمر ، وما عليه الا أن يقودهم الى ما يريد حتى يتفوق عليهم •فاذا ما نال شهوته منهم فقد استوفى حظه من الدنيا فلو مات بعد ذلك فلا ضير •

فبالرغم من أن البديع الهمذانى قد تأثر بمن مارسوا الـــكدية أو كتبوا عنها وعن حيلهم فى عصره أو فى الأعصر السابقة عليه ، الا أنـــه

---

(١١٣) مقامات بديع الزمان الهمذانى • هامش ص ٥٤ (المقامة الاصفهانية) •

تفوق على الجميع فى حيله التى رسمها وطريقة تأثيره — على لسان بطله — على الناس .

وليست هذه هى كل حيله وطاقة فنه بل ان باعه واسع وخياله أوسع فى هذا المضمار ، ففى المقامة « القردية » يتحدث بديع الزمان على لسان راوى مقاماته « عيسى بن هشام » عن رؤيته لأبى الفتح الاسكندرى حال كونه يرقص قردا له فى مدينة السلام — أى بغداد — والناس يزدحمون عليه ويضحكون من أفعال قرده ورقصه ، حتى اذا ما انتهت حركاته وتوقف القرد عن حركاته البهلوانية ، أخذ أبو الفتح يجمع النقود من الناس ، كما يفعل المحتالون .

يقول بديع الزمان فى مقامته هذه : « حدثنا عيسى بن هشام قال: بينا أنا بمدينة السلام(١١٤)قافلا من البلد الحرام،أميس ميس الرجلة الرجلة (١١٥) على شاطىء الدجلة ، أتأمل تلك الطرائف وأتقصى تلك الزخارف ، اذ انتهيت الى حلقة رجال مزدحمين يلوى الطرب أعناقهم ، ويشق الضحك أشداقهم ، فساقنى الحرص الى ما ساقهم ، حتى وقفت بمسمع صوت رجل دون مرأى وجهه لشدة الهجمة ، وفرط الزحمة ، فاذا هو قراد يرقص قرده ، ويضحك من عنده ، فرقصت رقص المحرج(١١٦) ، وسرت سير الأعرج ، فوق رقاب الناس يلفظنى عاتق هذا لسرة ذاك (١١٧) ، حتى افترشت لحية رجلين ، وقعدت بعد الأين(١١٨) وقد أشرقنى الخجل بريقه ، وأرهقنى المكان بضيقه(١١٩) فلما فرغ القراد من شغله ، وانتقض المجلس عن أهله (١٢٠) ، قمت

---

(١١٤) مدينة السلام : هى بغداد عاصمة العراق .

(١١٥) اميس : اتبختر . الرجلة جمع رجل : أى أمشى كما يمشى الرجال على شاطىء نهر الدجلة .

وقد كسانى الدهش حلته ، ووقفت لأرى صورته ، فاذا هو والله أبو الفتح الاسكندرى • فقلت ما هذه الدناءة ويحك ، فأنشأ يقول :

الذنب للأيام لالى   فاعتب على صرف الليالى (١٢١)
بالحمق أدركت المنى   ورفلت فى حلل الجمال (١٢٢)

الى غير ذلك من المقامات الكثيرة التى أنشأها بديع الزمان فى الكدية معملا فيها فكره وجهده الى جانب ما عرفه من حيل المكدين وطرقهم سواء أكانوا من معاصريه أو ممن سبقوه ، الا أنه فاقهم فى حيله التى ألبسها ثوب القصة فجاءت طريفة جذابة •

على أن مقامات الهمذانى ليست جميعها فى الكدية ، بل منها ثلاث عشرة مقامة لم يتطرق فيها البديع لهذا الفن وهى : المضيرية والوعظية والغيلانية والمارستانية والأهوازية والرصافية والعراقية والحلوانية والمغزلية والعلمية والبشرية والخمرية والشعرية •

الفصل الرابع

المقامة والقصة

هل المقامة قصة ؟

يرى الدكتور شوقى ضيف أن المقامة من مقامات الهمذانى ليست قصة ، لخلوها من عناصر القصة ، فلا عقدة ولا حبكة ، وهما أهم عنصرين من عناصر القصة ، وليست أكثر من أحاديث قصيرة ، وحيل يطرفنا بها بديع الزمان وغيره من كتاب المقامة ، أريد بها من أول الأمر تعليم الناشئة اللغة فى صورة مشوقة يخيل للباحثين من أجل ذلك أنهـا قصص وليست كذلك .

فبعد أن تحدث عن معنى المقامة فى اللغة والاصطلاح يقول : « ليست المقامة اذن قصة ، وانما هى حديث أدبى بليغ ، وهو أدنى الى الحيلة منها الى القصة ، فليس فيها من القصة الا ظاهر فقط ، أما هى فى حقيقتها فحيلة يطرفنا بها بديع الزمان وغيره لنطلع من جهة على حادثة معينة ، ومن جهة ثانية على أساليب أنيقة ممتازة ، بل ان الحادثة التى تحدث للبطل لا أهمية لها ، اذ ليست هى الغاية ، انما الغاية التعليم والأسلوب الذى تعرض به الحادثة ، ومن هنا جاءت غلبة اللفظ على المعنى فى المقامة ، فالمعنى ليس شيئا مذكورا ، انما هو خيط ضئيل تنشر عليه الغاية التعليمية » (١) .

---

(١) المقامة ص ٩ .

ويقول أيضا : « وليس فى القصة عقدة ولا حبكة ، وأكبر الظن أن بديع الزمان لم يعن بشىء من ذلك ، فلم يكن يريد أن يؤلف قصصا ، انما كان يريد أن يسوق أحاديث لتلاميذه تعلمهم أساليب اللغة العربية، وتقفهم على ألفاظها المختارة ، فالمقامة أريد بها التعليم منذ أول الأمر، ولعله من أجل ذلك سماها بديع الزمان مقامة ، ولم يسمها قصـة ولا حكاية ، فهى ليست أكثر من حديث قصير ، وكل ما فى الأمر أن بديـع الزمان حاول أن يجعله مشوقا فأجراه فى شـكل قصصى ، وعمى على كثير من الباحثين فى عصرنا ، فظنوها ضربا من القصص ، وقارنوا بينها وبين القصة الحديثة ، ووجدوا فيها نقصـا كثيرا ، وهذا حمل لعمـل بديع الزمان على معنى لم يقصد اليه ، فكل الذى قصده أن يضع تحت أعين تلاميذه مجاميع من أساليب اللغة العربية المنمقة ، كى يقتـدروا على صناعتها ، وحتى يتيح لهم أن يتفوقوا فى كتاباتهم الأدبية ، ووضع ذلك فى صورة قصصية يكون فيها حوار محدود ، ويكون فيها ما يشوق ويجذب الناشئة للاطلاع على ما يؤلفه ويصوغه ، واختار البطل أديبـا شحاذا ليتم له التشويق » (٢) .

والدكتور / شوقى ضيف بهذا لم ير فى مقامات الهمذانى سوى عنصر التشويق الذى يضفى على مقاماته شكل القصة ، وينفى وجود العقدة والحبكة القصصية ، وبهذا لا تكون المقامة قصة ، وانما تكون حديثا فى شكل قصة ، مع أن التشويق الذى يقول به هو أحـد أركان الحبكة القصصية وعنصرها البارز ، ووجوده يدل على وجـود الحبكة التى لابد من توافرها فى القصة .

على أنه يعود فى نفس المرجع والصفحة ويسمى مقامات الهمذانى قصصا فيقول : « وهو ــ أى الهمذانى ــ عادة يصوغ هذا الحـديث

---

(٢) المرجع نفسه ص ٨ ، ٩ .

في شكل قصص قصيرة يتأنق في ألفاظها وأساليبها ، ويتخذ لقصصه جميعا راويا واحدا هو عيسى بن هشام ، كما يتخذ لها بطلا واحدا هو أبو الفتح الاسكندرى الذى يظهر فى شكل أديب شحاذ ، لا يزال يروع الناس بمواقفه بينهم وما يجرى على لسانه من فصاحة فى أثناء مخاطبتهم »(٣)ولكنه فى الوقت الذى يعترف فيه بأن مقامات الهمذانى صيغت فى شكل قصص ، اذا به يجعلها قصة واحدة ذات أشكال مختلفة، ولعله رأى ذلك بناء على أن المؤلف واحد ، وهو البديع الهمذانى ، والبطل واحد فى جميع المقامات ، وهو أبو الفتح الاسكندرى ، والراوى واحد فى جميعها أيضا وهو عيسى بن هشام . فهو يقول : « ويمكن أن نعتبر المقامات كلها قصة واحدة تعبر عن أطوار مستقلة من حياة بطلها أبى الفتح الاسكندرى ، أو عن حوادث مستقلة من أيامه » (٤) .

ولكننا لا نميل لهذا الرأى ولا نؤيده لأن التوحد فى المؤلف والبطل والراوى وكذا فى الطريقة الأسلوبية التى ناسبت ذوق العصر والمجالس الأدبية على عهد البديع وبعده بقرون ، كل ذلك لا يكفى لأعتبار المقامات الهمذانية قصة واحدة تحكى أطوارا مختلفة للبطل . لأن هذه المقامات كانت تفتقر الى وحدة الموضوع ، وبالطبع فان كل موضوع يختلف فى مضمونه وأفكاره وطريقة الحوار فيه عن غيره ، وهذا يكفى للقول بأن مقامات الهمذانى مجموعة قصص لا قصة واحدة .

ويؤيدنا فى ذلك قول للدكتور وهيب طنوس يقول فيه : « أما وحدة الموضوع فتفتقر اليها المقامات عامة ، وما يوحدها وحدة البطل الذى يظهر فى كل المقامات مدهشا القارىء بحيلة يدبرها »(٥) .

(٣) المقامة ص ٨ .
(٤) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٢٥٠ .
(٥) فى النثر العباسى ص ٣١٤ .

أضف الى ذلك أن المقامات كانت تؤلف للبلغاء وعلمــاء اللغة مع الحرص الشديد علي ايجاد عنصرى الامتاع والتسلية • فكان امتـــاع البلغاء بما فيها من صور بيانية وزخارف بديعية ، وامتاع اللغويين بما فيها من غريب الألفاظ وجفانها ومترادفاتها ، ولذلك عمل البديع جهده وفكره من أجل أن يحقق الغرضين معا ، بالاضافة الى غرضه الشائع فى مقاماته وهو الحكاية والقصة وما تتطلبه من الحوار •

ولولا العناية الشديدة باللغة والبلاغــة لا تسع الفن القصصى ولأزدهرت الرواية على يديه ، ولكن اهتمامــه بالألفــاظ والأســاليب البلاغية جعلت محاولاته تتوقف عند حد معين • يقول فى ذلك الدكتور / وهيب دانوس : « والتقدم الكبير فى هذه المقامات أنها فى معظمها تــدور حول رجل واحد هو أبو الفتح الاسـكندرى ، وبذلك تقــوم الحكايات المختلفة الأشكال على أساس واحــد ، وهذا تمهيد للكتابــة الروائيــة على صورة أوسع ، ولم يكن قد بقي على الهمذانى الا خطوة واحــدة ليأتى لنا بقصص المحتالين واللصوص من أخذ والطف نوع لم يصــل اليه أحد الى اليوم ، ولكن هذه الخطوة لم تتم ، ولم يكن ذلك لنقص أو قصور فى القدرة على كتابة القصص وربط أجــزائها فهذه القــدرة كانت موجودة ، نلاحظها فى القصص الشعبية ، ولكن الســبب هو أن المقامات كانت تؤلف للبلغاء ، وهؤلاء لا يعنون بربط أجزاء القصــة بعضها ببعض ، وانما يعنون بالألفاظ والأساليب البلاغية التى لم تترك أثرا فى وضع قصص متماسكة الأجزاء •

واضافة الى الأهداف التى حددناها من المقامات ــ تعليم الناشئة اللغة والتمــرين على الكتــابة الانشائية والوقوف على مذاهب النظم والنثر وامتاع البلغــاء وعلماء اللغة بالألفاظ الجزلة القــوية الغريبة

والأساليب البلاغية — فان بديع الزمان أحيانا كان يسعى الى تسلية القارىء » (٦) •

واذا كان الدكتور / شوقى ضيف يذهب فى بعض أقواله الى أن مقامات الهمذانى ليست من قبيل القصص الكاملة لخلوها — فى رأيه — من عناصر القصة وأركانها ، اللهم الا عنصر التشويق الذى يتوهم معه الباحثون أن المقامات من قبيل القصص ، فان الدكتور مصطفى الشكعة يروى رؤيا أخرى فى ذلك الشأن • اذ أنه ينظر الى معالم القصة وأصولها وعناصرها فيجدها قد تحققت فى بعض المقامات ، الأمر الذى يجعل منها قصصا كاملة العناصر والأركان ، دون بعضها الآخر ، ولا يحط ذلك من قدر البديع الهمذانى ، لأن القصة النثرية فى الأدب العربى كانت محاولة أولى منه ، يقول فى ذلك الدكتور الشكعة :

« ليست معالم القصة واضحة فى كل مقامات بديع الزمان ، بل هى تنعدم تماما فى كثير منها ، ويتقلص ظلها فى عدد كبير آخر ، ولكنها واضحة ناجحة كاملة الأركان فى البعض الآخر ، ولا ضير على البديع اذا أخفق أحيانا ونجح أحيانا أخرى فى سبيل خلق القصة العربية ، فقد كانت محاولة البديع فى مقاماته أول محاولة عرفت فى العربية لكتابة القصة » (٧) •

ويتحدث الدكتور الشكعة عن عناصر القصة وأصولها العامة فيقول:

« فالقصة الناجحة تعتمد أكثر ما تعتمد على العقدة والعرض وعنصر الحركة والمفاجأة والوقائع المثيرة والتفاصيل الدقيقة ، وتسجيل ألوان من الحياة الاجتماعية ، فاذا ما تحققت هذه الأصول فى المقامة أدخلتها فى عالم القصة من أوسع الأبواب » (٨) •

---

(٦) فى النثر العباسى ص ٣١٤ •
(٧) بديع الزمان الهمذانى ص ٣٩٠ •
(٨) المرجع نفسه ص ٣٩٢ •

ويرى هو أن هذه الأصول قد تحققت فى كثير من مقـامات بديع الزمان الا أنه كانت عليه بعض المآخذ التى لم تنزل من قدره وشـأن قصصه ، لأنها كانت طابع العصر وسماته الأسـلوبية فيقول : « واذا كان ثمة مأخذ على القصة فى هذه المقامات .. فهو ذلك الاغـراق فى الصناعة اللفظية من التزام للسجع والجناس وما اليهما ، ولكنها كانت طابع العصر وسمات أسلوب القرن الرابع ، فقد كان المنشئون والنقاد جميعا يرون فى ذلك ضروبا من القدرة وألوانا من البراعة ، وهى مـع ذلك لم تفسد روح القصة أو تؤثر على بنائها الفنى .. » (٩) .

ثم يقول فى نهاية حديثة : « وعلى هذه الأسس التى ذكرنا يمكن أن نعتبر كثيرا من مقامات بديع الزمان قصصا فنية ناجحة ، وبالتـالى يكون أديبنا الرائد الأول للقصة العربية »(١٠) .

وأنا أميل الى رأى الدكتور الشكعة لأنه جاء بعد دراسة وتمحيص لكل مقامات الهمذانى ، فلم يعمم القول دون روية وانما أصدره بعـد تأن وطول نظر .

وان كنت أتحفظ فى هذا الميل عند قوله عن مقامات الهمذانى بأنها: أول محاولة للقصة العربية . اذ أن الهمذانى لابد أن يكون مسـبوقا بخيوط القصة العربية النثرية وملامحها فى أطوارها الأولى ، فضلا عن القصة الشعرية المستنبطة من شعر العرب فى الجاهلية والاسلام .

ومن ذلك الأمثال العربية التى حوت فى مضمونها قصة تداولهـا الناس بين موردها ومضربها ، وكذلك القصص القـرآنى ، والأحاديث النبوية الشريفة التى كانت تتضمن قصصا يتخذها النبى صلى الله عليه

---

(٩) المرجع نفسه ص ٤٠٦ .

(١٠) نفس المرجع والصفحة .

وسلم طريقا من طرق دعوته ، وسبيلا من سبل ارشاده ، كقصة صاحب الأخدود ، وقصة الثلاثة الذين وقعوا فى الضيق فلم ينجهم الا التوسل بطيب العمل .

ثم ما كان من قصص العذريين التى تناقلها الناس فى عصرهم اما شعرا واما متحدثين عن مضمونها نثرا .

وأيضا قصص الشجاعة والبطولات العربية فى الحروب والفتوحات ، والقصص الكثيرة التى تناولت حياة العرب ومجتمعاتهم. ومنها بعض الملامح القصصية التى وردت فى بعض أحاديث ابن دريد ، مثل حديث الرجل وابنيه عمرو وربيعة (١١) . وحديث النسوة اللواتى أشرن على ابنة الملك بالتزويج ووصفهن الزوج (١٢) .

واذا كانت أغلب القصص التى صيغت قبل مقامات الهمذانى باهتة الحوار ضعيفة السبك غير مكتملة الأركان ، فانها على كل حال كانت تمهيدا طبيعيا لمقامات الهمذانى . أى أن قصص بديع الزمان لم تصل الى كمالها من فراغ .

وحينما تقارن الدكتورة اكرام فاعور بين أحاديث ابن دريد ومقامات بديع الزمان تحتمل أن يكون البديع قد تأثر ببعض أحاديث ابن دريد التى تشبه القصص فى بعض ملامحها فتقول : « فمن حيث القصة فلاشك أن أحاديث ابن دريد كانت ذات مقصد واحد وهو التلقين اللغوى بلا اعتبار آخر ، وليس فيها من الفن القصصى الا خيال ولمحات هنا وهناك وبشىء من التساهل ربما كانت أحاديث

---

(١١) الأمالى لابى على القالى ج ١ ص ١٥٢ .

(١٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٨٠ .

إحدى الملهمات الكثيرة التى ألهمت بديع الزمان فى مقاماته ، وليست هى كل شىء فى أصولها .

لا شك أن انشاء المقامة عند بديع الزمان قد تبلور نتيجة لأمور كثيرة متعددة منها هيكل الحديث عند ابن دريد مثلا ، فأخذ الهمذانى الفكرة وهذبها وأدخل عليها عناصر الحياة والحركة والحوار » (١٣) .

وحديثها هذا جد مقبول ، وكيف لا .. ؟ والهمدانى قد تأثر بابن دريد فى فكرته وهي تعليم الناشئة اللغة عن طريق الأحاديث الطريفة التى يرويها راو عن آخر على طريقة السند فى رواية الأحاديث النبوية .

كذلك تأثر به فى فكرة الكدية وله مقامات على غرار حديث الأعرابى السائل فى المسجد الحرام ، والأعرابى السائل فى مسجد البصره ، وغيرها من الأحاديث الكثيرة فى الكدية وفى غيرها من الموضوعات .

الا أنه أدخل عليها الكثير من ثقافاته وفكره حتى أخرجها فى ثوب جديد وبطريقة عرض جديدة ، حتى صار رائدا فى عصره للقصة العربية كما قال الدكتور مصطفى الشكعة .

ولكن اذا كان الدكتور الشكعة والدكتورة اكرام فاعور يعتبران مقامات الهمذانى قصصا مكتملة الأركان ، فيها العقدة والحوار والمفاجآت والشخصيات المتحركة والحبكة القصصية ، اذا بالدكتور / زكى مبارك يعتبر الجانب القصصى فى مقامات بديع الزمان ضعيفا ، ومن مظاهر الضعف فيه اكتفاؤه بشخصية واحدة جعلها بطلا لجميع مقاماته ، وخلو بعض المقامات من هذه الشخصية ، فيقول : « ومن مظاهر الضعف عند بديع الزمان ومن حاكاه وقوفه عند شخصية واحدة،

(١٣) مقامات بديع الزمان ص ١٣١ .

فأبو الفتح الاسكندرى يتنقل من قصة الى قصة ، وعيسى بن هشـام يحدثنا فى كل مرة عن دهشته من كشـف شخصيته ، مع أنه كان يكفى أن ينتبه عليه أمره مرة أو مرتين ، ولكنه فى جميع الأحوال يضل عن عرفانه ولا يتبينه الا بعد كشـف اللثام • غـير أن لعيسى ابن هشام مواقف لا يذكر فيها أبو الفتح ، كما وقع فى المقامة الأهوازية ، والمقامة البصرية والمقامة الصفرية ، والمقامة الخلفية » (١٤) •

ويمكن الرد على الدكتور مبارك بأن الوقوف عند شخصية واحدة فى مقامات البديع ليس عيبا فى زمانه ، لأن مقاماته أكثرها فى الكدية ، والكدية على طريقة الساسانيين الذين تمثلهم البديع فى مقاماته واجتذاهم، فى حاجة الى أديب ماهر بضروب الاستجداء مثقف يستطيع أن يتلون مع الموقف الذى يوضع فيه ومع الشخصية التى يتمثلها ومع الناس الذين يستجديهم ، ولم يكن غير الاسكندرى يصلح لذلك كله فى نظر البديع •

وأما دهشة عيسى بن هشـام فى كل مـرة عند كشف اللثام عن شخصية أبى الفتح ، فلأن أبا الفتح فى كل مرة له لباس جديد يتـفق مع الناس الذين يقف بينهم ليستجديهم ، وله كلام جديد وحديث آخر غير الأحاديث السابقة واللاحقة ، بالاضافة الى أن البديـع كان — فى نظرنا — حريصا على الانسجام الفنى فى حكايته التى يسميها مقامة ، فجعل عيسى بن هشام يحكى والقارىء يتابعه فى حكايته حتى يتعرفـا معا على بطل هذه الحكاية « أو القصة » ، أى أن القارىء يظل فى شوق شديد الى معرفة المروى عنه حتى يتعرف عليه ، واذا به أبو الفتـح الاسكندرى •

أضف الى هذا أيضا أن قصص الهمذانى كتبت فى القرن الرابـع الهجرى ، فلا يحق لنا أن نطبق عليها مقاييس القصة فى القرن العشرين،

(١٤) النثر الفنى فى القرن الرابع ص ٢٥٦ •

والا لكان ذلك تعسفا منا حين نحكم على قصصه هذه بالضعف لخلوها من أركان القصة الحديثة .

لكن ما يؤخذ عليه فعلا ونحن نوافق الدكتور مبارك على رأيه فيه، ان بعض المقامات لم يذكر فيها اسم البطل، ولا أى شىء ينبىء عنه ، ولم تكن سوى رواية أو خبر يحكيه عيسى بن هشام كالمقامات المشار اليها فى كلام الدكتور زكى مبارك السابق ، وبالتالى فلم تتحقق فيها أركان القصة الكاملة .

ومن هذه المقامات : المقامة الصفرية التى يقول فيها بديع الزمان : « حدثنا عيسى بن هشام قال : لما أردت القفول من الحج (١٥) دخل الى فتى فقال : عندى رجل من نجار الصفر (١٦) يدعو الى الكفر ، ويرقص على الظفر (١٧) ، وقد أدبته الغربة (١٨) ، وأدتنى الحسبة اليك (١٩) لأ مثل حاله لديك ، وقد خطب منك جارية صفراء تعجب الحاضرين ، وتسر الناظرين ؛ فان أجبت ينجب منهما ولد يعم البقاع والأسماع(٢٠) ، فاذا طويت هذا الربط ، وثنيت هذا الخيط(٢١) ،

---

(١٥) القفول من الحج : الرجوع منه .

(١٦) النجار الصفر : يريد الدنانير الاصيلة .

(١٧) الكفر : الستر ، لأن الدينار يحمل صاحبه على ستره محافظة عليه . ورقصة على الظفر يكون عند نقده .

(١٨) أدبته الغربة : يريد أن هذا الدينار فى غير أهله ، فهو غريب عند ذلك الفتى بمنزلة البعيد عن أوطانه .

(١٩) الحسبة : يقصد بها هنا : احتساب الاجر عند الله تعالى .

(٢٠) الجارية الصفراء : القطعة من الذهب . والمراد بانجاب الولد منها : أى المدح الذى يعم البقاع والاسماع .

(٢١) الربط جمع ربطة وهى الملاء غير ذات لفقين . وقيل كل ثوب لين رقيق . والخيط : خيط الزمان من اليوم الى القابل ، وثنية : جعل أحد طرفيه حيث الطرف الآخر .

يكون قد سبقك الى بلدك ، فرأيك فى نشر ما فى يدك (٢٢) ، قال عيسى ابن هشام : فعجبت من ايراده(٢٣) ، ولطفه فى سؤاله ، وأجبته فى مراده . فأنشأ يقول :

المجد يخدع باليد السفلى ويد الكريم ورأيه أعلى

فهذه المقامة لا تزيد عن هذه الحكاية التى تتضمن أسلوبا من من أساليب الاحتيال والاكداء ، طريقه الالغاز والتورية ، حيث دخل الفتى الذى يغلب أن يكون أبا الفتح الاسكندرى — وان كان ابن هشام لم يذكر اسمه فى هذه المقامة كما هى عادته فى المقامات الأخرى — على عيسى بن هشام وتحدث اليه ملغزا بأن عنده رجلا غريبا من النجار الصفر ، وهذا يفهمنا بأنه ليس من أصحاب الدنانير بل هو فقير معدم ، وأن الدينار حينما يكون فى حوزته يكون غريبا عن وطنه ، بعيدا عن أهله.وأن الفتى أراد الأجر من الله تعالى بتمثيل حال الدينار أمام ابن هشام ليخطب منه جارية صفراء أى قطعة ذهبية فاذا نالها منه ، وأضافها الى الدينار استوجب مدحه ، والا .. فهو ليس ملزما بمدحه .

ويعجب ابن هشام من طريقة الفتى فى الحيلة والالغاز من أجل القطعة الذهبية رواية أو خبرا يحكيه عيسى بن هشام كالمقامات المشار اليها فى كلام الدكتور زكى مبارك السابق .

ويجيبه فيعطيه ما يريد .

---

(٢٣) فرأتك فى نشر ما فى يدك : معناه : الزم رأيك ، فان نشرت ما فى يدك استلزمت حمدى لك وشكرى واياك ، والا : فما أنا بملزم بذلك .

(٢٣) أى قصة الخبز وحكايته له .

فالمقامة على هذا الحال لا تعدو أن تكون حكاية حكاها ابن هشام عن الفتى المحتال وعجبه من طريقته في الحيلة ، واجابة مراده مع حوار خفيف باهت لا يجعلها من قبيل القصص الكاملة الأركان والمقاييس

ولكن الى جانب ذلك فان الغالبية العظمى من مقاماته تتحقق فيها أركان القصة وعناصرها الى مدى بعيد •

ومن ذلك المقامة « الموصلية » التى هى من قبيل التمثيلية المسرحية الرائعة ، حيث توجد فيها الحركة والعقدة والمفاجأة والحوار المسرحى المكتمل •

ومضمون هذه المقامة : أن عيسى بن هشام وأبا الفتح الاسكندرى بينما هما قد رجعا من الموصل الى وطنهما ، اذا بقطاع الطريق قد سلبوهما الرحل والراحلة — أى لم يتركوا لهما شيئا — فدفعا الى دار قد مات صاحبها وهو عزيز القوم فى هذه البلدة ، فجزع الناس عليه جزعا شديدا ، فاحتال الاسكندرى على الناس وأوهمهم بأنه سيطببه وسيفيق من غلته بعد يومين ،ففرح الناس بذلك وانهالوا عليه وعلى صاحبه — ابن هشام — بهداياهم من فضة وتبر وأقط وتمر ، وحاول ابن هشام والاسكندرى الهرب بعد ما حظيا بالهدايا الكثيرة ولكنهما لم يستطيعا ، والتف الناس حولهما بعد مرور يومين لينجز الاسكندرى ما وعد به ، ولكنه أمهلهم الى الغد ، وجاء الغد ولم يستطع أن يفعل شيئا ، لأن الرجل قد مات ، والاسكندرى لا يحيى الموتى ، فأوسعه الناس ضربا وركلا ، وملكته الأكف من كل جانب ، ولما شغل الناس بتجهيز الميت هرب ابن هشام وصاحبه ، حتى أتيا قرية أهلها مغتمون ، لا ينامون من شدة الماء والسيل ، فقال لهم الاسكندرى : أنا أكفيكم هذا الماء وأرد عنكم مضرته ، فأطيعونى ولا تبرموا أمرا دونى ، وطلب منهم أن يذبحوا فى مجرى الماء بقرة صفراء ، وأن يزوجوه جارية

عذراء ، وأن يصلوا خلفه ركعتين يتحملون فيهما العناء من طول القيام والركوع والسجود ، الماء سيثنى عنهم عنانه الى الصحراء •

وصلى بهم الركعة الأولى وأطال القيام والركوع والسجود • فلما كانت السجدة الثانية أشار الى صاحبه — ابن هشام — فتركا الناس فى سجودهم وفرا هاربين ، لا يعلمان ما صنع الدهر بأصحاب الماء •

ولندع البديع الهمذانى يحدثنا عن مقامته هذه فيقول : « حدثنا عيسى بن هشام قال : « لما قفلنا من الموصل (٢٤) ، وهممنا بالمنزل ، وملكت علينا القافلة ، وأخذ منا الرحل والراحلة ، جرت بى الحشاشة(٢٥) الى بعض قراها ومعى الاسكندرى أبو الفتح ، فقلت : أين نحن من الحيلة ؟ فقال يكفى الله ، ودفعنا الى دار قد مات صاحبها، وقامت نوادبها واختلفت بقوم قد كوى الجزع قلوبهم ، وشقت الفجيعة جيوبهم،ونساء قد نشرن شعورهن،يضربن صدورهن،وجددن عقودهن(٢٦) يلطمن خدودهن ، فقال الاسكندرى ، لنا فى هذا السواد نخلة (٢٧) ، وفى هذا القطيع سخلة ، ودخل الدار ينظر الى الميت ، وقد شدت عصابته لينقل ، وسخن ماؤه ليغسل ، وهيىء تابوته ليحمل ، وخيطت أثوابه ليكفن ، وحفرت حفرته ليدفن •

فلما رآه الاسكندرى أخذ حلقه ، فجس عرقه ، فقال : يا قوم اتقوا الله ، لا تدفنوه فهو حى ، وانما عرته بهتة ، وعلته سكتة ، وأنا أسلمه مفتوح العينين بعد يومين ، فقالوا من أين لك ذلك ؟ فقال ان

---

(٢٤) قفلنا : رجعنا — الموصل : من بلاد العراق •
(٢٥) الحشاشة : بقية النفس •
(٢٦) جددن : أى قطعن عقودهن •
(٢٧) لنا فى هذا السواد نخلة : مثل يضرب لمن اصاب حظا بين خطوط •

الرجل اذا مات برد ابطه ، وهذا الرجل قد لمســته فعلمت أنه حى ، فجعلوا أيديهم فى ابطه ، فقالوا : الأمر على ما ذكر ، فافعلوا كما أمر . وقام الاسكندرى الى الميت فنزع ثيابه ، ثم شد له العمائم ، وعلق عليه تمائم ، وألعقه الزيت ، وأخلى له البيت ، وقال : دعوه ولا تردعوه ؛ وان سمعتم له أنينا فلا تجيبوه ، وخرج من عنده وقــد شــاع الخبر وانتشر بأن الميت قد نشر ، وأخذتنا المبار (٢٨) من كل دار ، وانثالت علينا الهدايا من كل جار ، حتى ورم كيسنا فضة وتبرا ، وامتلأ رحلنا أقطا وتمرا ، وجهدنا أن نتتهز فرصة فى الهرب ، فلم نجدها حتى حل الأجل المضروب ، واستنجز الوعد المكذوب ، فقال الاسكندرى : هــل سمعتم لهذا العليل ركزا (٢٩) ، أو رأيتــم منه رمــزا ؟ فقالوا : لا ، فقال : ان لم يكن صوت مذ فارقته فلم يجئ بعد وقته ، دعوه الى غد ، فانكم اذا سمعتم صوته ، أمنتم موتــه ، ثم عرفونى لأحتال فى علاجه ، واصلاح ما فسد من مزاجه ، فقالوا : لا تؤخر ذلك عن غــد قال : لا . فلما ابتسم ثغر الصبح وانتشر جناح الضوء فى أفق الجو ، جاءه الرجال أفواجا ، والنســاء زواجا ، وقالوا : نحب أن تشــفى العليل ، وتدع القال والقيل . فقال الاسكندرى : قوموا بنا اليه ، ثم حدر (٣٠) التمائم عن يده وحل العمائم عن جسده ، وقال : أنيموه على وجهه فأنيم ، ثم قال : أقيموه على رجليه فأقيم ، ثم قال : خلوا عن يديه فسقط راسيا (٣١) وطن الاسكندرى بفيه ، وقال : هو ميت كيف أحييه ؟

---

(٢٨) المبار : جمع مبرة ، وهى الصلات والهبات .

(٢٩) الركز : الصوت ، الرمز : أى الحركة التى ترمز وتشير الى أنه حى .

(٣٠) حدر التمائم : نحاها عن يده .

(٣١) راسيا : ثابتا لا حراك به ، أ، سقط لراسه .

فأخذه الجف(٣٢) ، وملكته الأكف ، وصار اذا رفعت عنه يد وقعت عليه أخرى ، ثم تشاغلوا بتجهيز الميت فانسللنا هاربين • حتى أتينا قرية على شفير واد ، السيل يطرفها(٣٣) والماء يتحيفها ، وأهلها مغتمون لا يملكهم غمض (٣٤) الليل ، من خشية السيل ، فقال الاسكندرى : ياقوم ! أأكفيكم هذا الماء ومعرته (٣٥) وأرد عن هذه القرية مضرته ، فأطيعونى ولا تبرموا أمرا دونى • فقالوا : وما أمرك ؟ فقال : اذبحوا فى مجرى هذا الماء بقرة صفراء ، وأتونى بجارية عذراء ، وصلوا خلفى ركعتين يثن الله عنكم عنان هذا الماء الى هذه الصحراء ، فان لم يثن الماء فدمى عليكم حلال • قالوا نفعل ذلك ، فذبحوا البقرة ، وزوجوه الجارية ، وقام الى الركعتين يصليهما وقال : يا قوم ! احفظوا أنفسكم ، لا يقع منكم فى القيام كبو أو فى الركوع هفو،أو فى السجود سهو ، أو فى القعود لغو — فمتى سهونا خرج أملنا عاطلا ، وذهب عملنا باطلا ، واصبروا على الركعتين فمسافتهما طويلة ، وقام للركعة الأولى فانتصب انتصاب الجزع (٣٦) ، حتى شكوا وجع الضلع ، وسجد حتى ظنوا أنه قد هجد (٣٧) ، ولم يشجعوا لرفع الرؤوس حتى كبر للجلوس ، ثم عاد الى السجدة الثانية ، وأومأ الى فأخذنا الوادى (٣٨)

---

(٣٢) الجف : العدد الكثير من الناس • أى اخذوه بالضرب •

(٣٣) السيل يطرفها : أى يحيط بها •

(٣٤) لا يملكهم غمض الليل : كناية عن شدة الهم والغم ، فهم لا ينامون •

(٣٥) معرته : مساءته •

(٣٦) الجزع : أى ساق النخلة •

(٣٧) هجد : قام • ولم يشجعوا : أي لم يجرؤوا على رفع رؤوسهم •

(٣٨) أخذنا الوادى : أى سرنا على امتداده •

وتركنا القوم ساجدين ، لا نعلم ما صنع الدهر بهم ، فأنشأ أبو الفتح يقـول :

لا يبعـد الله مثـلى وأين مثـلى أينـا
لله غفلـة قـوم غنيمتهـا بالهوينـا
اكتلت شـيرا عليهم وكلت زورا ومينا(٣٩)

فالمقامة الموصلية على هذا الحال قـد جمعت فى داخلهـا قصتين بطلهما معا أبو الفتح الاسكندرى ، وراويهما معا عيسى بن هشـام ، وتخللهما من الحـوار والحركة والمفاجآت العجيبة والحيـل والحبكة القصصية ما يشهد للبديع الهمذاني بأنه قصاص من طراز رفيع ، كما يشهد بتفوق العصر العباسى فى الفن القصصى •

وكان من الممكن أن تنتهى المقامة عند القصة الأولى ، وتكون قصة ناجحة كاملة ومقامة مستوفاة ، ولكن البديع العبقرى الواسع الثقـافة الذى يتقن طرق الحيلة وفنون الخـداع ، يأبى الا أن يطرفنا بقصـة أخرى وحكاية ثانية تحدث لبطل مقاماته وراوى قصصه ، دون فجوات، أو بعـد فى المسـافات الفنية ، فـلا يحس القارىء بالانتقال الفنى المفاجىء ، من حكاية الى حكاية • لان البطل واحـد والراوى واحد ، والمؤلف ــ وهو البديع ــ واحد ، والأسلوب واحد • كما أن الطرافـة فى القصة الثانية لا تبعد كثيرا عن الطرافة فى القصـة الأولى ، لأنهـا جميعها من حيل البطل أبى الفتح الاسكندرى ، وجميعها تدعو القارىء للضحك حتى الاستلقاء من كثرة المفاجآت والمغامرات الجنـونية التى تنتهى بالهرب فى النهاية •

(٣٩) مقامات الهمذانى ص ٨٨ •

وهو فى كل مغامرة أو حيلة لابد أن تثمر حيلته ، فهو فى القصة الأولى يعرف تمام المعرفة أن الرجل الذى دخل — وفى صحبته ابن هشام — داره قد مات ، والقوم قد جزعوا عليه أشد الجزع ، وهم فى طريقهم الى تجهيزه ودفنه ، ولكن أبا الفتح مع ذلك لا تعييه الحيلة، وقد احتال عليهم بالفعل وأفهمهم أن الرجل لم يمت ، وما هى الا مدة يومين حتى يطببه ويعود الرجل الى قومه صحيحا معافى كما كان .

وفرح القوم ، وانثالت على الاسكندرى وصاحبه الهدايا والهبات حتى ورم — أى انتفخ — كيسهما فضة وتبرا ، وامتلأ رحلهما أقطا وتمرا ، وكانت النهاية التى يعرفها الاسكندرى من دون القوم ، وهى أن الرجل كان ميتا ولا يستطيع الاسكندرى احياء الموتى . فأوسعه أهل الميت ضربا وركلا ، ولكنه انتهز فرصة انشغالهم بتجهيز الميت وهرب هو وصاحبه بما حصلاه من الذهب والفضة وأنواع الأطعمة . ولم يشأ الاسكندرى أن يكتفى بما أخذه من القوم ، ولكنه يحتال للاقتناع بالمزيد فى القصة الثانية ، اذ أنه يأكل من لحم البقرة التى حكم على أهل القرية المهمومة بذبحها فى مجرى الماء ، كما يتزوج من جارية عذراء حين رغب فى ذلك رجاء انثناء الماء عن قريتهم المنكوبة الى الصحراء ، ويصلى بهم ويطيل الركوع والسجود ، ثم يتسلل هربا فى نهاية القصة مع صاحبه ويتركهم ساجدين لا يعلم ما صنع الدهر بهم .

وكثير من مقاماته — وبخاصة التى تتوفر فيها الأصول الفنية للقصة — لا تنتهى عند ايراد قصة واحدة ، ولكن المؤلف الهمذانى يأبى الا أن ينتقل بالقارىء من مشهد يثير الضحك الى مشهد آخر دون فجوات أو هوة بين أحداث القصة الأولى والثانية ، وكأنه يراعى المزاج الشخصى والانسجام النفسى،وحتى لا يكون فى قصصه ما يدعو الى الملل والضيق .

وهذا كله قد وجد فى المقامة (الموصلية) وغيرها من المقامات المشتملة على قصتين مكتملتين ، من حيث العناصر والأركان والأصول الفنيـة •

واذا كانت المقامة الموصلية يحكى فيها بعضا من أنواع الحيل التى يقوم بها الاسكندرى ليبتز أموال الناس ويستغلهم •

فانه فى المقامة (البشرية) يحكى لناقصة من قصص الحب التى أشك أن تكون حقيقية • لأن الخيال فيها أوسع من أن يقترن بالتصديق، فهى تشبه قصص الحب المثالى عند العرب الجاهليين ، وعند العذريين فى دولة بنى أمية ، وما كان يواجههم من عقبات تحول دون زواج المحب من محبوبته،الا أن قصص المتيمين الجاهليين والعذريين الأمويين لها سند من الصحة فى كتب الأدب ، وان كان الخيال قد دخلها هى أيضا لكن لم يكن متسعا اتساع خيال البديع فى هذه القصة•

ففى هذه المقامة يروى عيسى بن هشام قصة بشر بن عوانة العبدى الصعلوك الذى أغار على ركب فيهم امرأة جميلة ، أعجبه منها حور فى عينيها وساعد أبيض كاللجين ، فسباها وتزوجها ، وقال : ما رأيت كاليوم فبادرته المرأة قائلة :

أعجب بشر حورا فى عينى
وساعد أبيض كاللجين
ودونه مسرح طرف العين
خمصانة ترفل فى حجلين
أحسن من يمشى على رجلين
لو ضم بشر فيها بينها وبينى

أدام هجـــرى وأطـــال بينى
ولـــو يقيـــس زينهـــا بزينى
لأسفر الصبح لذى عينين

قال بشر : ويحك من عنيت ؟ فقالت : بنت عمك فاطمة ، فقال : أهى من الحسن بحيث وصفت ؟ قالت : وأزيد وأكثر . فأرســل الى عمه يخطب ابنته ، فمنعه العــم أمنيته ، فأنزل بشر أضرارا جســاما وإساءات كثيرة بعمه وبالحى الذى يسكن فيه ، فاجتمع الحى الى عمه وقالوا : كف عنا مجنونك . فأمهلهم حتى يدبر له حيلة يهلكه بها ، ثم تظاهر له عمه بالموافقة على زواجه من ابنته على شريطة أن يقدم لها ألف ناقة مهرا ، وأن تكون من نوق خزاعة ، وكان غرض عمه من ذلك أن يسلك الطريق الوعر الى خزاعة ، ذلك الطريق الذى كانت العــرب قد تحامته ــ أى تباعدت عنه ــ لأن فيه أسدا يسمى دازا وحية تدعى شجاعا . وكان يضرب بهما المثل عند العــرب فى الفتك . اذ يقــول قــائلهم :

أفتك من داز ومن شجاع   ان يك داز سيد السباع

فانها سيدة الأفاعى

ولكن بشرا على الرغم من معرفته بوعورة الطريق وخوف العرب منه ، لم يجبن عن تحقيق مهر ابنة عمه ، وركب جواده وسار فى ذلك الطريق ، حتى لقى الأسد ، وحينئذ فزع فرسه وتراجع القهقرى فنزل بشر وعقره ، ثم اقتتل مع الأسد فقتله ، وكتب بدم الأسد على قميصه الى ابنــة عمه :

أفاطم لو شــهدت ببطن خبت   وقد لاقى الهزبر أخــاك بشرا
اذا لرأيت ليثــا زار ليثــا   هزبرا أغلبــا لاقى هــزبرا

الى أن يقول متحدثا الى الأسد : ألا يغتر بأنيابه ومخالبه ولحاظ عينيه التى تشبه الجمر المتقد :

ألم يبلغـــك ما فعلت ظبـــــاه
بكاظمة غـــداة لقـــيت عمــــرا
وقلبى مثـــل قلـــبك ليس يخشى
مصـــاولة فكيف يخـــاف ذعــــزا ؟
وأنت تروم للأشـــبال قــــوتا
وأطلب لابنــة الأعمــــام مهـرا
ففيم تســــوم مثـــلى أن يولى
ويجعـــل فى يديك النفس قسـرا
نصـــحتك فالتمس يا ليث غـــيرى
طعـــاما ، ان لحمى كان مـــــرا
فلمــــا ظن أن الغش نصــــحى
وخــــالفنى كأنى قلت هجــــرا
مشى ومشــــيت من أسـد ين رامـــا
مـــراما كان اذ طلبــــاه وعـــرا
هـــززت له الحســـام فخلت أنى
ســـللت به لدى الظلماء فجـــرا
وجـــــدت له بجائشـــــة أرتـــه
بأن كذبتـــــه ما منتـــــه غـــدرا
وأطلـــقت المهنــــد من يمينى
فقـــد له من الأضــــلاع عشـــرا
فخـــر مجنـــدلا بــــدم كأنى
هـــدمت به بنــــاء مشـــمخرا

وقــلت له : يعـــز عـــلى أنى
قتلت مناسبى جلـــدا وفخـــرا
ولـكن رمت، شـــيئا لم يـــرمه
ســـواك فلم أطق يا ليث صبرا
تحـــاول أن تعلمنى فـــرارا
لعمـــر أبيك قد حاولت نـــكرا
فلا تجــزع ، فقــد لاقيت حــرا
يحــاذر أن يعـــاب فمت حــرا
فان تك قــد قتلت فليس عـــارا
فقــد لاقيت ذا طـــرفين حــرا

فلما بلغت الأبيات عمه ندم على عدم تزويج بشر من ابنته،ولحق به ليرده ويزوجه ابنته قبل أن تغتاله الحية ، ولكنه وصل بشرا فوجد المعركة قائمة بينه وبين الحية،فلما رأى بشر عمه أخذته حمية الجاهلية، فجعل يديه فى فم الحية وحكم سيفه فيها وقال :

بشر الى المجــد بعيد همه	لما رآه بالعـــراء عمـــه
قــد ثكلته نفســـه وأمه	جاشت به جائشـــة تهمه
قـــام الى ابن للفلا يؤمه	فغـــاب فيـــه يده وكمـــه

وتفسه نفسى وسمى سمه

فلما قتل الحية ، عرض عليه عمه أن يزوجه ابنته ، وعاد بشر مع عمه يملأ فمه بالفخر لانتصاره على الأسد والحية معـــا ، حيث كانت العرب تخشاهما وتتحامى طريقهما فخلص العرب منهما بقتلهما •

وما كاد بشر يفرح بذلك ويتحدث مفتخرا حتى خرج اليه غـــلام أمرد جميل على فرسه مدججـــا فى سلاحه ، يقـــول له : « ثكلتك أمك يا بشر ، أن قتلت دودة وبهيمة تملأ ما ضغيك فخرا ؟

أنت فى أمان ان سلمت عمك ، فقال بشر : من أنت لا أم لك ؟ قال : اليوم الأسود ، والموت الأحمر . وكر كل منهما على الآخر ، وتمكن الغلام من بشر عشرين مرة ، ولم يتمكن بشر من الغلام مرة واحدة . ثم قال : يا بشر سلم عمك واذهب فى أمان . قال : نعم ، ولكن بشريطة أن تقول من أنت ؟ فقال أنا ابنك ، فقال : يا سبحان الله ، ما قارنت عقيلة قط(٤٠) ، فأنى لى هذه المنحة ؟؟

فقال : أنا ابن المرأة التى دلتك على ابنة عمك . فقال بشر :

تلك العصا من هذه العصية   هل تلد الحية الا الحية ؟

وحلف لا ركب حصانا (أى فرسا) ولا تزوج حصانا — أى امرأة عفيفة — ثم زوج ابنة عمه لابنه »(٤١) .

أى أنه حرم على نفسه لذة الدنيا ومتاعها وترك ذلك لابنه .

هذه هى خيوط القصة ، وهى الأخرى ليس فيها ذكر لبطل المقامات أبى الفتح الاسكندرى ، ولكنها رواية عيسى بن هشام والمبالغة فيها واضحة ، وهى مبالغة فيها غلو كبير ، فهى تشبه الأساطير القديمة .

اذ أنه لا يعقل أن يعقر بشر فرسه ويقف على الأرض وجها لوجه أمام الأسد الكاسر الذى تخشاه العرب ، ثم يقتله ويكتب بدمه قصيدة يرسلها الى ابنة عمه .

---

(٤٠) ما قارنت عقيلة : أى ما تزوجت امرأة كريمة حتى تأتى بغلام كريم كهذا .

(٤١) انظر : مقامات الهمذانى ص ٢٥٠ .

وليس من المعقول أن يضع يده فى فم الحية القوية التى تشكل عقبة فى طريق خزاعة ، ثم يقتلها ، وقد جبن عن ذلك غيره من فرسان العـــرب •

ثم لا يعقل أن الذى قتل الأسد الشجاع والحية القوية ، يضعف أمام غلام أمرد لاتقاس قوته وفروسيته بقوة بشر قاتل الأسد والحية، بحيث يتمكن من بشر عشرين مرة ، ولا يتمكن منه بشر مرة واحـــدة ، ولا يعقل أن يصل الجبن والخور ببشر وهو فارس عربى صاحب نخوة وحمية أن يسلم عمه الذى تجمعه به رابطة الدم وصلة القرابة ، ثم هو يعد نفسه ليكون صهره ، وقد قدم شجاعته وصولته وفروســيته مهرا لفاطمة ابنته • لا يعقل أن يسلم عمه بكل سهولة لخصمه الذى لم يكن ليعرفه فى أول الأمر ، حتى يسلم هو ويأمن على نفسه •

فى الواقـــع : المبـــالغات فى هذه المقـــامة كثـــيرة ، ولكن الحبكة القصصية فيها جميلة ورائعة ، وفيها شىء من الحوار والأخذ والرد ، بين بشر وزوجته التى سباها ، وبينه وبين عمه،وبين العمورجال الحى، وبين بشر والأسد ، وبينه وبين الحية،وان كان الحوار بينه وبين الأسد والحية من طرف واحد • وكذلك بينه وبين ابنه الذى عرفه بنفسه فى نهاية الأمر • على أن الختام كان رائعا •

ولاشك أن ما فى المقامة من مبالغات يحدونا لأن نحكم عليها بأنها ليست قصة حقيقية ، ولكنها من ابتداع البديع الهمذانى واختـــراعه ، وتبدو فيها براعته فى الصياغة واقامة الحـــوار والنهاية الجميلة غـــير المتوقعة ، بالاضافة الى أن الشعر والنثر كلاهما كان مطلوبا لصـــياغة القصة ، لاسيما وبطلها فارس وشاعر •

ولعل فكرتها مستوحاة من قصة عنترة العبسى فى زواجه من ابنة عمه عبلة ، وان كانت الأحداث الداخلية مختلفة والنهاية أيضا مختلفة،

لكن فى الاطار العام كل منهما شاعر وفارس ، وكل منهما طلب ابنة عمه للزواج ، وكل منهما وضعت فى طريقه العقبات ، وكل منهما طلب منه أن يقدم حمر النوق مهرا ، وكل منهما قدم شجاعته مهرا لمحبوبته ٠

وهذا كله يجعلنا نعتقد أن قصة بشر بن عوانة مستوحاة من بعض ملامح قصة عنترة ، ولكن قصة عنترة لها سند من شعره فى ديوانه ، ومن حديث المؤرخين عنه فى كتب الأدب ، يجعلها حقيقية وان كانت هى الأخرى لا تخلو من المبالغات التى لم تكن فيها مغالاة مثلما كان عليه الحال فى قصة بشر بن عوانة مع ابنة عمه ٠

على كل حال ٠ فان هذه القصة توضح لنا براعة البديع وذكاءه الحاد وحضور بديهته فى رسم شخصيات قصته وابداعه فى كتابة أحداثها من ناحية ٠ ومن ناحية أخرى توضح لنا ما وصلت اليه القصة العربية فى العصر العباسى من تقدم ملحوظ ٠

ولكن اذا كانت المقامة البشرية تشبه الأساطير القديمة التى لا تقف عند حد فى المغالاة ببطولة البطل ورسم صورته وهو يحمل سيفه ويركب فرسه ويخوض المعارك ضد أعدائه بما هو فوق التصور والتعقل ٠

فان المقامة الأسدية فى شقها الأول تشبه الى حد كبير المقامة البشرية ، ولكنها لا تشبهها فى شقها الثانى ٠ اذ أن المغالاة واضحة فى المقامة البشرية بكاملها ، ولكنها واضحة فى الشق الأول فقط من المقامة الأسدية ٠ أما فى الشق الثانى منها فليست فيها مبالغة ولا غلو ، ولكنها عادية جدا ، فهى لا تتجاوز حكاية قاطع طريق ، الا أنها مغامرة تشبه المغامرات البوليسية ٠

يقول البديع فى مقامته هذه : « حدثنا عيسى بن هشام قال : كان يبلغنى من مقامات الاسكندرى ومقالاته ما يصغى اليه النفور، وينتفض له العصفور ، ويروى لنا من شعره ما يمتزج بأجزاء النفس رقة ، ويغمض عن أوهام الكهنة دقة ، وأنا أسأل الله بقاءه ، حتى أرزق لقاءه، وأتعجب من قعود همته بحالته ، مع حسن آلته ، وقد ضرب الدهر شؤونه بأسداد دونه ؛ وهلم جرا .

الى أن اتفقت لى حاجة بحمص ، فشحذت اليها الحرص(٤٢)، فى صحبة أفراد كنجوم الليل ، أحلاس لظهور الخيل(٤٣) ، وأخذنا الطريق ننتهب مسافته ، ونستأصل شأفته(٤٤) ، ولم نزل نفرى أسنمة النجاد(٤٥) ، بتلك الجياد ، حتى صرن كالعصى ورجعن كالقسى، وتاح لنا واد(٤٦) فى سفح جبل ذى آلاء وأثل(٤٧) ، كالعذارى يسرحن الضفائر ، وينشرن الغدائر ، ومالت الهاجرة بنا اليه ، ونزلنا نغور ونغور(٤٨) ، وربطنا الأفراس بالأمراس(٤٩) ، وملنا مع النعاس ، فما راعنا الا صهيل الخيل ، ونظرت الى فرسى وقد أرهف أذنيه(٥٠)،

---

(٤٢) الحرص : المبالغة فى الطلب .

(٤٣) الاحلاس جمع حلس وهو ما يوضع على ظهر الدابة . وهو كناية عن ملازمتهم لظهور الخيل .

(٤٤) يريد السرعة .

(٤٥) نفرى : نقطع . أسنمة النجاد : يريد المرتفع من الأرض .

(٤٦) تاح لنا واد : أى ظهر لنا واد .

(٤٧) الآلاء والأثل : أنواع من الأشجار .

(٤٨) نغور : نأتى الغور ، وهو المطمئن من الارض . ونغور : ننام .

(٤٩) الامراس : الحبال .

(٥٠) أرهف أذنيه : رفعهما وحددهما .

وطمــح بعينيه ، يجذ قــوى الحبــل بمشافره ، ويخــد خد الأرض بحوافره(٥١) ، ثم اضطربت الخيل فأرسلت الأبوال ، وقطعت الحبال ، وأخذت نحو الجبال ، وطار كل واحد منا الى سلاحه ، فاذا السبع فى فروة الموت ، قد طالع من غابه منتفخا فى اهابه كاشرا عن أنيابه بطرف قــد ملىء صلفا ، وأنف قــد حشى آنفا ، وصدر لا يبــرحه القلب ولا يسكنه الرعب ، وقلنا خطب ملم ، وحادث مهم ، وتبادر اليه من سرعان الرفقة فتى :

أخضر الجلدة فى بيت العــرب   يملأ الدلو الى عقد الكرب(٥٢)

بقلب ساقه قدر ، وسيف كله أثر ، وملكته سورة الأســد(٥٣) ، فخانته أرض قدمه ، حتى ســقط لبده وفمه ، وتجاوز الأسد مصرعه الى من كان معه ، ودعا الحين أخاه(٥٤) ، بمثل ما دعاه ، فصار اليه ، وعقل الرعب يديه ، فأخذ أرضه ، وافترش الليث صدره ، ولكنى رميته بعمامتى وشغلت فمه ، حتى حقنت دمــه(٥٥) ، وقــام الفتى فوجــأ بطنه(٥٦) ، حتى هلك الفتى من خوفه ، والأسد للوجأة فى جــوفه ، ونهضنا فى أثر الخيل فتألفنا منها ما ثبت ، وتركنا ما أفلت وعدنا الى الرفيق لنجهــزه .

فلما حثونا الترب فوق رفيقنــا   جزعا ولكن أى ساعة مجزع

---

(٥١) يجذ : يقطع . ويخد : يشق .

(٥٢) أخضر الجلدة : يريد به أسمر اللون . و « يملأ الدلو الى عقد الكرب » مثل يضرب لمن اذا ساجل أحدا فى النسب والحسب سجله وغلبــه .

(٥٣) سورة الاسد : قوته .

(٥٤) الحين : المــوت .

(٥٥) حقنت دمه : نجيته من الموت .

(٥٦) وجأبطنه : بقرة بسكين ونحوه .

وعدنا الى الفـــلاة ، وهبطنا أرضــها ، وسرنا حتى اذا ضمرت المزاد(٥٧) ونفـــد الزاد ، أو كاد يدركه النفاد ، ولم نملك الذهـــاب ولا الرجوع ، وخفنا القاتلين الظمأ والجوع ، عن لنا فارس فصـــمدنا صعدة(٥٨) ، وقصـــدنا قصدة ، ولما بلغنا نزل عن حر فرسه ، ينقش الأرض بشفتيه (٥٩) ، ويلقى التراب بيديه ، وعمدنى من بين الجماعة ، فقبل ركابى ، وتحرم بجنابى ونظرت فاذا هو وجه يبرق برق العارض المتهلل ، وقوام متى ما ترق العين فيه تسـهل ، وعارض قد اخضر ، وشارب قد مطر ، وساعد مـــلآن ، وقضيب ريان ونجـــار تركى ، وزى ملكى . فقلنا : مالك لا أبا لك ؟ فقال : أنا عبد بعض الملوك هم من قتلى بهم ، فهمت على وجهى الى حيث ترانى ، وشهدت شواهد حاله ، على صدق مقاله ، ثم قال : أنا اليوم عبدك ، ومالى مالك . فقلت : بشرى لك وبك ، أداك سيرك الى فناء رحب ، وعيش رطب ؛ وهنأتنى الجماعة ، وجعل ينظر فتقتلنا ألحاظه ، وينطق فتفتننا ألفاظه .

فقال : يا ساده ، ان فى سفح الجبـــال عينا وقـــد ركبتم فـــلاه عوراء (٦٠) ، فخذوا من هنالك الماء ، فلوينا الأعنة الى حيث أشـــار ، وبلغناه وقد صهرت الهاجرة الأبدان ، وركب الجنادب العيدان (٦١) ، فقال : ألا تقيلون فى هذا الظل الرحب على هذا الماء العذب ؟

---

(٥٧) المزاد جمع مزادة : وهى وعاء الماء من الجلد .

(٥٨) صمدنا صمده : قصدناه واتجهنا نحوه .
عن لنا : ظهر لنـــا .

(٥٩) ينقش الأرض بشفتيه : أى يقبلها .

(٦٠) فلاة عوراء : صحراء مجدبة من الماء .

(٦١) الجنادب : الجراد .

فقلنا : أنت وذاك • فنــزل عن فرســه وحل منطقتــه ، ونحى قرطقته(٦٢) فما استتر عنا الا بغلالة تنم على بدنه ، فما شــككنا أنه خاصم الولدان ، ففارق الجنان ، وهرب من رضوان(٦٣) ، وعمد الى السرج فحطمها : والى الأفراس فحشها(٦٤) ، والى الأمكنة فرشها ، وقد حارت البصائر فيــه ، ووقفت الأبصار عليــه ، فقلت : يا فتى ، ما ألطفك فى الخدمة ، وأحسنك فى الجملة ؟ فالويل لمن فارقته ، وطوبى لمن رافقته ، فكيف شكر الله على النعمة بك • فقال : ما ســترونه منى أكثر ، أتعجبــكم خفتى فى الخــدمة ، وحسنى فى الجملة ، فكيف لو رأيتمونى فى الرفقة ؟ أريكم من حذقى طرفا ، لتزدادوا بى شــغفا ، فقلنا : هات ، فعمد الى قوس أحــدنا فأوتره وفوق ســهما فرماه فى السماء(٦٥) ، وأتبعه ، بآخر فشــقه فى الهواء ، وقال سأريكم نوعــا آخر ، ثم عمد الى كنانتى فأخذها ، والى فرسى فعلاه ورمى أحــدنا بسهم أثبته فى صدره ، وآخر طيره من ظهره فقلت : ويحك ما تصنع ! قال : اسكت يالكع ، والله ليشدن كل منــكم يد رفيقه ، أو لأغصــنه بريقه ، فلم ندر ما نصنع ، وأفراسنا مربوطة ، وسروجنا محطــوطة وأسلحتنا بعيدة وهو راكب ونحن رّجاله(٦٦) • والقــوس فى يده يرشق بها الظهور ، ويمشق بها البطون والصدور ، وحين رأينا الجد ،

---

(٦٢) المنطقة : الحزام العريض • والقرطقة مؤنث القرطق : وهــو قباء ذو طاق واحــد •

(٦٣) يريد أنه يشبه ولدان أهل الجنة ، وأنه هرب من رضوان خــازنها •

(٦٤) فحشها : أى القى لها الحشيش •

(٦٥) فوق سهما : وضع فوقه فى الوتر ليرمى به •

(٦٦) رجالة أى نمشى على أرجلنا ولسنا براكبين •

أخذنا القد(٦٧) ، فشد بعضنا بعضا وبقيت وحدى لا أجد من يشد يدى • فقال : أخرج باهابك عن ثيابك(٦٨) فخرجت ثم نزل عن فرسه وجعل يصفع الواحد منا بعد الآخر ، وينزع ثيابه ، وصار الى وعلى خفان جديدان • فقال : اخلعهما لا أم لك • فقلت: هذا خف لبسته رطبا فليس يمكننى نزعه • فقال على خلعه ، ثم دنا الى لينزع الخف ، ومددت يدى الى سكين كان معى فى الخف ، وهو فى شغله فأثبته فى بطنه ، وأبنته من متنه(٦٩) ، فما زاد على فم فغره(٧٠) ، وألقمه حجره وقمت الى أصحابى فحللت أيديهم ، وتوزعنا سلب القتيلين • وأدركنا الرفيق وقد جاد بنفسه(٧١) ، وصار لرمسه • وصرنا الى الطريق ووردنا حمص بعد ليال خمس • فلما انتهينا الى فرضه من سوقها(٧٢) رأينا رجلا قد قام على رأس ابن وبنية ، بجراب وعصية • وهو يقول :

رحم الله من حشا فى جرابى مكارمه
رحم الله من رنا لسعيد وفاطمة
انه خادم لكم وهى لاشك خادمة

قال عيسى بن هشام : فقلت : ان هذا الرجل هو الاسكندرى الذى سمعت به ، وسألت عنه ، فاذا هو هو فدلفت اليه • وقلت : احتكم حكمك • فقال . درهم • فقلت :

---

(٦٧) القد : هو سير من جلد غير مدبوغ يوثق به الاسرى •

(٦٨) يريد : اخلع ثيابك •

(٦٩) أى أنه ضربه بسكين فى بطنه ضربة قوية حتى خرج السكين من ظهره •

(٧٠) فغر فمه : يريد أنه صاح مرة واحدة ثم مات بعدها •

(٧١) يريد : الذى قتله الفارس •

(٧٢) الفرضة : المكان الخالى •

لك درهـــم فى مثلـــه   مادام يســـعدنى النفس
فاحسب حسابك والتمس   كيما أنيـــل الملتمس

وقلت له : درهم فى اثنين فى ثـــلاثة فى أربعة فى خمســـة ، حتى انتهيت الى العشرين ثم قلت : كم معك • قال : عشرون رغيفا•فأمرت له بها • وقلت : لا نصر مع الخذلان،ولا حيلة مع الحرمان »(٧٣) •

ومضمون هذه المقامة : أن عيسى بن هشام كان يبلغه عن طريق السماع من تفوق الاسكندرى فى الشعر والنثر ولباقته وحضور بديهته (ما يمتزج بأجزاء النفس رقة ويغمض عن أوهام الكهنة دقة) ويتمنى من الله تعالى أن يبقيه حتى يراه ابن هشام ويتعجب ابن هشـــام من (قعود همته بحالته مع حسن آلتـــه) والدهر قد أقفل جميع الأبواب دونه مع هذا التفوق الذى يصغى اليه النفور ، وينتفض له العصفور، وكان الاسكندرى آنئذ فى حمص •

وحين دعت الضرورة لأن يذهب اليهـــا ابن هشام توجه اليهـــا فى صحبة له من الأبطال المعروفين الواضحين كنجـــوم الليل ، وركبـــوا جميعا خيولهم ينتهبون مسافة الطـــريق ، ويستأصلون شأفته مسرعين حتى تعبت جيـــادهم فصـــارت كالعصى رقـــة ويبوسة ، وكالقسى فى التلـــوى والانحناء •

وحين وجدوا فى سفح الجبل أشجارا كثيفة ، مالوا اليها فى وقت الهاجرة ، ونزلوا تحتها ، وربطوا خيولهم فيها ، وأخذهم النعاس•واذا بخيولهم تصهل فراعهم هذا الصـــهيل ، فقاموا مزعورين ، ونظـــروا اليها فاذا هى حبا لها بكل قوتها وتحد الأرض بحوافرها ، حتى قطعت

---

(٧٣) مقامات بديع الزمان الهمذانى ص ٢٩ •

الجبال ، وأخذت طريقها فى الجبال ، وطـار الركب كل الى سـلاحه يحمله ، واذا بسبع قد خرج اليهم من غابه ، منتفخا فى اهابه كاشرا عن أنيابه ، يمتلأ صلفا وأنفا • فتقدم اليه فتى شـجاع منهم ، ولكن ملكته سورة ــ أى قوة ــ الأسـد فسقط عـلى الأرض ووقف فـوق صدره ، وأراد أن يهوى الى الفتى بأنيابه لينهشه بها فرمى ابن هشام عمامته عليه فعض فيها واشتغل بها دون الفتى•فقام الفتى وشق بطنه بشفرته حتى مات الأسد ، وقارب الفتى من الهلاك من شدة الخوف• وقاموا جميعا ليجهزوا رفيقهم الذى مات أولا ويدفنوه •

وهذه قصة متكاملة ، ولكن بديع الزمان يردفها بقصة أخرى هى من قبيل المغامرات البوليسية • فحواها •

أن الركب الذاهب الى حمص بعد أن قتلوا الأسد ودفنوا صاحبهم وعادوا الى طريقهم فى الصحراء متوجهين اليها ، نفد منهم الماء والزاد أو كاد ، وخافوا من القـاتلين الظمأ والجـوع • فظهر لهم فـارس شـجاع أوصافه تنم عن شهامة ورجـولة • ثم دار حوار بينه وبين ابن هشام ومن معه من الركب • يقول ابن هشام : « فقلنا مـالك ، لا أبالك • فقال : أنا عبـد بعض الملوك • هـم من قتلى بهم ، فهمت على وجهى الى حيث ترانى ، وشهدت شواهد حاله على صدق مقاله، ثم قال : أنا اليوم عبدك ، ومالى مالك • فقلت : بشرى لك وبك،أداك سيرك الى فناء رحب وعيش رطب » •

أى أنهم ارتاحوا اليه وطمأنوه على نفسه معهم • ثم أشار عليهم هذا الفارس بأن ينزلوا سفح الجبل ، ففيه عين ماء وقد نفد ماؤهم ، فلووا أعنة خيولهم الى حيث أشار ، فبلغوا الماء فى وقت الهاجرة والحر الشـديد ، ثم أشار عليهم مرة ثانيـة بأن ينزلوا عن جيادهم ليقيلوا (فى هذا الظل الرطب على هـذا الماء العـذب) • فنزل عن جـواده

ونزلوا هم أيضا ، وقام على خـدمتهم حتى بهـروا بذلك ، وقال له ابن هشـام : « يا فتى ما ألطفك فى الخـدمة وأحسنك فى الجمـلة ! فالـويل لمن فارقتـه ، وطـوبى لمن رافقتـه فكيف شـكر الله عـلى النعمـة بك ؟ » .

ولكنه كما أظهر لهم شجاعته فى خدمتهم ، أظهر لهم شجاعته فى رمى السهام — وهى من باب الخـديعة — « فقال : ما سـترونه منى أكثر ، أتعجبكم خفتى فى الخدمة ، وحسنى فى الجملة ؟

فكيف لو رأيتمونى فى الرفقة ؟ أريكم من حذقى طرفا لتـزدادوا بى شـغفا » .

وعمد الى قـوس أحدهم فوضع فيـه الوتر ، ثم صوبه نحـو السماء ، وأتبعه بآخر فشقه فى الهواء ، ثم عمد الى كنانة ابن هشام فأخذها والى فرسه فركبه ، ثم صـوب سهما من الكنانة فى صدر أحد الرفقاء ، وأتبعه بآخر بقوة حتى نفـذ من ظهره عـلى سبيل اظهـار البراعة ، ولكن ابن هشام ارتاع لذلك ، فقال له : « ويحك ما تصنع » فقال له الفارس : « اسكت يا لكع ، والله ليشدن كل منكم يد رفيقه ، أو لأغصنه بريقه » . وهنا عرف ابن هشـام ومن معه أن المسألة لم تعد هذرا أو اظهـار شجاعة وقوة ، ولكنها عين الجد الذى لا يحـده حد،فماذا يصنعون وأفراسهم مربوطة وسروجهم محطوطة وأسلحتهم بعيدة ، وهو راكب وهم مشاة رجالة ، والقـوس فى يده يرشق بهـا الظهور ، ويمشق بها البطون والصدور متى شاء ؟

أمرهم بأن يوثق بعضهم البعض الآخر فى حبل من الجلـد على شكل أسرى حرب ، ولم يبق منهم سوى ابن هشام لم يجد من يوثقه، فأمره بأن يخرج من اهابه — أى يخلع ثيابه وخفافه ليأخذها أسلابا —

ينزل عن فرسه وجعل يصفعهم الواحد بعد الآخر ، وينزع ثيابهم ، فلما وصل الى ابن هشام أمره بأن ينزع ثيابه وخفافه ، فخلع ابن هشـــام ثيابه وقال له : « هذا خف لبسته رطبا فليس يمكننى نزعــه ، فقال : على خلعه » وحين اقترب منه لينزع خفه مد ابن هشام يده الى سكين كان معه فى خفه فأثبته فى بطنه بقوة حتى خرج من ظهره ، فمـــا زاد على أن صاح بأعلى صوته من شدة الألم ، ثم انقطع الصوت ومات •

وقام ابن هشام الى أصحابه فحل أيديهم ووزعوا فيما بينهم سلب القتيلين ، وتوجهوا بعد ذلك الى حمص حتى وصلوها بعد خمس ليال، وحين انتهوا الى فرضة — أى مكان خال — من سوقها رأوا رجلا يحمل جرابا وعصية ومعه ابن وبنية ، ويسأل الناس فضلهم ومكارمهم بأبياته الواردة فى المقــامة •

وهنا كشف ابن هشام عن أمارات الرجل وعــرف أنه الاسكندرى الذى سمع به وسأل عنه فاذا هو هو • وتقدم اليه ابن هشام وأعطاه مجمــوعة من الدراهــم : درهــم فى اثنين فى ثــلاثة حتى تنتهى الى العشرين ، وأمر له بعشرين رغيفا ، وتركه وهو يقول له : لا نصر مع الخذلان ، ولا حيلة مع الحرمان •

هذا هو مضمون المقامة الأسدية وفحواها • ولاشك أن المغامرات القصصية واضحة فيها ، والكدية واضحة كذلك •

فالمقامة على هذه الحال مكتملة البناء الفنى ، والعناصر القصصية بارزة فيها : فالشخصيات موجودة وكل واحد له دوره البارز فيهـــا • وهؤلاء الأشخاص هم : ابن هشام الراوى ، والذين رافقوه فى الرحلة الى حمص • ومنهم الفتى الذى قتل فى مبارزته للأسد ، والفتى الثانى الذى بارز الأسد بعد الأول ووجأه فى بطنــه ، ومنهم الفتى الفـــارس

الذى أبدى لهم فى أول الأمر أنه عبد مملوك لبعض الملوك . وأنه هام على وجهه خوف القتل ، وقد أظهر شجاعة وشهامة ومروءة،حتى انخدع الركب فيه ، واذا به قاطع طريق قتل واحدا منهم وأوثق الحبال فى أيدى الآخرين ، وحاول أن يسلبهم ثيابهم وخفافهم وما معهم من ثروة ، ولولا أن قتله ابن هشام لقتلهم جميعا .

وحين وصلوا حمص ، وجدوا منظرا ملفتا هو صورة الاسكندرى المحتال بجرابه وعصاه ، ومعه ابن صغير وبنت صغيرة،اصطحبهما كنوع من الحيلة ليستدر عطف الناس عليه وعليهما .

والحوار فى المقامة واضح بين ابن هشام وبين من معه من رفاقه، وبينه وبين الفارس الذى تظاهر فى أول الأمر بكريم الأخلاق وجميل الصفات حتى هنأوا أنفسهم به . ولكنه بهذه الصفات وتلك المكارم مخادع لهم ، اذ أنه ما لبث أن كشف اللثام عن وجهه وكشر عن أنيابه، ولكن عاجله ابن هشام بضربة أتت عليه .

كما كان الحوار واضحا بين ابن هشام وبين الاسكندرى بطل مقامات الهمذانى الذى ظهر فى صورة متسول ، ولم يفت ابن هشام أن يتصدق عليه .

والمفاجآت فى المقامة واضحة كذلك وكثيرة . منها : صهيل الخيل وتقطيعها الحبال وشرودها فى الصحراء لرؤيتها الأسد الكاسر من بعيد ، وقد راعهم ذلك وأفزعهم . ومنها : خروج السبع لهم فى فروة الموت ، منتفخا فى اهابه كاشرا عن أنيابه وتقدمه نحوهم ، وقتله منم واحدا واشاعة الزعر بينهم .

ومنها : ظهور الفتى الفارس الذى خدعهم بمعروفه وشهامته فى

أول الأمر ثم فاجأهم بحقيقته المخادعة فى نهاية الأمر • وأنه قاطـع طريق وليس بصديق •

ومنها : رؤيتهم للاسكندرى متسولا ؛ وقد أتقن فنون الاحتيـال على الناس حين حمل جرابه وتوكأ على عصاه ، وأمسك بيدى أولاده الصـغار •

والعقدة تكمن فى هجوم الأسد عليهم بعد قتل الفتى الأول حتى فقد كل واحد منهم صـوابه والأمل فى الحيـاة ، ثم انزاح الخـوف وانجلى الأمر حين ألقى ابن هشـام عمامته على وجه الأسد ، وتمكن الفتى الثـانى من قتله •

وكذلك فى موقف الفتى الفارس منهم حين أجبرهم على أن يوثقوا بعضهم البعض الآخر بالحبال ، وأشـاع الروع فى قلوبهم ، وأخـذ يصفعهم الواحد بعد الآخـر حتى وطن كل واحـد منهم نفسـه على الهلاك • ثم انجلت الغشاوة وهدأوا من روعهم حين قتله ابن هشـام بسـكينه •

على أن الحبكة القصصية والانسجام الفنى واضح فى هذه المقامة كما هو الحال فى كل مقامات البديع القصصـية ، وذلك لأنه اسـتطاع بأسلوبه وطريقته التعبيرية أن يقدم لقصته ؛ وأن ينتقل من مشهد الى مشهد دون فجوات أو احساس بالانتقال حتى كانت الخاتمة الطريفة وهى رؤية الاسكندرى متسولا ، ولم يتوقف الأمر عند الرؤية ، بل ان ابن هشام يعطيه هو الآخر ويجزل له العطاء •

لاشك أن البناء الفنى للقصة متكامل فى هذه المقامة•وفوق ذلك كله فالوصف واضح فيها للرفقة وللأسد وللفارس المخادع وللاسكندرى

وطرقه فى الاحتيال فضلا عن أنها ترسم صورة لقطاع من المجتمع الذى عاشه وهى صورة قطاع الطريق وطرقهم فى الخداع وتسلطهم على من يملكون زمامه ويستطيعون نهبه وسلبه .

الى غير ذلك من المقامات الكثيرة التى تحقق فيها البناء القصصى على أفضل ما تكون القصة . مثل المقامة : البغدادية والمضيرية والخمرية والصيمرية .. وغيرها من المقامات التى توفرت لها أركان القصة وعناصرها ، وجودة تركيبها وبنائها .

واذا كانت القصة — ينبغى أن تكون بأسلوب سهل مفهوم لدى العامة والخاصة . فان مقامات البديع الهمذانى مع احتفائها بالسجع والجناس وبقية . ألوان البديع ، ومع حرصه فيها على الاغراب فى الألفاظ والمعانى من أجل تحقيق هدفه منها وهو تعليم الناشئة اللغة وغريبها . مع هذا كله كانت قصصه مفهومة ومستساغة فى عصره وبعد عصره ، بل كان أسلوبه هذا دليل تفوق ونبوغ وعبقرية وسعة ثقافة ومعارف .

فلا مآخذ عليه فى عصره ، لا فى أسلوبه ولا فى اغرابه ، ولا فى تحقيق البناء القصصى ، لأن القصة فى عهده كانت ماتزال فى طريقها الى الجودة ، فاذا ما تحققت الحبكة الفنية والتركيبة القصصية فى بعض مقاماته دون بعضها فليس ذلك دليل ادانة للبديع ، وانما هو دليل تفوق فيما حققه من هذا الفن .

الفصل الخامس

الخصائص الفنيـــة فى المقامات

أولا : الموضـــوعات :

على الرغم من أن الاتجاه العام فى المقامات الهمذانية لموضـــوع الكدية والاستجداء عن طريق الحيـــل والاساليب الادبيه والمحاورات البـــلاغيه • الا أن الملاحظ علـــى موضوعات الهمـــذانى فى مقـــاماته أنهـــا متنـــوعة وتطـــرق أمـــورا كثـــيرة غـــير الكـــديه • ومن ذلك المقامات الست التى مدح فيها خلف بن أحمد ، والتى يجمع فى مدحـــه فيها بين الشعر والنثر • والمقامات التى عنى فيهـــا بالوصف كالمقـــامة الحمدانيه والمقامة النهيديه والمقامة المضيريه •• وغيرها من المقـــامات التى أولى الوصف اهتمـــاما كبيرا فيها • والمقـــامات التى عالج فيهـــا موضوعات نقدية وأدبية ، شعرا ونثرا ، كالمقامة القريضيه والشعرية والعراقية والجاحظية والغيلانية والابليسية ، والمقامات التى سـلكت سبيل الوعظ والارشاد والمعتقدات الدينية والجدل الدينى • كالمقـــامة الوعظية والمقامة الأهوازية والمقامة المارستانية •

والمقامات التى عنى فيها عناية شديدة بالفكاهة كالمقامات الموصلية والحلوانية والنهيديه •• وغـــيرها من المقامات الكثـــيرة التى تعـــالج موضوعات عدة غير الكدية •

وغالبا ما تكون المقامة الواحدة من مقاماته محتوية على الكـــدية ومحتـــوية كذلك على المديـــح أو الهجـــاء أو الوصف أو الفكاهة ••• أو غيرها من الموضوعات ، وفوق ذلك يشيع فيها الجو القصصى الجذاب

ويبدو أن اختلاف الموضوعات فى المقامات الهمذانية كان مقصوداً ليعالج البديع موضوعات شتى بأسلوب قصصى مستهدف ، حتى يظل القارىء فى شوق مستمر للقراءة ، لا يكاد ينتهى من مقامة الا ليبدأ فى غيرها ، وفى نهاية المطاف يكون قد حصل جمعا غفيرا من ألفاظ اللغة ومعانيها التى أراد البديع — مجاراة لابن دريد — تعليمها للناشئة ، وأنشأ مقاماته من أجل ذلك ؛ وخصيصا لهذا الهدف .

وبهذا نستطيع الرد على الدكتور شوقى ضيف الذى يرى أن الشكل القصصى لم يكن هدف البديع فى مقاماته ، وأن اختلاف الموضوعات فى المقامات الهمذانية مرجعه الى عدم تعيين البديع نفسه ، فى مقاماته خطة مرسومة . فيقول : « وكأن الشكل القصصى ليس هدفها — أى المقامات — فهى انما تتخذه خيطا ينسج حوله هذا الوشى من الأساليب المسجوعة ، ومن هنا لم يعين البديع لنفسه فيها خطة مرسومة ، ومن ثم اختلفت الموضوعات(١) .

ومن الموضوعات التى عالجها البديع فى مقاماته :

١ — المديح :

ومن ذلك المقامة (الناجمية) التى مدح فيها بديع الزمان خلف ابن أحمد . حيث يتحدث فيها عيسى بن هشام عن أنه كان فى جمع من أصدقائه يتسامرون ويتحدثون فى أمورهم،واذا بطارق يقرع الباب عليهم ، وحين يفتح الباب يجدون شيخا لطيفا فصيحا يدخل عليهم ويتحدث اليهم ، يشكو فقره ويقدم عذره ، يبلغ به العدم مبلغه ، فلما سألوه عن اسمه أجابهم بأنه معروف بالناجم ، ولما سألوه عن حاله قال لهم : « أما الوطن فاليمن ، وأما الوطر فالمطر ، وأما السائق فالضر والعيش المر ... » .

---

(١) المقامة ص ٢٥ .

فيرثون لحـــاله ، يطلبون منه أن يعيش معهم ، وأن يظـــل بينهم وهم سيعيذونه على حاله ، فلديهم من الأمطار ما يزرع ، ومن الأنواع ما يكرع . والرجل يطيب خاطرهم ويوافقهم فى الكلام فيقـــول لهم « ما اختار عليكم صحبا . لقد وجدت فناءكم رحبا » . ثم يبين لهم أن العطاء الذى عندهم لا يرويه مثلما يرويه عطاء خلف بن أحمد أمـــير سجستان وعظيمها ، ولكن باسلوب هادىء لا ينفرهم منه فيقول لهم ، « ولكن أمطاركم ماء والماء لا يروى العطـــاش . قلنا : فأى الأمطـــار يرويك ؟ قال : مطر خلفى ، وأنشأ يقول :

سجستان أيتهـــا الراحلـــة ... وبحرا يؤم المنى ســـاحله
ستقصد أرجـــان أن زرتها ... بواحــــــدة مائة كاملـــــة
وفضل الأمير على أبن العميد ... كفضـــل قريش على باهلة

وخرج من عندهم الى الأمير الخلفى — أعنى خلف بن أحمد — ومرت الأيام واذا بالشيخ الناجم قد هجم عليهم يرفل فى نيـــل المنى وذيل الغنى ، فاستقبلوه استقبالا حارا ، معانقين له ومقبلين اياه،ثم سألوه عما وراءه ، فأجابهم .

« جمال موقرة وبغال مثقلة وحقائب مقفلة » أى أنه يتحدث عن النعم الكثيرة التى لحقت بها لأمير خلف؟ . وأنشأ يقول :

مولاى أى رزيلـــــة لم يأبهـــا
خلف ؟ وأى فضيلة لم يأتهـــا ؟
ما يســـمع العـــافين الا هاكهـــا
لفظـــا وليس يجاب الا هاتهـــا
ان المـــكارم أســـفرت عن أوجـــه
بيض وكان الخـــال فى وجنـــاتها
بأبى شـــــمائله التى تجلو العلا
ويدا ترى البركات فى حـــركاتها

من عدها حســـنات دهــر أننى
ممن يعد الدهر من حسـناتها(٢)

وأقام الناجم ــ كما يقول الراوى عيسى بن هشام ــ أياما مقتصرا من لسانه على شكر احسانه ، ولا يتصرف من كلامه الا فى مدح أيامه والتحدث بانعـــامه » •

والضمير فى هذا الكلام ــ طبعا ــ الممدوح خلف بن أحمد •

ومنه ــ أى المديح المقامة (الملوكية) التى مدح فيها بديع الزمان خلف بن أحمد أيضا ، حيث يتحدث عيسى بن هشام بأنه كان منصرفا من اليمن ، متوجها نحو الوطن،يسرى ذات ليلة بين الوحوش الضارة، لا سانح بها الا الضـــبع ، ولا رياح الأ الســـبع ، فلمـــا بدت بوادر الصباح ، ظهـــر له فى البراح ــ أى فى الأرض المتسعة المكشـــوفة ــ راكب شاكى السلاح • فخاف منـــه لأنه كان أعزلا ، الا أنه تجلـــد وتصبر ، ووقف ثابتا وقال له : « أرضك لا أم لك•فدونى شرط الحداد وخرط القتاد ، وحمية أزدية • وأنا سلم ان كنت ، فمن أنت ؟ فقال سلما أصبت ورفيقا كما أحببت » فقال له ابن هشام : « خيرا أجبت »• أى الزم أرضك ولا تقترب منى ، فبينى وبينك حواجز شديدة قـــوية من الأسلحة والأشواك والأنفـــة الأزدية ، لا تســـتطيع أن تتخطـــاها ولا أن تقترب منها • ومع هذا فأنا سلم ان كنت أنت سلما • فلمـــا عرف أنه كذلك رافقه ، وكشف كل منهما عن نفسه وقصته •

فاذا هو أبو الفتح الاسكندرى الذى سأله عن أكرم من لقيـــه من الملوك • يقول ابن هشام : « فذكرت ملوك الشـــام ومن بهـــا من الكرام ، وملوك العراق ومن بهـــا من الأشراف ، وأمراء الأطـــراف ،

(٢) مقامات بديع الزمان ص ١٩٠ •

وسقت الذكر الى ملوك مصر ، فرويت ما رأيت • وحدثته بعـوارف ملوك اليمن ، ولطائف ملوك الطائف ، وختمت مدح الجملة بذكر سيف الدولة • فأنشأ يقول :

يا سـاريا بنجـوم الليل يمدحهـا
ولو رأى الشمس لم يعـرف لها خطرا
ووأصـفا للسواقى هبك لم تزر الـ
ـبحر المحيط الم تعـرف له خبـرا ؟
من أبصـر الدر لم يعدل به حجـرا
ومن رأى خلفـا لم يذكر البشـر(٣)
زره تـزر ملـكا يعطى باربعـة
لم يحـوها أحـد وانظر اليـه ترى
آيـامه غـررا ووجهـه قمـرا
وعـزمه قـدرا وسـيبه مطـرا
مازلت أمـدح أقـواما أظنهم
صـفو الزمـان فكانوا عنده كـدرا

قال عيسى بن هشام ، فقلت:من هذا الملك الرحيم الكريم ؟ فقال: كيف يكون ما لم تبلغه الظنـون ؟ وكيف أقول ما لم تقبله العقـول ؟ ومتى كان ملك يأنف الأكارم ان بعثت بالدراهم ؟ الذهب أيسر ما يهب والألف لا يعمه الا الخلف ، وهذا جبل الكحل قد أضر به الميل ، فكيف لا يؤثر ذلك العطاء الجزيل ؟ » •

كلها استفهامات انكارية تفيد السلب بأن غيره من الـكرام ليس مثله ، فكرمه لا تبلغه الظنون ولا تحده العقول ، فغيره يهب الدراهم

(٣) خلف اسم الامير الذى يمدحه وكان واليا على سجستان •

وهو يهب الذهب ، والألف من الذهب حظه منه الاتلاف ليس غير • واذا كان الميل بجبل الكحل ، فان العطاء الجزيل لا يضر بمال الممدوح ومكارمه •

ثم يقول على سبيل الاستفهام الانكارى مرة أخرى : «وهل يجوز أن يكون ملك يرجع من البذل الى سرفه ، ومن الخلق الى شرفه ومن الدين الى كلفه ، ومن الملك الى كنفه ، ومن الأصل الى سلفه ومن النسل الى خلفه ؟

فليت شعرى من هدى مآثره ماذا الذى ببلوغ النجم ينتظر(٤)

أى لا يجوز لملك أن يصل الى ما وصل اليه الملك خلف بن أحمد ولا أن يرجع الى ما رجع اليه ، من الصفات الكريمة والخلال الحميدة، فرجوعه من البذل الى سرفه ، أى ما يعد اسرافا بالنسبة الى غيره ، ومن الأخلاق والصفات الى شرفها وأعلاها ، ومن الدين الى كلفه أى حبه حبا شديدا واحتمال تكاليفه وان شقت عليه • ومن الملك الى كنفه ، أى الى حضنه ورعايته ، ومن كان الملك حاضنا له كان مكفولا بأعظم قوة منه • كذلك يرجع الى الأصول العريقة فى أحسابهم وأنسابهم • واذا اعتد الناس بالبنين والذرية فرجوعه منها الى خلفه وهم أولاده الذين خلفوه فى مثل أوصافه ولم يخالفوه فى شىء منها• ومن كانت هذه جميعا صفاته ومآثره التى اجتمعت اليه دون غيره من الناس وهى تبلغ به النجوم فلماذا ينتظر ولم يبلغها ؟

على هذه الشاكلة كانت مدائح البديع للملك خلف بن أحمد واشادته به فى جميع المقامات التى مدحه فيها •

(٤) المقامات ص ٢٢٨ •

٢ ــ الوصف:

وهو من الأمور الشائعة فى المقامات الهمذانية الى جانب شيوع الكدية والفكاهة والجو القصصى ، الا أن ظهور هذه الأشياء فى بعض المقامات دون بعضها الآخر واضح وملموس • ومن المقامات التى كان الوصف فيها واضحا كغيرها أو أكثر المقامة (الشيرازية) •

وهى من المقامات التى لم يرد فيها ذكر لبطل المقامات أبى الفتح الاسكندرى،وانما هى قصة على لسان الراوى عيسى بن هشام،يتحدث فيها عن نفسه ونفر من أصحابه أصابهم الجوع فمالوا الى خيمة يلتمسون من أهلها القرى ، فخرج اليهم رجل قصير القامة عظيم البطن يسألهم من أنتم ؟ فأجابوه بأنهم أضياف لم يطعموا شيئا منذ ثلاث ليـــال • فتنحنح الرجل ثم أسال لعابهم وأعطاهم الأمل فى القرى ، فقال لهم : فما رأيكم يا فتيان فى نهيـــدة فرق كهام الأصـــلع ــ أى فى زبدة من قطيع الغنم أو البقر كبيرة تشبه رأس الأصلع ــ فى قصعة واسـعة مكللة بعجوة خيبر ــ أى تمرها الجيد ــ لتسيغوا أكلها وتسـتمرئوا طعمها ، وسآتى لكم مع الزبد والتمر بأقعب مملوءة من ألبان الابـــل التى غزر لبنهـــا وسمنوا ، ثم قال لهم على ســبيل التفكه والسخرية : أتشتهونها يا فتيان ؟ فقلنا ، اى والله نشتهيها ، فقهقه الشـــيخ وقال : وعمكم ــ يقصد نفسه ــ أيضا يشتهيها •

ثم دخل فى وصف شىء آخر من أنواع الأطعمة فقال لهم ما رأيكم يا فتيان لو أحضرت لكم بعضا من لباب الدقيق ــ أى الخــالص من الشوائب ــ وجئتكم بسفرة مستديرة ، لاتزال علامات الجــدة بادية عليها ، ووضعت فوقهـــا ذلك الدقيق فيقوم منــكم فتى خفيف سريع الحركة حاذق نشيط بعمله ووضع الدهان عليه وتسويته فى التنور •• الى أن يقول لهم : أفتشـــتهونها يا فتيان ؟ يقــول عيسى بن هشـــام :

فاشرأب كل منا الى وصفه ، وتحلب ريقه وتلمظ وتمطق — أى ضرب لسانه فى أعلى فمه وأسفله — فانا أى والله نشتهيها ، فقهقه الشيخ وقال : وعمكم — يعنى نفسه — والله لا يبغضها •

ثم أسال لعابهم مرة ثالثة حين قال لهم : ما رأيكم يا فتيان فى مرة من معز نجد البرية التى طعمت ثمر الأراك وشجر الشيح ونبات القيصوم — أى النبات الطيب الرائحة — والهشيم المتكسر من النبات اليابس •• وأخذ يصف لهم سمنتها وزيادة وزنها ولحمها وشحمها ، وكيف لو ذبحت وطبخت ووضعت على الخوان — أى المائدة — فيتسايل منها الدهن والمرق • ثم قال لهم : أفتشتهونها يا فتيان لا قلنا : أى والله نشتهيها ، قال ، وعمكم والله يرقص لها •

يقول ابن هشام فى ختام هذه المقـامة : « فوثب بعضنا اليـه بالسيف ، وقال : ما يكفى ما بنا من الدقع — أى الجـوع الشديد — حتى تسخر بنا ! فأتتنا ابنته بطبق عليـه جلفة وحثالة ولوية — أى قدمت لنا ما حرمنا منه أبوها ، وهيأت لنا ما يسد حـاجتنا من ردىء الخبز والتمر • فكانت خيرا من أبيها ، اذ أكرمتنا وأساء هولذا، فكنا لها شاكرين وله ذامين(٥) •

وهذه المقامة ، كما قلت ليس فيها ذكر لأبى الفتـح الاسكندرى بطل المقامات ، ولكنها حديث رواه عيسى بن هشـام عن قصـته مع أصحابه وقد أصابهم الجوع فنزلوا خيمة على رجل قصير عظيم البطن — وهذا كناية عن اللـؤم الشديد — وأخذ الرجـل يؤملهم فى سـد حاجتهم من الطعام والشراب ويصف لهم أنواعا من الطعام ثم لايقدمها

---

(٥) المقامات ص ١٧٦ •

لهم ، وذلك على سبيل السخرية منهم والتهكم بهم ، الى أن فطنوا فى نهاية الأمر لذلك ، ووثب اليه بعضهم بالسيف لولا أن أدركتهم ابنته بما عندها من طعام جادت عليهم به مع رداءته ؛ فسد الطعام جوعتهم وأشبع غلتهم ، وشكروا لها صنيعها وذموا له صنيعه •

والوصف فى هذه المقامة واضح وفيه رحابة لكل نوع من أنواع الأطعمة التى حدثهم المضاف عنها ، فضلا عما فيها من الفكاهة التى جاءت من السخرية ، فهو فى كل وصف لمطعوم يسخر بضيوفه ويقول لهم بعد أن يسيل لعابهم ويشوقهم الى التهامها : أفتشتهونها يا فتيان ؟ فيقولون له : أى والله نشتهيها • فيقول لهم : وعمكم والله يشتهيها ، ثم يتحول عنها الى وصف غيرها من الأنواع الأخرى •

وفيها ــ أى المقامة ــ كما فى غيرها من المقامات مقدرة لغوية عجيبة يضارع بها مقدرة ابن دريد بل ربما يزيد • وهى تدعو الى تعليم الناشئة وتثقيفهم كما فعل ابن دريد •

ومن المقاته التى ظهر فيها الوصف واضحا المقامة المضيرية •

وفيها يتحدث عيسى بن هشام عن أنه كان بالبصرة ومعه أبو الفتح الاسكندرى رجل الفصاحة والبلاغة ، وأنهما حضرا معا دعوة بعض التجار فقدمت اليهم مضيرة •• فلما أخذت ــ أى المضيرة ــ من الخوان مكانها ومن القلوب أوطانها ، قام أبو الفتح الاسكندرى يلعنها وصاحبها ، ويمقتها وآكلها ، ويثلبها وطابخها • وظنناه يمزح ، فاذا الأمر بالضد واذا المزاح عين الجد ، وتنحى عن الخوان وترك مساعدة الاخوان ، ورفعناها فارتفعت معها القلوب وسافرت خلفها العيون ، وتحلبت لها الأفواه •• ولكنا ساعدناه على هجرها ، وسألناه عن أمرها فقال قصتى معها أطول من مصيبتى فيها ، ولو حدثتكم بها لم آمن المقت واضاعة الوقت •

قلنا : هات . قال : دعانى بعض التجار الى مضيرة وأنا ببغداد ولزمنى ملازمة الغريم ، والكلب لأصحاب الرقيم ، الى أن أجبته اليها، وقمنا فجعل طول الطريق يثنى على زوجته لو رأيتها والخرقة فى وسطها ، وهى تدور فى الدور من التنور الى القدور ، ومن القدور الى التنور، تنفث بفيها النار ، وتدق بيديها الأبزار،ولو رأيت الدخان ؛ وقد غبر فى ذلك الوجه الجميل وأثر فى ذلك الخد الصقيل ، لرأيت منظرا تحار فيه العيون ، وأنا أعشقها لأنها تعشقنى ، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليلته ، وأن يسعد بظعينته ، ولاسيما اذا كانت من طينته ، وهى ابنة عمى لحا(٦) ، طينتها طينتى ومدينتها مدينتى وعمومتها عمومتى ، وأرومتها أرومتى ، لكنها أوسع منى خلقا وأحسن خلقا . وصدعنى بصفات زوجته ، حتى انتهينا الى محلته ، ثم قال : يا مولاى ترى هذه المحلة هى أشرف محال بغداد ، يتنافس الأخيار فى نزولها ، ويتغاير الكبار فى حلولها ، ثم لا يسكنها غير التجار ، وانما المرء بالجار،وداري فى السطة من قلادتها(٧) ، والنقطة من دائرتها ، كم تقدر يا مولاى أنفق على كل دار منها ؟ قله تخمينا ان لم تعرفه يقينا . قلت : الكثير . فقال : يا سبحان الله . ما أكبر هذا الغلط . تقول الكثير فقط . وتنفس الصعداء . وقال : سبحان من يعلم الأشياء ، وانتهينا الى باب داره . فقال : هذه دارى كم تقدر يا مولاى أنفقت على هذه الطاقة(٨) ؟ أنفقت والله عليها فوق الطاقة ووراء الفاقة ، كيف ترى صنعتها وشكلها ؟ أرأيت بالله مثلها ؟ أنظر الى دقائق الصنعة فيها وتأمل حسن تعريجها ، فكأنما خط

---

(٦) لحا : أى التحاما والتصاقا . يقال : لحت القرابة بيننا لحا اذا التصقت والتحمت .

(٧) أى فى الوسط من قلادتها أى دورها .

(٨) الطاقة الأولى : نافذة البيت . والطاقة الثانية : الاستطاعة .

بالبركار(٩) ، وانظر الى حذق النجار فى صنعة هذا الباب ، اتخـذه من كم ؟ • قل : ومن أين أعلم ؟ هو ساج من قطعة واحدة لا مأروض ولا عفن ، اذا حرك أنّ ، واذا نقر طنّ(١٠) ، من اتخذه يا سيدى ؟ اتخذه أبو اسحاق بن محمد البصرى وهو والله رجل نظيف الأثواب ، بصير بصنعة الأبواب ، خفيف اليد فى العمـل ، لله در ذلك الرجـل ، بحياتى لا استعنت الا به على مثله ، وهذه الحلقة تراها ، اشتريتها فى سوق الطرائف، من عمران الطرائفى بثلاثة دنانـير معزية ، وكم فيهـا يا سيدى من الشبه ؟ فيها ستة أرطال ، وهى تدور بلولب فى الباب ، بالله دورها ، ثم انقرها وابصرها ، وبحياتى عليك لا اشـتريت الحلق الا منه ، فليس يبيـع الا الأعـلاق(١١) ،ثم قـرع الباب ودخلنـا الدهليز ، وقال : عمرك الله يا دار ، ولا خـربك يا جدار ، فمـا أمتن حيطانك ، وأوثق بنيانك ، وأقوى أساسك ، تأمل بالله معارجها(١٢) • وتبين دواخلها وخوارجها ، وسـلنى : كيف حصـلتها وكمن حيـلة احتلتها حتى عقدتها(١٣) ، كان لى جار يكنى أبا سليمان يسـكن هذه المحلة ، وله من المال ما لا يسعه الخزن ، ومن الصامت ما لا يحصره الوزن(١٤) ، مات رحمه الله وخلف خلفـا أتلفه بين الخمر والزمـر ،

---

(٩) البركار : آلة لتحديد الدوائر وقياسها •

(١٠) الأنين والطنين : احداث الصوت ، عند فتح الباب أو اغلاقه، وعند قرعه للاستفتاح •

(١١) الاعلاق جمع علق وهو النفيس من كل شىء •

(١٢) المعارج : السلالم التى يصعد منها الى أعلى الدار •

(١٣) عقدتها : أى ملكتها •

(١٤) الصامت : المال من الذهب والفضة ونحوها من المعـادن والجـواهر •

ومزقه بين النرد والقمر(١٥) ، وأشفقت أن يسوقه قائد الاضطرار الى بيع الدار ، فيبيعها فى أثناء الضجر ، أو يجعلها عرضة للخطر ، ثم أراها وقد فاتنى شراها ، فانقطع عليها حسرات الى يوم الممات ، فعمدت الى أثواب لا تنض تجارتها(١٦) ، فحملتها اليه وعرضتها عليه، وساومته على أن يشتريها نسية(١٧) ، والمدبر يحسب النسية عطية(١٨) ، والمتخلف يعتدها هدية ، وسألته وثيقة بأصل المال ففعل ، وعقدها لى ، ثم تغافلت عن اقتضائه حتى كادت حاشية حاله ترق ، فأتيته فاقتضيته ، واستمهلنى فأنظرته ، والتمس غيرها من الثياب فأحضرته ، وسألته أن يجعل داره رهينة لدى ، ووثيقة فى يدى ففعل، ثم درجته بالمعاملات الى بيعها حتى حصلت لى بجد صاعد ، وبخت مساعد وقوة ساعد ، ورب ساع لقاعد • وأنا بحمد الله مجدود(١٩) ، فى مثل هذه الأحوال محمود ، وحسبك يا مولاى أنى كنت منذ ليال نائما فى البيت مع من فيه اذ قرع علينا الباب ، فقلت : من الطارق المنتاب ؟ فاذا امرأة معها عقد لآل فى جلدة ماء ورقة آل تعرضه للبيع، فأخذته منها اخذة خلس ، واشتريته بثمن بخس ، وسيكون له نفع ظاهر ، وربح وافر ، بعون الله ودولتك • وانما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة جدى فى التجارة ، والسعادة تنبط الماء من الحجارة • الله أكبر لا ينبئك أصدق من نفسك ، ولا أقرب من أمسك • اشتريت هذا الحصير فى المناداة ، وقد أخرج من دور آل الفرات ، وقت

(١٥) النرد : الطاولة ، والقمر : القمار •

(١٦) نضت التجارة ، كسدت فلم يحصل منها ربح •

(١٧) نسية : مؤجلة • وهى من النسيئة •

(١٨) المدبر : الذى ولى السعادة ظهره يعتبر الدين لاجل هدية •
والمتخلف : أى المتأمر عن الناس يعتبرها كذلك لسوء حاله •

(١٩) مجدود : محظوظ •

المصادرات زمن الغارات ، وكنت أطلب مثله منذ الزمن الأطول فلا أجده، والدهـر حبلى ليس يـدرى ما يلـد ، ثم اتفـق أنى حضرت باب الطاق(٢٠) ، وهذا يعرض فى الأسواق • فوزنت فيه كذا وكذا دينارا تأمل الله دقته ولينه وصنعته ولونه فهو عظيم القـدر ، لا يقع مثلـة الا فى الندر ، وان كنت سمعت بأبى عمران الحصيرى فهو عملـه ، وله ابن يخلفه الآن فى حانوته لا يوجد أعلاق الحصر الا عنده،فبحياتى لا اشتريت الا من دكانه ، فالمؤمن ناصح لأخوانه ، لاسيما من تحـرم بخـوانه •

ونعود الى حديث المضيرة فقد حان وقت الظهـيرة • يا غـلام الطست والماء ، فقلت : الله أكبر ربما قـرب الفرج وسهل المخـرج ، وتقدم الغلام ، فقال : ترى هذا الغلام • انه رومى الأصل عـراقى النشء تقدم يا غلام واحسر عن رأسك ، وشـمر عن سـاقك ، وانض عن ذراعك(٢١) • وافتر عن أسنانك ، واقبـل وأدبر ، ففعل الغـلام ذلك ، وقال التاجر : بالله من اشتراه ؟ اشـتراه والله أبو العباس من النخاس • ضع الطست وهـات الابريق ، فوضـعه الغلام ، وأخـذه التاجر ، وقلبه وأدار فيـه النظر ثم نقـره • فقال : انظر الى هـذا الشبه ، كأنه جذوة اللهب،أو قطعة من الذهب ، شبه الشام وصنعة العراق ، ليس من خلقان الأعلاق ، قد عرف دور الملوك ودارها(٢٢)، تأمل حسنه ، وسـلنى متى اشتريته ؟ اشـتريته والله عام المجـاعة ،

---

(٢٠) باب الطاق : من أبواب بغداد •

(٢١) انض : انزع ثوبك عن ذراعك • وافتر : أى ابتسم لتكشف عن أسـنانك •

(٢٢) فاعل عرف ودارها : ضمير الابريق • أى أن الابريق كان يستعمل فى دور بعض الملوك •

وادخرته لهذه الساعة ، يا غلام الابريق فقدمه ، وأخذه التاجر فقلبه، ثم قال : وأنبو به منه ، لا يصلح هذا الابريق الا لهـذا الطست ، ولا يصلح هذا الطست الا مع هـذا الدست(٢٣) ، ولا يحسن هـذا الدست الا فى هذا البيت ، ولا يجمل هذا البيت الا مع هذا الضيف . أرسـل الماء يا غلام ، فقـد دان وقت الطعام ، بالله ترى هذا المـاء ما أصفاه أزرق كعين السنور(٢٤) ، وصاف كقضيب البلور ، اسـتقى من الفـرات .

واستعمل بعد البيات ، فجاء كلسان الشمعة فى صـفاء الدمعة ، وليس الشأن فى السقاء ، الشأن فى الاناء ، لا يدلك على نظافة أسبابه، أصدق من نظافة شرابه ، وهذا المنديل سـلنى عن قصته ، فهو نسـج جرجان وعمل أرجان(٢٥) ، وقـع الى فاشـتريته فاتخذت امـرأتى بعضه سراويلا ، واتخذت بعضه منديلا ، دخـل فى سراويلها عشرون ذراعا ، وانتزعت من يدها هذا القدر انتزاعا ، وأسلمته الى المطـرز حتى صـنعه كما تراه وطـرزه ، ثم رددته من السوق ، وخزنتـه فى الصندوق ، وادخرته للظراف(٢٦) ، م نالأضـياف ، لم تذله عـرب العامة بأيديها ، ولا النساء لمآقيها ، فلكل علق يوم ، ولكل آلة قوم . يا غـلام : الخوان ، فقد طال الزمان ، والقصاع فقد طال المصـاع والطعام فقد كثر الكلام،فأتى الغلام بالخوان وقلبه التاجر على المكان، ونقره بالبنيان وعجمه بالأسنان وقال : عمـر الله بغداد ، فما أجـود

---

(٢٣) أراد من الدست : أشرف مجلس فى البيت بما فيه من فرش ووسـائد .

(٢٤) السـنور : الهر .

(٢٥) أرجان : اسم موضع فى جرجان .

(٢٦) الظراف : جمع ظريف . وهو الحسن الهيئة النظيف الثوب والبـدن .

متاعها ، وأظرف صناعها ، تأمل بالله هذا الخوان ، وانظر الى عرض متنه وخفة وزنه ، وصلابة عوده وحسن شكله ، فقلت : هذا الشكل ، فمتى الأكل ؟ فقال : الآن ، عجل يا غلام الطعام ، لكن الخوان قوائمه منه . قال أبو الفتح : فجاشت نفسي ، وقلت : قد بقي الخبز وآلاته ، والخبز وصفاته ، والحنطة من أين اشتريت أصلا ، وكيف اكترى لها حملا ، وفي أي رحى طحن ، والاجانة عجن(٢٨) ، وأى تنور سجر(٢٩) ، وخباز استأجر ، وبقي الحطب من أين احتطب ، ومتى جلب ، وكيف صفف حتى جفف ، وحبس حتى يبس ، وبقي الخباز ووصفه والتلميذ ونعته ، والدقيق ومدحه والخمير وشرحه ، والملح وملاحته ، وبقيت السكرجاته من اتخذها(٣٠) ، كيف انتقذها(٣١) ، ومن استعملها ومن عملها والخل كيف انتقى عنبه ، أو اشترى رطبه ، وكيف صهرجت معصرته(٣٢) واستخلص لبه ، وكيف قير حبه(٣٣) ، وكم يساوى دنه ، وبقي البقل كيف احتيل له حتى قطف ، وفي أي مبقلة رصف ، وكيف تؤنق حتى نظف ، وبقيت المضيرة ، كيف اشترى لحمها ، ووفى شحمها ، ونصبت قدرها ، وأججت نارها ، ودقت أبزارها ، حتى أجيد طبخها ، وعقد مرقها ، وهذا خطب يطم وأمر لا يتم ، فقمت فقال : أين تريد ؟ فقلت حاجة أقضيها . فقال : يا مولاى تريدكنيفا يزرى بربيعي الأمير ،

---

(٢٧) المصاع : التجلد والتصبر .

(٢٨) الاجانة : اناء العجين والغسيل ونحوه .

(٢٩) سجر التنور : ملأه وقودا وأحماه .

(٣٠) السكرجات : الصحاف التى توضع فيها ألوان الطعام .

(٣١) انتقذها : أى استخلصها واشتراها من يد صانعها أو بائعها .

(٣٢) صهرجت : طليت . المعصرة : آلة العصر للعنب والرطب .. وغيره .

وحزيقى الوزير(٣٣) فقد جصص أعلاه وصهرج أسفله وسطح سقفه وفرشت بالمرمر أرضه ، يزل عن حائطه الذر فلا يعلق(٣٤) ، ويمشى على أرضه الذباب فيزلق عليه باب غير أنه من خليطى ساج وعاج ، مزدوجين أحسن ازدواج ، يتمنى الضيف أن يأكل فيه ، فقلت : كل أنت من هذا الجراب ، لم يكن الكنيف فى الحساب ، وخرجت نحو الباب ، وأسرعت فى الذهاب وجعلت أعدو وهو يتبعنى ويصيح يا أبا الفتح المضيرة • وظن الصبيان أن المضيرة لقب لى ، فصاحوا صياحة فرميت أحدهم بحجر ، من فرط الضجر ، فلقى رجل الحجر بعمامته ، فغاص فى هامته ، فأخذت من النعال بما قدم وحدث ، ومن الصفع بما طاب وخبث ، وحشرت الى الحبس ، فأقمت عامين فى ذلك النحس،فنذرت أن لا آكل مضيرة ما عشت•فهل أنا فى ذا يا آل همذان ظالم • قال عيسى بن هشام : فقبلنا عذره ، ونذرنا نذره ، وقلنا قديما جنت المضيرة على الأحرار ، وقدمت الأراذل على الأخيار »(٣٥) •

هذه هى المقامة المضيرية التى احتوت فى مضمونها على ثرثرة أشبه بالهذيان المقصود لضايقة الضيف حتى ينصرف بلا طعام ، وهى وان سلكت سبيل القصة ، الا أنها تشبه الى حد كبير المقالة الوصفية•

فالرجل الذى استضاف أبا الفتح الاسكندرى صدعه — على حد قوله — من كثرة حديثه عن زوجته ووصفه لها وتعلقه بها وقرابته منها، وأنها أوسع منه خلقا وأحسن خلقا •

---

(٣٣) قير : طلى بالقار •
(٣٤) الذر : النمل • ويزل عن حائطه أى يزلق عليه لشدة نعومته •
(٣٥) المقامات ص ١٠٤ •

ثم وصف محلته — أى بلدته أو الحى الذى يسكن فيه — وأثنى على سكانه وجيرانه ، وأن داره فى الوسط منهـا ، وأن كل دار تقـدر بالكثير من الأموال ، وسبحان من يعلم الأشياء • ثم وصف داره وأنه أنفق عليها فوق الطاقة ووراء الفاقة • ووصف حذق النجار فى صـنعة الباب ، وأنه اتخذه من الساج والعاج ، كما وصف حلقة البـاب التى اشتراها من سوق الطـرائف ، واستحلف أبا الفتح بالله ألا يشـترى الا من هذه السوق ، وألا يصنع له الا هذا النجار •

وظل الرجل يتحدث الى أبى الفتح ويصف اليه كل ما وقعت عليه عينه أوجال به فكره ، لدرجة ضـاق معها الإسكندرى وسئمت نفسـه وخطر له أن الرجل لا ينتهى من الثـرثرة وكثرة الـكلام ، ولا يأتى بالمضيرة حتى يصف الخبز وآلاته والخبز وصفاته ، ومن أين اشـترى الحنطة ؟ وكيف اكترى لها جمـلا ؟ وفى أى رحى طحن ؟ •• وهـذا خطب يطم وأمر لا يتم •

فقام أبو الفتح وتركه وخرج من الباب وأسرع فى الذهاب ، ولكن تبعه الرجل وأخذ يصيح مناديا اياه : يا أبا الفتح المضيرة ، ولحق به الصبيان يصيحون خلفه المضيرة • فضـاق بهم ورمى أحدهم بحجـر فغاص الحجر فى رأس رجل من اللاحقين به • فما كان من الناس فى هذه المحلة الا أن ضربوه بالنعال وصفعوه على وجهه وقافيته وحبسوه عـامين •

وهذا كله أثر عليه أشد تأثير ، وآلمه فى نفسه وبدنه فنذر ألا يأكل مضيرة طـول حياته •

وقـد حكى هو هـذه الثرثرة الكثـيرة التى حدثت من الرجـل المضاف ، ثم ما انتهت به القصة من الضرب والحبس ليقدم بذلك كله عذره فى نذره وعدم الأكل من المضيرة • فهل هو فى هذا ظالم ؟

بالطبع لا .. وقد قبل من كان معه من الضيفان عـذره ونذروا نذره . على أن قوله فى ختام المقامة:فهل أنا فى ذايا آل همذان ظالم ؟ عجز بيت ، وصدره : وكنت اذا قوم غزونى غزوتهم .

وكنت اذا قوم غزونى غزوتهم   فهل أنا فى ذا يا آل همذان ظالم(٣٦)

وأخيرا : فهذه المقامة تجمع فى نسجها بين القصة التى تعتمد على التمثيل والحوار ، وبين المقالة الوصفية ، ولكنها الى الوصف أقـرب ، الا أنها تخلو من الكدية التى غلبت على مقامات البديع الهمذانى .

٣ ـ الأخبار الأدبية واللفتات النقدية :

من الملاحظ على البديع الهمذاني في مقـاماته أنه يعالج أخبـارا وموضوعات تتصل ـ من قريب ـ بالأدب اتصالا مبـاشرا ، اما على سـبيل الأخبار والحكاية ، وما يجرى بين الشـعراء من ملح ونوادر وهجاء .. وغير ذلك ، واما على سبيل اللفتات النقدية ، وما يجـرى على لسان بطل المقامات أبى الفتح الاسكندرى من نقد أدبى للشعراء والأدباء السابقين ، ووصف أدبهم وشعرهم .

فمن الأول : أى ما كان على سبيل الاخبار والحكاية بين الشعراء ـ تلك القصـة التى حـكاها الراوى عيسى بن هشـام فى المقـامة (الغيلانية)(٣٧) عن راو آخـر تعرف عليـه ، هو : عصـمة بن بدر الفزارى . ودار الحديث بينهما حتى ذكرا الصلتان العبدى والبعيث ، وما كان من احتقار جرير والفرزدق لهما .

---

(٣٦) انظر شرح مقامات بديع الزمان الهمذانى ص ١٤٣ . للشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد .

(٣٧) مقامات الهمذانى ص ٣٨ .

ثم ذكر الفزارى قصة رواها لابن هشام ومن معه من الناس فى مجلس ضمهم بجرجان . مضمون هذه القصة : أنه كان يسير فى بلاد تميم مرتحلا ناقته النجيبة ، واذا برجل فى الطريق يركب جمله الأورق — أى الذى فيه سواد وبياض — ويحيى الفزارى بتحية الاسلام ، فيسأله الفزارى : من الراكب الجهير الكلام ، المحيى بتحية الاسلام ؟ فقال : أنا غيلان بن عقبة — وهو اسم ذى الرمة — ويرحب به الفزارى ويعرفه بنفسه ، ويثنى عليه غيلان . وسارا معا الى أن كان وقت الهاجرة ، حطا رحالهما ، وآل كل واحد منهما الى ظل شجرة ، واضطجع تحتها يبغى النوم والراحة ، ونظر الفزارى غير بعيد ، فاذا رجل قائم يكلأ ناقة له كوماء ، ونظر الى ذى الرمة فوجده قد نام قليلا ثم انتبه ينشد من شعره ، وكان ذلك فى أيام مهاجاته للشاعر المرى ، فرفع — أى ذو الرمة — عقيرته وأنشد يقول :

أمن مية الطلل الدارس	ألظ به العاصف الرامس
فلم يبق الا شجيج القذال	ومستوقد ماله قابس
وحوض تثلم من جانبيه	ومحتفل دارس طامس

ويمضى ذو الرمة فى انشاده حتى يعرج بالهجاء المقذع على امرىء القيس وقبيلته فلما وصل فى انشاده الى قوله :

اذا طمح الناس للمكرمات	فطرفهم المطرق الناعس
تعاف الأكارم اصهارهم	فكل أياماهم عانس

يريد أنهم ليسوا من أصحاب المكارم ، وان أكارم الناس ينفرون من مصاهرتهم ، ولذلك فان بناتهن تكبرن دون أن يتقدم لخطبتهن أحد .

وهنا تنبه الرجل صاحب الناقة الكوماء وكان مستغرقا فى نومه ، وقام يمسح عينيه دون مبالاة بما يقوله ذو الرمة ، ولم يزد على أن

قال : « أذو الرميمة يمنعنى النوم بشعر غير مثقف ولا سائر ؟ » .
ثم استغرق فى نومه مرة ثانية . ولم يشأ أن يجارى ذا الرمة أو يرد عليه استصغارا لشأنه واحتقارا لشعره .

يقول الفزارى « فقلت : يا غيلان ، من هذا ؟ فقال : الفرزدق ، وحمى ذو الرمة فقال :

وأمـا مجاشـــع الأرذلـون فلـم يسـق منبتهـم راجس
سيعقلهم عن مسـاعى الـكرام عقـال ويحبسـهم حـابس

فقلت : الآن يشرق غيثور ، ويعـم هذا وقبيلته بالهجاء ، فوالله مازاد الفرزدق على أن قال : قبحا لك يا ذا الرمة ! أتعرض لمثلى بمقال منتحل ؟ ثم عاد فى نومه كأن لم يسمع شيئا ، وسار ذو الرمة وسرت معه ، وانى لأرى فيه انكسارا حتى افترقنا » .

وهكذا كانت المقامة « الغيلانية » اخبارا عن المهاجاة التى حدثت من ذى الرمة للشـاعر المرى « امرىء القيس » ليحط من قدره عنـد الناس بمهاجاته . والتى حدثت منه للشاعر الفرزدق وقبيلته ، ولـم يعره الفرزدق اهتماما استصغارا لشأنه ، واحتقارا لشعره . وما كان فى نهاية الأمر من انكسار ذى الرمة نتيجة عدم اهتمام الفرزدق به فلم يرد عليه ولم يلاحقه بشعره .

وهذه المقامة لا تعدو أن تكون قصة مهاجاة أو نادرة أدبية حكاها عيسى بن هشام عن راو آخر هو عصمة بن بدر الفزارى ، وخلت تماما من بطل المقامات أبى الفتح الاسكندرى .

وهى تلفتنا الى أن بديع الزمـان كما أهتـم بالنواحى الماديـة وتصوير الطبقات الاجتماعية ، على سبيل الحديث عن الكدية والمكدين ،

فلم يهمل الجانب الأدبى والنقدى فيها • وهذا ان دل على شىء فانما يدل على أن البديع كان شاعرا وأديبا ناقدا ومقاماته تشهد بذلك •

ومن الثانى : أى ما كان من لفتاته النقدية التى جرت على لسان بطل مقاماته أبى الفتح الاسكندرى للشعراء والأدباء السابقين ، وما كان منه فى وصف أدبهم وشعرهم — ما رواه عيسى بن هشام « فى المقامة القريضية » (٣٨) حين تحدث مع رفقة له اجتمعوا فى حانوتـه الذى كان يختلف اليـه بين طرفى النهـار ، وتذاكروا القريض وأهله وتحدثوا عن الشعراء السابقين ، وصفاتهم العامة فى شعرهم • وكان يجلس بالقرب منهم شاب أخذ ينصت اليهم ، ويفهم ، ويسكت وكأنه لا يعلم ، ولكن حين اشتد الجدال بين الأصـحاب حـول الشـعراء السابقين ، تدخل الشاب الذكى وقال لهم :«سلونى أجبكم ، واسمعونى أعجبكم » • فسألوه عن رأيه فى امرىء القيس • فقال : « هو أول من وقف بالديار وعرصاتها ، واغتدى والطير فى وكناتها ، ووصف الخيـل بصفاتها ، ولم يقل الشعر كاسبا ، ولم يجد القول راغبا ، ففضل من تفتق للحيلة لسانه ، وانتجع للرغبة بنانه » • فسألوه عن النابغـة ، فقال : « يثلب اذا حنق ، ويمدح اذا رغب ، ويعتذر اذا رهب ، فـلا يرمى الا صائبا » فسألوه عن زهير • فقال : « يذيب الشعر والشـعر يذيبه ، ويدعو القول والسحر يجيبه » فسألوه عن طرفـة • فقال : « هو ماء الأشعار وطينتها ، وكنز القـوافى ومدينتها ، مات ولم تظهر أسرار دفائنه ، ولم تفتح أغـلاق خـزائنه » • فسـألوه عن جرير والفرزدق أيهما أسبق — أى فى رقة الشعر وغزارته — فقال : « جرير أرق شعرا ، وأغزر غزرا ، والفرزدق أمتن صـخرا ، وأكثر فخـرا ، وجرير أوجع هجوا وأشرف يوما ، والفـرزدق أكثر روما وأكرم قوما

---

(٣٨) مقامات الهمذانى ص ٥ •

وجـرير اذا نسب أسـجى ، واذا ثلب أردى ، واذا مـدح أسنى ، والفرزدق اذا افتخر أجزى ، واذا احتقر أزرى ، واذا وصف أوفى » .
ثم سألوه عن رأيه فى المحـدثين من الشعراء والمتقدمين منهم — وهى قضية أخذت حظا كبيرا من آراء النقاد وعلماء اللغة فى العصور الأدبية واللغوية القديمة — فقال فى ايجاز شديد ، مع عدم الاخلال بالمعـنى المراد : « المتقدمون أشرف لفظا وأكثر من المعانى حظا ، والمتأخرون ألطف صنعا وأرق نسجا » .

وهو بذلك يجعل المتقدمين من الشعراء يصدرون فى شعرهم عـن طبع ، والمتأخرين منهم يصدرون فى شعرهم عن صنعة ، فلا فرق فى هذا الرأى بينه وبين المتعصبين من علماء اللغة للقديم ، الا أنه قـدم رأيه فى صورة مقبولة عند غير المتعصبين للقديم أو الحديث .

والملاحظ على آراء البديع هذه التى صـاغها على لسـان بطـل مقاماته الاسكندرى فى الشـعراء الجاهليين والاسـلاميين ، انها غير مصحوبة بدراسة وتحليل وذكر للشواهد . ولعل السـبب فى ذلك أن المقامة لو ذكرت فيها الشـواهد المصـحوبة بالدراسـة والتحليل من أجل الحصول على النتيجة الأخيرة والرأى السديد والوصف اللائـق بالشعراء السابقين ، لفقدت الاطار الموضوعى لها ، والحوار القصصى فيها ، وهدفها الذى صيغت من أجله . ولم تسم فى نهاية الأمر مقامة من مقامات الهمذانى ، وانما تصبح موضوعا نقديا يقوم على الدراسة والتحليل واقامة الشواهد الدالة على ما يقوله الناقد .

فهى الآن بما هى عليه لا تعدو أن تكون لفتات نقدية ، وصـفات الشاعرية عند الشاعر ، مستنبطة من شعره ، بعد طول تأمل ودراسة .

ومن ذلك ما كان من نقد البديع الهمذانى للجاحظ فى المقامة « الجاحظية » (٣٩) على لسان بطل مقاماته حين اجتمع على مائدة الطعام مع عيسى بن هشام ورفقته ، ووجدهم يذكرون الجاحظ وخطابته ، ويصفون ابن المقفع وذرابته ، فلما انتهى الطعام سألنا : أين أنتم من الحديث الذى كنتم فيه ؟ يقول عيسى بن هشام : «فأخذنا فى وصف الجاحظ ولسانه وحسن سننه فى الفصاحة وسننه فيما عرفناه، فقال يا قوم : لكل عمل رجال ، ولكل مقام مقال ،
ولكل دار سكان ، ولكل زمان جاحظ .. » .

ثم قال ناقدا الجاحظ ، وأنه فى رأيه لا يستحق تلك الشهرة العريضة فى دنيا الكتابة ، لأنه يبرز فى جانب ويقصر فى جانب آخر ، والبليغ لا يقصر وانما يبرز فى كل جانب . فيقول : « ان الجاحظ فى أحد شقى البلاغة يقطف ، وفى الآخر يقف ، والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره ، ولم يزر كلامه بشعره ، فهل تروون للجاحظ شعرا رائعا ؟ قلنا : لا . قال : فهلموا الى كلامه ، فهو بعيد الاشارات ، قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، منقاد لعريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة ؟ قلنا : لا ».

فالبديع فى هذه المقامة ينقد الجاحظ آخذا عليه تقصيره فى أحد جوانب البلاغة أى فى جانب النظم ، ويعيب عليه : بعد الاشارات وقرب العبارات ، وقلة الاستعارات،وعدم استخدامه فى كتابته للكلمات الغريبة والمصنوعة .

---

(٣٩) مقامات الهمذانى ص ٧٣ .

وأرى أن البديع يتجنى على الجاحظ فى رأيه هذا . اذ أن البلاغة فى رأى النقاد قديما وحديثا تأتى من وضع الكلمة فى موضعها اللائق بها ، وأن تكون نصيحة قريبة من الفهم ، يسابق اللفظ فيها المعنى ، كما يسابق المعنى فيها اللفظ ، مع مراعاة الكلام لمقتضى الحال ، سواء أكان ذلك فى الشعر أم فى النثر . وليس كل شاعر ناثرا ، أو العكس ، فعبد الحميد الكاتب وابن المقفع وابن العميد والقاضى الفاضل .. وغيرهم ، قد اشتهروا بالنثر دون الشعر ، ولم يوصفوا بالتقصير . وامرؤ القيس وطرفة وزهير والأعشى وكعب وحسان .. وغيرهم من الشعراء الجاهليين والاسلاميين قد اشتهروا بالشعر دون النثر ، ولم يوصفوا أيضا بالتقصير . فكيف يصف البديع الجاحظ بالتقصير لأنه كان كاتبا ولم يكن شاعرا ؟ ولأنه كان فى كتابته بعيد الاشارات قريب العبارات قليل الاستعارات .. الى آخر ما قال البديع ، ولم يقل ذلك غيره .

أرى أنه يتحامل عليه ليحط من قدره ويقلل من شأنه ، ربما لأنه رأى أن شهرته قد طبقت الآفاق ، فأراد أن يزرى به ليعلو هو عليه ويتفوق ، كما تفوق على الخوارزمى فى رسائله ، وعلى ابن دريد فى أحاديثه التى تشبه المقامات .

على كل حال فهذه المقامة توضح لنا أن مقامات بديع الزمان كانت تعنى بالأدب والنقد الى جانب الموضوعات الأخرى التى عالجها البديع فى مقاماته .

وفى المقامة « الابليسية » نجد مطارحات شعرية بين عيسى ابن هشام راوى مقامات الهمذانى وبين الشيخ أبى مرة — وهى كنية ابليس — الذى كان يعتبر نفسه ملهم الشعراء شعرهم ، وكان الشعراء قديما يعتقدون أن لكل شاعر شيطانا يلهمه الشعر وينفث السحر على لسانه . ويدل على ذلك قول بعضهم :

أنى وان كنت صغير السن وكان فى العين نبو عنى
فان شيطانى أمير الجن يذهب بى فى الشعر كل فن

فعيسى بن هشام يتحدث فى هذه المقامة عن ابل له ضالة ، أخذ يبحث عنها ، واذا شيخ جالس راعه منظره ، ولكنه أتى اليه فسلم عليه،وأمره الشيخ بالجلوس بين يديه،والامتثال اليه ، وسأله عن حاله فأخبره ، ثم قال له : « فهل تروى من أشعار العرب شيئا ؟ » يقول عيسى بن هشام : « فقلت : نعم ، فأنشدت لامرىء القيس ، وعبيد ، ولبيد ، وطرفة ، فلم يطرب لشىء من ذلك ، وقال : أنشدك من شعرى؟ فقلت له : ايه ، فأنشد :

بان الخليط ولو طوعت ما بانا وقطعوا من حبال الوصل أقرانا

حتى أتى على القصيدة كلها ، فقلت : ياشيخ هذه قصيدة لجرير ، قد حفظتها الصبيان وعرفتها النسوان ، وولجت الأخبية — أى الخيام — ووردت الأندية ، فقال : دعنى من هذا ، وان كنت تروى لأبى نواس شعرا فأنشدنيه ، فأنشدته :

لا أندب الدهر ربعا غير مأنوس ولست أصبو الى الحادين بالعيس
أحق منزلة بالهجر منزلة وصل الحبيب عليها غير ملبوس

الى آخر الأبيات التى ذكرها ابن هشام من القصيدة .

قال : — أى ابن هشام — فطرب الشيخ وشق،وزعق ، فقلت : قبحك الله من شيخ ، لا أدرى ، أبا نتحالك شعر جرير أنت أسخف أم بطربك من شعر أبى نواس ، وهو فويسق عيار ؟ (٤٠) .

---

(٤٠) الفويسق : تصغير فاسق ، والعيار : الذى يلقى لنفسه حبلها على غاربها ، لا يهديها الى فضيلة ، ولا يزجرها عن رذيلة .

فقال : « دعنى من هذا وامض على وجهك .. » ثم عرفه بنفسه قائلا له : « وكنت أتتمك حديثى ، وأعينس معك فى رخاء ، لكنك أبيت فخذ الآن ، فما أحد من الشعراء الا ومعه معين منا ، وأنا أمليت على جرير هذه القصيدة ، وأنا الشيخ أبو مرة . قال عيسى بن هشام : ثم غاب ولم أره ، ومضيت لوجهى .. » وأعتقد أن بديع الزمان أراد أن يصل بالمطارحات الشعرية التى عقدها بين عيسى بن هشام وبين الشيخ أبى مرة الى قضية معتقد العرب قديما فى شيطان الشاعر . وعلى الرغم من أن هذا الاعتقاد كان سائدا عند الجاهليين أكثر من الاسلاميين الذين بدلوا الشيطان بالملك . الا أن أبا مرة لم يطرب لما أنشده ابن هشام من شعر امرئ القيس وغيره من الشعراء الجاهليين ، مثلما طرب لشعر أبى نواس وغيره من الشعراء الاسلاميين .

ولا أظن الا أنه لم يعجب بديع الزمان نفسه ، وليس أبا مرة . لأن أبا مرة هو ملهم الشعراء — فى اعتقادهم — الشعر ، وقد ورد ذلك فى هذه المقامة — أعنى « الابليسية » — حيث قال الشيخ أبو مرة : « فما أحد من الشعراء الا ومعه معين منا » وورود هذا القول فى المقامة دليل على اعتقاد البديع نفسه فى شيطان الشاعر ، والا لما ورد مثل هذا القول فى المقامة،بل لما وردت هذه المقامة بأكملها ضمن مقامات الهمذانى .

ودلل الهمذانى على شيطان الشاعر بالقصيدة التى أنشدها أبو مرة وهى لجرير ليوضح أنه هو الذى أوحى لجرير بمعانيها ، وصاغها على لسانه شعرا رائقا ، وهى أيضا لفتة أدبية ونقدية من لفتات البديع تضاف الى لفتاته الأخرى فى مقاماته الأخرى .

وهى ان دلت على شىء فانما تدل على المام البديع الهمذانى بقضايا الأدب والنقد فى العصور الأدبية المتقدمة ، وأنه لم يغفل هذه

القضايا ، وانما عنى بها ضمن عناياته بأحوال المجتمع ونظـام المكدين فيه •

ولما كانت الألغاز والأحاجي من الفنـون الأدبيـة التى أولاهـا الشـعراء والأدباء اهتمامهم فى العصور الأدبية المختلفة ، وبخاصة فى العصر العباسى وما تلاه من عصور أدبية ، فقد أهتم بها البديع وعالجها فى مقاماته •

ففى المقامة « العراقية » (٤١) يروى لنا عيسى بن هشام : أنـه طوف بالآفاق حتى بلغ العراق وقرأ دواوين الشعراء ، حتى ظن أنـه استقصاها فلم يبق ديوان الا واطلع عليه • وبينمـا هو على الشط فى بغداد اذ رأى فتي فى أطمار بالية يسأل الناس ويحرمونه ، فأعجبـه فصاحته وبلاغته ، فدنا منه وسأله عن أصله وداره • فقال له : أنـا عيسى الأصل ، اسكندرى الدار » • فعرف أنه أبو الفتح الاسكندرى• فسأله عن فصاحة لسانه وقوة بيانه ، وعن العلوم التى يتحلى بهـا ، وعرف منه أنه يتحلى بجميع العلوم ، وأنه يحسن قرض الشعر•فسأله قائلا له : « هل قالت العرب بيتا لا يمكن حله ؟ وهل نظمت مدحا لـم يعرف أهله ؟ وهل لها بيت سمج وضعه ، وحسن قطعه ؟ وأى بيت لا يرقأ دمعه ؟ـوأى بيت يثقل وقعه ؟ وأى بيت يشج عروضه ويأسـو ضربه ؟ وأى بيت يعظم وعيده ويصغر خطه ؟ وأى بيت هو أكثر رملا من يبرين ؟ (٤٢) وأى بيت هو كأسنان المظلوم والمنشار المثلوم ؟ وأى بيت يسرك أوله ويسوؤك آخره ؟ وأى بيت يصفعك باطنه ويخدعـك ظاهره ؟ وأى بيت لا يخلق سامعه حتى تذكر جـوا معـه ؟ وأى بيت

---

(٤١) مقامات الهمذانى ص ١٤٢ •

(٤٢) يبرين : اسم موضع بازاء الاحساء كثير الرمال •

لا يمكن لمسه ؟ وأى بيت يسهل عكسه ؟ وأى بيت هو أطول من مثله ، وكأنه ليس من أهله ؟ وأى بيت هو مهين بحرف ، ورهين بحذف ؟ .

فأجابه أبو الفتح عن أسئلته جميعها فقـال : « أما البيت الذى لا يمكن حله فكثير ، ومثاله قول الأعشى :

دراهمنـــا كلهـا جيـدا فلا تحبسـنا بنتقـادها

وأما المدح الذى لا يعرف أصله فكثير ، ومثاله قول الهذلى :

ولـم أدر من ألقى عليـه رداءه على نه قد سل عن ماجد محض

وأما البيت الذى سمج وضعه وحسن قطعه ، فقول أبى نواس :

فبتنـا يرانـا الله شـر عصـابة نجرر أذيال الفسـوق ولا فخر

وأما البيت الذى لا يرقأ دمعه فقول ذى الرمة :

ما بال عينـك دنها المـاء ينسكب كأنـه من كلى مضريـة سـرب

وأما البيت الذى يثقل وقعه ، فمثل قول ابن الرومى :

اذا مـن لـم يمنن بمـن يمنـه وقال لنفسى : أيها النفس أمهلى

وأما البيت الذى تشج عروضه ويأسو ضربه فمثل قول الشاعر :

دلفـت لـه بأبيـض مشـرفى كمـا يدنـو المصـافح للسـلام

وأما البيت الذى يعظم وعيده ويصغر خطبه فمثاله قول عمرو بن كلثوم :

كأن سـيوفنا منا ومنهـم مخاريـق بأيدى لاعبينـا

وأما البيت الذى هو أكثر رملا من يبرين . فمثل قول ذى الرمة :

معروريـــا رمــض الرضراض يركضـــه
والشمس حـيرى لها فى الجــو تدويــم

وأما البيت الذى هو كأسنان المظلوم ، والمنشار المثلوم ، فكقول الأعشى :

وقــد غدوت الى الحــانوت يتبعنى شاو مشل شلول شلشل شول

وأما البيت الذى يسرك أوله ويسوؤك آخره فكقول امرىء القيس:

مكــر مفــر مقبــل مــدبر معــا كجلمودصخر حطه السيل من عل

وأما البيت الذى يصفعك باطنه ويخدعك ظاهره فكقول القائل :

عاتبتهــا فبكت وقالت : يا فــتى نجــاك رب العــرش من عتــبى

وأما البيت الذى لا يخلق سامعه حتى تذكر جوا معه فكقول طرفة:

وقوفا بهــا صــحبى على مطيهم يقولون : لا تهــلك أسى وتجلــد

وأما البيت الذى لا يمكن لمسه ، فكقول الخبز رزى :

تقشــع غيــم الهجــر عــن قمــر الحب
وأشرق نــور الصــلح من ظلمــة العتب

وأما البيت الذى يسهل عكسه ، فكقول حسان :

بيض الوجــوه كريمة أحســابهم شم الأنوف من الطــراز الأول

وأما البيت الذى هو أطول من مثله ، فكحماقة المتنبى :

عش ابق اسم جد قد مر انه اسرفه تسل
غظ ارم صب احم أغز اسب رع زع ابن نل

وأما البيت الذى هو مهــين بحرف ، ورهين بحــذف ، فكقــول أبى نواس :

لقد ضــاع شــعرى على بابكــم كمــا ضــاع در على خالصــه

قال عيسى بن هشام : فتعجبت والله من مقاله ، وأعطيته مايستعين به على تغيير حاله وافترقنا » .

وفى المقامة « الشعرية » (٤٣) يروى عيسى بن هشام أنه كان ببلاد الشام ، وانضم اليه رفقة من أصحابه ، فاجتمعوا ذات يوم فى حلقة ، وأخذوا يتذاكرون الشعر ونوادره ويتحدثون عن معانيه ويتحاجون بمعاميه ، وقد وقف عليهم فتى يسمع الشعر ويفهمه ، وطلب منهم أن يسألوه عن معمياته فما سألوه عن بيت الا أجاب ، ولا عن معنى الا أصاب . ولما فرغت كنائنهم وفنيت خزائنهم ، عطف عليهم سائلا ، فذكر اثنين وخمسين سؤالا كلها من قبيل الألغاز والأحاجى .. ثم قال لهم : « اختاروا من هذه المسائل خمسا لأفسرها ، واجتهدوا فى الباقى أياما ، فلعل ابناءكم يرشح ، ولعل خاطركم يسمح ، ثم ان عجزتم فاستأنفوا التلاقى ، لأفسر الباقى » .

يقول عيسى بن هشام : « وكان مما اخترنا البيت الذى سمج وضعه وحسن قطعه ، فسألناه عنه فقال : هو قول أبى نواس :

فبتنا يرانا الله شر عصابة ... تجرر أذيال الفسوق ولا فخر

قلنا : فالبيت الذى حله عقد ، وكله نقد ؟ فقال : قول الأعشى :

دراهمنا كلها جيد ... فلا تحبسنا بتنقادها

وحله أن يقال : دراهمنا جيد كلها . ولا يخرج بهذا الحل عن وزنه

قلنا : فالبيت الذى نصفه مد ونصفه رد ؟ قال : قول البكرى

أتاك دينار صدق ... ينقص ستين فلسا

من أكرم الناس الا ... أصلا وفرعا ونفسا

---

(٤٣) مقامات الهمذانى ص ٢٢٣ .

قلنا : فالبيت الذى يأكله الشاء متى شاء • قال : بيت القائل :

فما للنوى ؟ جذ النوى قطع النوى   رأيت النوى قطاعة للقرائن

قلنا : فالبيت الذى طال ، حتى بلغ ستة أرطال ، قال : بيت ابن الرومى :

اذا من لم يمنن بمن يمنه   وقال انفسى : أيها النفس أمهلى

قال عيسى بن هشام : فعلمنا أن المسائل ليست عواطل ، واجتهدنا، فبعضها وجدنا وبعضها استفدنا ، فقلت على أثره وهو عاد :

تفاوت الناس فضلا   وأشبه البعض بعضا
لولاه كنت كرضوى   طولا وعمقا وعرضا

أى أنه كان قبل لقائه بهذا الفتى الذى بذه هو وغيره ، وتفوق على الجميع ، يحس فى نفسه العظم والبراعة ، وأنه يشبه جبل رضوى فى عظمه الحسى ، ولكن ظهور هذا الفتى ، وما أظهره من براعته وسعة اطلاعه ، أخمد جذوته وفل من حدته وضاعل من معرفته •

وهكذا أجاب البديع الهمذانى على لسان بطله أبى الفتح الاسكندرى على أسئلة راوى مقاماته عيسى بن هشام وألغازه ، سواء فى المقامة العراقية أو فى المقامة الشعرية • أى أن السائل هو البديع ، والمجيب أيضا هو البديع • وذلك كله ان دل على شىء فانما يدل على سعة علمه بضروب الشعر ومعانيه وجيده ورديئة ، كما يدل على كثرة حفظه وفهمه الشعر الجاهلى والاسلامى •

ولما كانت أسئلة الراوى وألغازه من شعر غير البديع ، فكانت الاجابة من شعر غير البديع أيضا • فالملاحظ أنه لم يجب عن لغز واحد ببيت من شعره هو ، وانما فحوى الألغاز أن صاحبها يريد الاجابة عليها من شعر العرب فكانت الاجابة كذلك •

وهذا يدل على اهتمام البديع الهمذانى بالأدب وشتى فنونه ، كما يدل على أن المقامات كما تكون نثرا تكون شعرا ، وكما تتضمن أغراضا وأبوابا من الحياة الاجتماعية العامة ، تتضمن أدبا ونقدا . وهى قبل ذلك وبعده تشهد لواضعها بالتفوق والذكاء فى الأدب وشـتى فنـون الحياة . فهو يعرف كيف يدير الحديث ، ويصيغ العبارات ، من غـير نبـو ولا تكلف ، وكيف يبدأ موضوعه ، وكيف ينتهى منه ، وكيف يأتى بنثر يعقبه شعر ، أو شعر يعقبه نثر ، وكله فى موضع واحد ومعـنى واحد ، ويعرف متى يوجز فى عباراته ، ومتى يسهب ؟ أى أنه يطابق فى حديثه مقتضى الحال مع فصاحة لسانه وقوة بيانه . كذلك عـرف متى يغرب فى ألفاظه ومتى يرق وسهل ؟

واذا كانت الغرابة تغلب عليه فى ألفاظه ، فلأنه فى سباق ورهان مع أبى بكر بن دريد الذى كان مذهبه الغرابة فى الألفـاظ والتعمق فى المعانى . ولابد أن يتفوق عليـه كما تفـوق على نده — من قبل — أبى بكر الخوارزمى ، ولا شك أنه تفوق عليهما معا ، كما تفوق عـنى كثير من شعراء وكتاب عصره . وهذا ما دعاه الى الفخر والتعـالى ، فلم يطرب لشعر امرىء القيس أو طرفة أو لبيد أو عبيد بن الأبرص . كما أنه نقد الجاحظ وأخذ عليه تقصيره فى جانب الشعر ، كما آخذ عليه رقته وسهولته وقرب معانيه وعدم اغرابه فى الألفاظ والمعانى .

على كل حال . فهو أديب عصره ونسيج وحده ، والمقامات وحدها — ان لم تكن رسائله أو شعره — تشهد له بذلك .

ولهذا وصفه الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد بأنه : « الكاتب المترسـل ، والشاعر المجيـد ، قدوة الحريرى وقريع الخـوارزمى ،

ووارث مكانته ، معجزة همذان ، ونادرة الفلك ، وفريد دهره ، رواية وحفظا ، وغرة عصره بديهة وذكاء » (٤٤) •

وقال عنه الثعالبى : « على أنه ما مات من لم يمت ذكره ، ولقد خلد من بقى على الأيام نظمه ونثره » (٤٥) •

٤ ــ النزعة الدينية والعقائدية :

الواضح من مقامات الهمذانى أنه كان متدينا كثير الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث الشريف • وأنه كما اهتم فى مقاماته بمعالجة الموضوعات والقضايا ، اهتم كذلك بموضوعات وقضايا دينية هامة حدث الموضوعات والقضايا ، اهتم كذلك بموضوعات وقضايا دينية هامة حدث فيها خلاف شديد وكبير بين المذاهب الكلامية ، وبخاصة بين أهل السنة والمعتزلة •

وقد لوحظ من كلامه فى المقامة « المارستانية » (٤٦) : أنه كان سنيا متعصبا ومدافعا عن مذهبه وأهل جماعته • ولكى ينكر على المعتزلة آراءهم ويوبخهم عليها وينال منهم دون معارض ، جعل حديثه كله على لسان أبى الفتح الاسكندرى الذى ألبسه ثوب مجنون،وجعله يتحدث من المارستان (٤٧) • واتصافه بهذه الصفة يجعله فى حل من المآخذ عليه ، ولذلك نال منهم ، وسفه أحلامهم ، وذم عقولهم ، وأنكر

---

(٤٤) شرح مقامات بديع الزمان الهمذانى ص ٧ طبعة دار الكتب العلمية ــ بيروت •

(٤٥) اليتيمة ج ٢ ص ٢٥٨ •

(٤٦) مقامات الهمذانى ص ١٢١ •

(٤٧) المارستان : مستشفى الامراض العقلية والنفسية •

عليهم ما يقولون في حق الله وصــفاته ، وناقشهم في القضــايا المختلف فيها بين المذهبين مناقشة عقلية ونقلية لا تصدر الا عن عاقــل متدين قوى الايمان كثير العلم والمعرفة ، متصل من قريب بالمذاهب العقائدية وعلماء الكلام .

فهو في هذه المقامة — أعني المارســتانية — يروى عن عيسى ابن هشام أنه دخل مارســتان البصرة ، ومعــه أحــد علمــاء الكلام وهو « أبو داود » وكان معتزلي المذهب والمعتقد ، فنظر ابن هشــام الى مجنون ، فطوقهم المجنون بنظرة ثم سألهم : « من القوم لله أبوهم ؟» . يقول ابن هشام : « فقلت أنا عيسى بن هشام ، وهذا أبو داود المتكلم، فقال : العسكرى ؟ قلت : نعم ، فقال : شاهت الوجوه وأهلها !»(٤٨).

ثم أخذ في سرد القضايا المختلف فيها بين أهل السنة والمعتزلة . فالمعتزلة يرون أن العبد له اختيار في أموره كلها ، وأن الله تعــالى عرض الأفعال خيرها وشرها على العبد فاختار منها لنفسه الأعمــال التي نهجها وسار عليها . ولكن البديع الهمذاني يرد عليهم على لسان الاسكندرى ردا فيه عصبية يشبه معها أن يكون جبرى المذهب ، مع أن مذهب أهل السنة وسط بين المعتزلة والجبرية . يقول لهم : «ان الخير لله لا لعبده ، والأمور بيد الله لا بيده ، وأنتم — يا مجوس هذه الأمة — تعيشون جبرا ، وتموتون صبرا ، وتساقون الى المقدور قهرا ، ولو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضــاجعهم ، أفــلا تنصرفون ، ان كان الأمر كما تصفون ؟

ويعرض لأدلتهم على قولهم بالاختيار ، بأن خالق الظلم ظالم . وبما أن الله تعالى ليس ظالما ، اذن : فالظلم من خلق العباد وايجاده ،

---

(٤٨) أى بئست هذه الوجوه وقبح أهلها .

وهذا يدلنا على أن للعبد خلقا وايجادا ، وله اختيار فى الأفعال • فيرد عليهم قولهم بدليل عقلى يناسب دليلهم ويقول لهم : « أفلا تقولون : خالق الهالك هالك ؟ أى خالق الموت ميت • وهذا لا يعقل ، فلابد أن يكون خالق الموت حيا وهو الله تبارك وتعالى : « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » •

وبهذا لا يكون للعبد خلق ولا ايجاد ، وانما الخالق الموجد هو الله عز وجل وعلا • وبعد أن ناقشهم فى هذه القضية ، وأفحمهم بأدلته، وصفهم بسوء النية وخبث الطوية وفضل عليهم ابليس ، لأنه اعترف وأنكروا ، وآمن وكفروا ، فيقول لهم : « أتعلمون يقينا أنكم أخبث من ابليس دينا ؟ قال : رب بما أغويتنى ، فأقر وأنكرتم وآمن وكفرتم ، وتقولون : خير فاختار ، وكلا ، فان المختار لا يبعج بطنه ، ولا يفقأ عينه ، ولا يرمى من حالق ابنه ، فهل الاكراه الا ما تراه ؟ •• فليخزكم أن القرآن بغيضكم وأن الحديث يغيظكم » (٤٩) •

ومن القضايا التى عرض بها اليهم : أنهم ينسبون الهدى لله والضلال العباد • مع أن القرآن الكريم يوضح أن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، حيث يقول سبحانه : « من يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء » • ولذلك يقول لهم أبو الفتح : « اذا سمعتم : « من يضلل الله فلا هادى له » ألحدتم » •

كذلك يصفهم بالجحود لانكارهم معراج النبى — صلى الله عليه وسلم — ويقولون : ذلك كان فى النوم لا فى اليقظة • وهذا الجحود

---

(٤٩) وذلك لأن كلا من القرآن الكريم والحديث الشريف ينطق بالحجة الدامغة ضدهم •

يقوى رأى أهل السنة الذين يقولون : ان الاسراء والمعراج كلاهما كان فى اليقظة ، وكان بالروح والجسد معا • ولذلك يقــول لهم : « واذا سمعتم : « زويت لى الأرض فأريت مشارقها ومغاربها » جحدتم » •
ولما كان المعتزلة ينكرون الوجــود الفعلى للجنة والنــار فى الدنيــا ، ويقولون : ان وجودهما معنــوى ، على الرغم من الأدلة الكثــيرة فى القرآن الكريم والحديث على وجودهما الفعلى فى الدنيا ، قال لهم : (واذا سمعتم : « عرضت على الجنة حتى هممت أن أقطف ثمارها ، وعرضت على النار حتى اتقيت حرها بيدى » أنغضتم رؤوسكم ولويتم أعناقكم) • ولما كانوا ينكرون العذاب فى القبر على الرغم من الآيات القرآنية التى تقرر ذلك ومنها قول الله تعالى : « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب » • وعلى الرغم من الأحاديث النبوية التى تشهد بذلك ، ومنها أنه صلى الله عليه وسلم « مر على قبرين فقال : انهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير ، أما أحدهما فكان لا يستبرىء من بوله ، وأما الآخر فكان يمشى بــين الناس بالنميمة » • وقوله صلى الله عليه وسلم : « القبر اما روضــة من رياض الجنة ، واما حفرة من حفر النــار » • ولــذلك قال لهــم أبو الفتح : « وان قيل : « عذاب القبر » تطــيرتم » • ولما كان من دعاوى المعتزلة أن الصراط : هو الطريق المعنوى • ولم يكــن جسرا منصوبا على شفير النار يجتازه المؤمنون ، وتزل عليه أقدام المبطلين • مع أنه قد ورد فى القرآن الكريم والحديث الشريف ، كما ورد وصف الصراط وكيفية العبور عليه واجتيازه • لما كان الأمر كذلك ، قال لهم الاسكندرى : « وان قيل : (الصراط) تغامزتم » •

ولما كان من دعواهم القول بعدم وجود الميزان ، على الرغم من أن الله تعالى يقول : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة » • ويقول:

« فأما من خفت موازينه » ويقول : « وأما من ثقلت موازينه » . قال لهم الاسكندرى : « وان ذكر الميزان قلتم : من الفرغ كفتاه » (٥٠).

ولما ادعوا بأن القرآن الكريم حادث ومخلوق ، ووصفوه بصفات الحوادث ، مع أن القول الفصل عند علماء الكلام وعلى رأسهم جماعة أهل السنة : أن القرآن هو : صفة الله الكلامية ، فأما الحروف التى نقرؤها والكاغد والورق فمحدثه ، ولكنهم يقولون عن صفة الله الكلامية بأنها حادثة ومخلوقة . ولذلك قال أبو الفتح : « وان ذكر الكتاب قلتم: من القد — أى الجلد — دفتاه » ، أى ادعيتم حدوثه ، ووصفتموه بصفات الحوادث .

من أجل دعواهم هذه التى عدها أبو الفتح باطلة ، ثار عليهم ثورة عارمة ، ووصفهم بأحط الصفات وأخبثها ، وأن من كان قبلهم ممن تخلقوا بصفاتهم قد مرقوا من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فكانوا للحديث كالصدأ للحديد . ثم خرج هؤلاء بعدهم فكانوا أخبث الخبث ، أى كانوا أشد خبثا ممن كانوا قبلهم . ولـذلك قال لهم : « يا أعداء الكتاب والحديث ، بماذا تطيرون ؟ أبالله وآياته ورسوله تستهزئون ؟ انما مرقت مارقة فكانوا خبث الحديث ، ثم مرقتم منها ، فأنتم خبث الخبث ، يا مخانيث الخوارج ، ترون رأيهم الا القتال ؟ يشبههم بهم فى خروجهم على الجماعة وادعائهم أمورا فى الدين لا تتفق وما عليه الجماعة المؤمنة .

ثم التفت الى ابن هشام وعنفه على أنه اتخذ له زوجة من المعتزلة وقال له : « وأنت يا ابن هشام : تؤمن ببعض الكتاب وتكفر ببعض ؟ سمعت أنك افترشت منهم شيطانة ، ألم ينهك الله عز وجل أن تتخذ

---

(٥٠) الفرغ : الفراغ ، والمراد عدم وجود الميزان .

منهم بطانة ؟ ويلك هلا تغيرت لنطفتك ، ونظرت لعقبك ؟ » ثم دعا الله تعالى أن يخرجه من هذه الحياة التى تجمعه بهؤلاء المعتزلة الى الدار الآخرة ليلقى فيها ملائكته ٠ فقال : « اللهم أبدلنى بهؤلاء خيرا منهم وأشهدنى ملائكتك » ٠

وهكذا اهتم البديع الهمذانى بجانب المعتقدات لدى أهل السنة والمعتزلة،وناقش المعتزلة فى بعض آرائهم ، إلا أنه كان متحاملا عليهم كثيرا ، معنفا اياهم ، حيث وصفهم بالكفر ، وأنهم أعداء الله ، وأخبث من الخبث ، وأن ابليس عنده مفضل عليهم ٠٠٠ الى آخر هذه المهاترات الشديدة التى لا يجب أن يتصف بها المؤمن ، وبخاصة فى جداله ومناقشاته الدينية ٠ فكان عليه أن يناقش فقط ٠ وأن يستدل على ما يقول بالقرآن والسنة المطهرة ، وهذا ما حدث منه فعلا ٠ وهو شيء جميل يتفق مع الدين والعقل ٠ ولكن الذى لا يتفق مع الدين ولا العقل هو التطاول والتحامل الكثير منه على تلك الفئة المؤمنة ، فلكل وجهة هو موليها ٠ والله تعالى فى القرآن الكريم يقول : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »(٥١) ٠ ويقول سبحانه : « ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » (٥٢) ٠

ولكن يبدو أن تدينه وتعصبه الشديد وغيرته على الدين جعلته يدافع عنه وعن قضاياه دفاعا قويا مع حدة شديدة،لدرجة أن كان سليط اللسان والقلم مع الخصم ٠ وان كانت هذه ليست الطريقة المثلى فى المناقشة ، وبخاصة مع جماعة تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول

---

(٥١) سورة النحل الآية ١٢٥ ٠

(٥٢) سورة فصلت ٠ الآية ٣٤ ٠

الله • ولكن مع هذا نجد الدكتور مصطفى الشكعة يدافع عن الهمذانى وعن عنفه الشديد فى مناقشاته فيقول : « واذا عرفنـا أن البديع كان سنيا متعصبا ، وأكثر من ذلك أنه كان من رجال الحديث ، لم نستشعر غرابة فى الأمر ، حينما يرد على المعتزلة بهذه الحجج المصحوبة بالعنف الشديد والنكر الحانق » (٥٣) •

وقد دعته هذه العاطفة الدينية الشديدة لأن يدعو فى مقامتين من مقاماته الى طاعة الله عز وجل والتنفير من الدنيا والعمـل للآخـرة ، فهى خير وأبقى • هاتان المقامتان هما :

« المقامة الوعظية (٥٤) — والمقامة الأهوازية » (٥٥) •

ففى المقامة (الوعظية) : يقدم البديع الموعظة للناس على لسان أبى الفتح الاسكندرى فيقول : « يأيها الناس : انكم لم تتركوا سدى، وان مع اليوم غدا ، وانكم واردو هـوة ، فأعدوا لها ما استطعتم من قوة ، ان بعد المعاش معادا ، فأعدوا له زادا ، ألا لا عذر فقد بينت لكـم المحجة ، وأخـذت عليكم الحجـة ، من السـماء بالخبر ، ومن الأرض بالعبر ، ألا وان الذى بدأ الخلق عليما ، يحيى العظام رميما ، ألا وان الدنيا دار جهاز وقنطرة جواز ، من عبرها سلم ، ومن عمرها ندم ••• » الى أن قال فى آخر هذه المقامة الطويلة ، التى تداخل فيهـا الشعر مع النثر ، دفعا للسأم ، واستدرارا للنشاط من أجل الموعظة • « زينوا العلم بالعمل ، واشكروا القدرة بالعفو ، وخذوا الصفو ودعوا الكدر ، يغفر الله لى ولكم » • ثم عرف بنفسه — كمـا هى عادته فى أغلب المقامات — فى صورة رمزية هى عين الموعظـة • يقول عيسى ابن

---

(٥٣) بديع الزمان الهمذانى ص ٣٦١ •

(٥٤) مقامات الهمذانى ص ١٣٠ •

(٥٥) مقامات الهمذانى ص ٥٥ •

هشام : فقلت : من أنت يا شيخ . فقال: .. أنا أبو الفتح الاسكندرى .
فقلت حفظك الله ، فما هذا الشيب ؟ فقال :

نزير ولكنــه ســاكت وضيف ولكنه شــامت
واشخاص موت ولكنه الى أن أشــيعه ثابت

وفى المقامة (الأهوازيه) : يتحدث عيسى بن هشام عن رفقــة اجتمع بهم فى الأهواز ، ودار الحــديث بينهم عن السرور والشراب والأنس والحظ ، وأرادوا أن يقضوا وقتا كى يتعاطوا فيه ما يريدون ، وبينما هم قد عقدوا العــزم على ذلك . اذ قابلهم رجل فى طمرين — أى ثوبين باليين — وفى يمناه عكازة ، وعلى كتفه جنازة ، فتطير الشباب من رؤية الجنازة ، وأعرضوا عنها صفحا ، فصاح فيهم الرجل صيحة كادت لها الأرض تنفطر ، والنجوم تنكدر ، وأخذ فى موعظتهم وتذكيرهم بالموت والعمل للآخرة ، على غرار موعظته فى المقــامة الوعظية ، كمــا أنبهم على تطيرهم ، واعراضهم عن الجنازة ، فقال لهم : « لترونهــا صفرا ، ولتركبنها كرها وقسرا ، مالكم تطيرون من مطية ركبها أسلافكم ، وسيركبها أخلافكم ، وتتقذرون سريرا وطئه آباؤكم ، وسيطأه أبناؤكم ، أما والله لتحملن على هذه العيدان الى تلكم الديدان ، ولتنقلن بهــذه الجياد الى تلكم الوهاد . ويحكم تطيرون كأنكم مخيرون ، وتتكرهون كأنهم منزهون ، هل تنفع هذه الطيرة يافجرة ؟ ... » .

وأخذ يعظهم ويذكرهم بالموت ويقول لهم « فليكن الموت منكم على ذكر ، لئلا تأتوا بنكر ، فانكم اذا استشعرتموه لم تجمحوا ، ومتى ذكرتموه لم تمرحوا ، وان نسيتموه فهو ذاكركم ، وان نمتم عنه فهو ثائركم ، وان كرهتموه فهو زائركم » .

وهكذا اهتم الهمذانى بالوعظ وتقديم النصيحة والأخــذ بيــد

الناس الى التوبة والطاعة والعمل الصالح • فـ « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » •

وهذه المقامة والتى قبلها ، وكذا المقامة (المـارستانية) تدل كل منها على أن مقامات الهمذانى لم تقتصر على الكدية ، أو على الوصف والمدح والهجاء والأدب والنقد •• وما الى ذلك من الموضوعات وانمـا طرق بها الموضوعات الدينية أيضا ، ودعا الى الله على بصيرة ، وجادل المذاهب الدينية فى المسائل التى تستحق الجدال وصولا الى الحقيقة ، والى ما يرضى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم •

ثانيا : الفكاهة فى المقامات :

اذا كان البديع قد عالج موضوعات شتى فى مقاماته فانه بفطنته وذكائه لم يهمـل جانب الفكاهة فى تلك المقـامات كنـوع من التسلى والتسرى والاضحاك ، أى أنه وازن بين الجد والهزل فى مقاماته ، وأعطى كل جانب ما يستحقه من التعبير ، وهذا مما زاد به على ابن دريد فى أحاديثه •

وعلى الرغم من اشاعة جو الفكاهة والمرح فى أغلب مقاماته ، الا أنه عمد الى اقتراع الضحك عمدا فى بعضها • كما هو الحال فى المقامة (الحلوانية) (٥٦) التى يحدثنا فيها عيسى بن هشام : أنه لمـا رجع من الحج ، ونزل حلوان ، وجد شعره طويلا وبدنه قد اتسخ ، فطلب من غلامه أن يبحث له عن حمام وحجام ، ووصف له كلا منهمـا بأن يكون الحمام واسعا نظيفا ، طيب الهواء ، معتدل المـاء ، وأن يكون

---

(٥٦) الحلوانية : نسبة الى حلوان • وهو اسم يقع على بلدتين : الأولى فى مصر والاخرى فى آخر حدود السواد مما يلى الجبـال من بغداد وهى المقصودة هنا •

انظر : مقامات الهمذانى ص ١٧١ •

الحجام : « خفيف اليد ، حديد الموسى ، نظيف الثياب ، قليل الفضول » . فخرج الغلام ليبحث عن الحمــام ، ثم عاد بعــد وقت ، وقال له : « قد اخترته كما رسمت » .

يقول ابن هشام : « فأخذنا الى الحمام السمت — أى الجهة — وأتيناه فلم نر قوامه — أى القائم على شئونه — لكن دخلته ودخــل على أثرى رجل ، وعمد الى قطعة طين فلطخ بها جبينى ، ووضعها على رأسى ، ثم خرج ودخل آخــر ، فجعل يدلكنى دلــكا يكد العظــام ، ويغمزنى غمزا يهد الأوصال — أى المفاصل — ويصفر صــفيرا يرش البزاق ، ثم عمد الى رأسى يغسله ، والى المــاء يرسله ، وما لبث أن دخــل الأول فحيا أخــدع الثــانى بمضمومة قعقعت أنيــابه وقال : يالكع مالك ولهذا الرأس وهو لى ؟ ثم عطف الثانى على الأول بمجموعة هتكت حجــابه ، وقال : بل هــذا الرأس حقى وملكى وفى يدى ، ثم تلاكما حتى عييا — أى تعبا — وتحاكما لمــا بقى ، فأتيا صاحب الحمام ، فقال الأول : أنا صاحب هذا الرأس ، لأنى لطخت جبينه ، ووضعت عليه طينه ، وقال الثانى : بل أنا مالكه ، لأنى دلكت حامله ، وغمزت مفاصله ، فقال الحمامى : ائتونى بصاحب الرأس أسأله ، ألك هــذا الرأس أم له ، فأتيانى وقالا : لنا عندك شهادة فتجشم — أى تحمل السير للشهادة — فقمت وأتيت شئت أم أبيت ، فقال الحمامى : يارجل! لا تقل غير الصدق ، ولا تشهد بغير الحق ، وقل لى : هــذا الرأس لأيهما ؟ فقلت : — ياعافاك الله — هذا رأسى ، قد صحبنى فى الطريق ، وطاف معى بالبيت العتيق ، وما شككت أنه لى ، فقــال لى : اسكت يافضولى ، ثم مال الى أحد الخصمين فقال : ياهذا ! الى كم هــذه المنافسة مع الناس ، بهذا الرأس ، تسل عن قليل خطره ، الى لعنــة الله وحر سقره ، وهب أن هذا الرأس ليس ، وأنا لم نر هذا التيس .

قال عيسى بن هشام : فقمت من ذلك المكان خجلا ، ولبست الثياب وجلا ، وانسللت من الحمام عجلا ، وسببت الغلام بالعض والمص ، ودققته دق الجص ، وقلت لآخر : اذهب فأتنى بحجام يحط عنى هذا الثقل ، فجاءنى برجل لطيف البنية ، مليح الحلية ، فى صورة الدمية ، فارتحت اليه ، ودخل فقال : السلام عليك ، ومن أى بلد أنت ؟ فقلت : من (قم) ، فقال : حياك الله : من أرض النعمة والرفاهة ، وبلد السنة والجماعة . ولقد حضرت فى شهر رمضان جامعها ، وقد أشعلت فيها المصابيح ، وأقيمت التراويح ، فما شعرنا الا بمد النيل ، وقد أتى على تلك القناديل ، لكن صنع الله لى بخف قد كنت لبسته رطبا فلم يحصل طرازه على كمه ، وعاد الصبى الى أمه بعد أن صليت العتمة واعتدل الظل . ولكن كيف كان حجك ؟ هل قضيت مناسكه كما وجب ، وصاحوا : العجب ، العجب ؟ » .

يقول عيسى بن هشام ، ضائقا ذرعا بهذا الجهل والفضول : « فنظرت الى المنارة وما أهون الحرب على النظارة ، ووجدت الهريسة على حالها ، وعلمت أن الأمر بقضاء من الله وقدر ، والى متى هذا الضجر ؟ واليوم وغد والسبت والأحد ، ولا أطيل ، وما هذا القال والقيل ؟ .

فيقول الحجام : « ولكن أحببت أن تعلم أن المبرد فى النحو حديد الموسى ، فلا تشتغل بقول العامة ، فلو كانت الاستطاعة قبل الفعل لكنت قد حلقت رأسك ، فهل ترى أن نبتدىء ؟

قال عيسى بن هشام : فبقيت متحيرا من بيانه فى هذيانه ، وخشيت أن يطول مجلسه ، فقلت : الى غد ان شاء الله ، وسألت عنه من حضر ، فقالوا : هذا رجل من بلاد الاسكندرية ، لم يوافقه هذا الماء ، فغلبت عليه السوداء ، وهو طول النهار يهذى كما ترى ،

ووراءه فضل كثير ، فقلت : قـد سمعت به ، وعـز على جنـونه ، وأنشأت أقول :

أنا أعـطى الله عهـدا محكما فى النـذر عقـدا
لا حلقت الرأس ما عشـت ولو لاقيت جهـدا »

وهكذا يرسم البديع الهمذانى صورة الحمامى والحجام ، بأسلوب ساخر فكه ، يدعو الى الاضحاك من القلب .

فهو فى الحمام فريسة بين رجلين . أحدهما يلطخ جبينه ورأسه بالطين . والآخر يدلكه تدليكا يكد عظامه ، ويهد أوصاله . ولم ينته الأمر عند ذلك ، بل يختلف الرجلان على رأسه ، كل يدعى أنها له ، ويطلب صاحب الحمام شهادة ابن هشام ، وكان على ابن هشام أن يذكر له من من الرجلين بدأ أولا بالغسيل والتدليك . ولكن ابن هشام — مع فطنته لذلك — سار فى درب الفكاهة والسخرية ، وجاراهم فيما يقولون ويسخرون ، فقال ابن هشام : « هذا رأسى ، قد صحبنى فى الطريق ، وطاف معى بالبيت العتيق ، وما شككت أنه لى » .

ولكن صاحب الحمام لم تعجبه هذه الشهادة ، واعتبرها نكرا من القول وزورا ، فنهره وقال له : « اسكت يافضولى » . أى أن ما تقوله من باب الفضول والتزوير ، وليس الشهادة الحقيقية . ثم مال صاحب الحمام الى أحد الخصمين يهدىء من روعه ويلطف من ثورته ، مفهما اياه أن هذه الرأس لا تساوى المنافسة عليها ، فليأخذها الخصم الآخر ، وعليه لعنة الله وحر سقر . ثم قال له الحامى : « وهب أن هذا الرأس ليس ، وأنا لم نر هذا التيس » يفترض أنهم لم يروا هذا الرأس ولا هذا التيس يعنى صاحبه وهو ابن هشام . وهذا ما جعل ابن هشام خجلا ، فتسلل من الحمام على عجل وأفرغ همه فى غلامه الذى سبب له هذا الحرج ، فضربه ضربا مبرحا .

ولم ييأس ابن هشام أن يرسل نفس الغلام ليأتي له بحجام ، ولكنه أرسل غلاما غيره . فجاءه بحجام أعجبته صورته ، وغرته بنيته فارتاح اليه . ولكن ما أن ألقى السلام وبدأ الكلام حتى ظهر على حقيقتـه كغيره من الحجامين .

ولم يفت البديع أن يصـور عادة الحجامين من الفضول وكثرة الثرثرة واللغو واللغط ، والتظاهر بأنهم مثقفون يعرفون كل شيء عن كل شيء على طريقة (أبو العريف) . لدرجة يتضايق معها الزبائن ـ أعنى المرتادين .

فحين سأل الحجام ابن هشـام عن بلده وعرف أنه من مدينـة (قم) بدأت الثرثرة المبنية على الجهل والحماقة ، واستطرد الحجام فى هرائه وهذيانه ، ولم يكد ينتهى من موضوع الا ليدخل فى غيره . فذكر له أن (قم) هى أرض النعمة والرفاهة ، وسكانها من أهل السنة والجماعة وهم يقيمون فى شهر رمضان التراويح ويشعلون فى مساجدها المصابيح . وأن النيل يجرى فيها . وأن صلاة العتمة ـ أى العشاء ـ حين اعتدال الظل . وأن المبرد عالم النحو حديد الموسى ... الى آخر هذه الثرثرة التى تشف عن جهل مطبق وحماقة مرذولة ، وتخريف يغلب على أمثاله من الحجامين .

فالمعروف أن أهل (قم) من الشيعة ، وليسو من أهل السـنة والجماعة ، فلا يشعلون فى رمضان المصابيح ، ولا يقيمون التراويح . وأن النيل يجرى بأرض مصر وليس بايران ، ولا بهـذه المدينة التى يتحدث عنها وهى (قم) . وأن الصلاة التى هى عند اعتدال الظـل هى صلاة الظهر وليست العتمـة التى هى العشـاء .. وغير ذلك من فضوله وتخريفه ، حتى ضاق ابن هشام ومل حديثه ، وعرف الحجام ذلك ، فسأله قائلا : « فهـل ترى أن نبتدىء ؟ » فخشى ابن هشـام

أن يطول مجلسه وهو على حاله من الفضول • فقال له : « الى غد ان شاء الله » • وأخذ العهد على نفسه ؛ ألا يحلق رأسه ما عاش حيا ، مهما لقى من جهد فى حياته من أثر ذلك •

وهذه سمة فريدة يتميز بها البديع الهذانى فى مقاماته وهى : تصوير الكثير من جوانب المجتمع بحيث يكون الجانب الذى يصوره عاما شائعا فما حدث فى حمام ابن هشام يحدث فى كثير من الحمامات، وبخاصة فى عصر البديع ، وثرثرة حجامه على لسان كل حجام •

والذكى الأريب من الأدباء ، القصاصين من يفطن لها ، ويستطيع تصويرها ، بل يجعل منها مادة فكهة يسرى بها عن قارىء مقاماته ، وعن طريق هذه الفكاهة الحلوة والدعابة الجميلة يستطيع أن يجذب القارىء الى الاسترسال فى قراءة كل مقاماته والاستزادة من ألفاظها ومعانيها دون كلل أو ملل • وبهذا يحقق هدفه التعليمى من مقاماته فى سهولة ويسر •

ومن ذلك : مقامته (الوصية) (٥٧) التى يشيع فيها جو الفكاهة والضحك ، حيث يوصى ابنه بأن يصوم النهار وينام الليل حتى لا يأكل ولا يشرب ، ويخاف عليه من لصين : الكرم والقرم • وهو شدة الشهوة الى اللحم • فهو يوصيه بأن يكون بخيلا شحيحا على نفسه وعلى الناس ، ويقول له : « أنه المال — عافاك الله — فلا تنفقن الا من الربح وعليك بالخبز والملح ، ولك فى الخل والبصل رخصة ما لم تذمهما ، ولم تجمع بينهما » •

كما يوصيه فى نهاية المقامة بقوله:«كن مع الناس كلاعب الشطرنج، خذ ما معهم واحفظ ما معك » • وهذا دائما عمل المتسول المكدى ،

(٥٧) مقامات الهمذانى ص ٢٠٤ •

يكون حريصا على أن يأخذ ما مع الناس ويحتفظ بما معه ، ويعد كل فقرة يسبه ويسب أمه على طريقة المتفكه . يقول له : « أفهمتها ياابن الخبيثة ؟ . أفهمتها ياابن المشئومة ؟ . أفهمتها لا أم لك ؟ » ... الى آخر ما قاله فى هذه الوصية التى تنبىء عن نفسية المكدى وشحه وكيفية حرصه وطمعه فيما فى أيدى الناس مع الاحتفاظ بما معه . والقارىء لهذه المقامة لايملك نفسه من الضحك كلما قرأ جملة منها .

ومن ذلك أيضا المقامه (المجاعية) التى يتحدث فيها عيسى ابن هشام عن جوعه وغربته ، وقد كان فى بغداد عام مجاعة ، فوجد فتى لثغة بلسانه ، وفلج بأسنانه ، وعرض هذا الفتى على ابن هشام أصنافا من الطعام والشراب أحيا بها شهوات ابن هشام ، منها : حديثه عن رغيف على خوان نظيف ، وبقل وخل ونشواء وأقداح ذهبية من راح عنبية . كما عرض عليه أوساطا محشوة ، وأكوابا مملوة ولحما طريا، وسمكا نهريا وباذنجانا مقليا وراحا قطر بليا وتفاحا جنيا ، ومضجعا وطيا على مكان على ، حذاء نهر جرار ، وحوض ثرثار ، وجنة ذات أنهار » .

ومن جمال عرضه لأنواع الطعام والشراب وملاذ الحياة قال له عيسى ابن هشام : « أنا عبد الثلاثة ، فقال الفتى وأنا خادمها لو كانت » . أى أنها غير موجودة ، وانما الوصف من الخيال . فقال له ابن هشام : « لا حياك الله ، أحييت شهوات قد كان اليأس لماتها ، ثم قبضت لهاتها ؛ فمن أى الخرابات أنت ؟ فقال :

أنا من ذوى الاسكندرية ... من نبعة فيهم زكية
سخف الزمان وأهله ... فركبت من سخفى مطية »

أراد أن يفهمه فى هذين البيتين مجيبا سؤاله : بأن الزمان وأهله قد ضاعت أحلامهم وضاقت عقولهم ،فلماذا لا يكون مثلهم فيتعمد السخف

ويتصنع الجهالة ؟ وهو بذلك يسخر من الناس جميعا أو من الراوى الذى يستطرد فى الوصف له دون أن يعطية شيئا ، والراوى يلاحقه مؤملا العطاء راجيا الجود ، دون جدوى •

فالفتى المضاف يسأله فى أول الأمر عن حاله : ويجيبه عيسى ابن هشام : حالان : الجوع والغربة ، ثم يسأله عن أى الصفتين يريد سدها أولا ؟ ويجيبه الجوع الذى بلغ منه مبلغا عظيما ، ويأخذ الفتى المضاف بعد ذلك فى وصف أنواع من الأطعمة وألوان الشراب ، جعلت الضيف الجائع يسيل لعابه ، وتتلمظ شفتاه ويعطى لنفسه آمالا عريضة بأن سيفوز بهذه الأنواع والألوان من الطعام والشراب • ويقول للفتى المضاف الذى جعله بالخيار بين جميعها : أنا عبد الثلاثة • ولكن يتبين له فى نهاية الأمر أن هذا كله سراب ، وهذه الأنواع التى وصفها الفتى كلها من وصف الخيال ولا أكثر من ذلك • وأن الفتى المضاف لا يملك منها شيئا • فدعا عليه ابن هشام ، وسأله على سبيل السخرية به والاستهزاء منه . من أى الخرابات أنت ؟ • والطريف فى هذه المقامة • أن الفتى المضاف الذى تحدث عن أنواع الطعام والشراب، والتى أسال لعاب ابن هشام بها هو أبو الفتح الاسكندرى • ولو لم يتحدث عن نفسه فى هذين البيتين اللذين ورد ذكرهما فى نهاية المقامة لما عرف ، ولما كان له ذكر فيها •

وقد تعودنا فى مقامات الهمذانى أن يروى عيسى بن هشام عن أبى الفتح الاسكندرى بطل المقامات • ولكن الغريب فى هذه المقامة ألا يروى عنه عيسى بن هشام • وذلك لأن البديع جعل منه فى هذه المقامة فتى مضافا يتأمل فيه الضيف ابن هشام الكرم ويطعمه هو فى ذلك ، ثم يخيب رجاءه ويضيع أمله المنشود • وهذا ما يدعو الى الفكاهة والتسرى فى المقامة •

وهكذا فطن البديع الهمذانى الى أن الفكاهة ضرورة ملحة فى المقامات حتى يتحقق هدفه التعليمى منها فى سهولة ويسر •

ثالثا : صور من حياة المجتمع فى المقامات :

حين نتأمل فى مقامات بديع الزمان الهمذانى ومعـــانيها الكثيرة وأفكارها المتعددة نجد فيها صورا واضحة من حياة مجتمع القرن الرابع الهجرى ، وبخاصة نصفه الثانى الذى عاشه الهمذانى اذ أن المقامات تصور الكثير من جوانب ذلك المجتمع ليس فى صورة سرد تاريخى أو حديث عابر ، وانما فى صورة قصصية جادة وفكهة •

وكانت للبديع عناية فائقة فى رسم هذه الصور ، وفى تصـــوير أخلاق النـــاس فى عصره من خلالها • وكم كانت له من عنـــاية ببعض الجوانب التى قد يغفل عنهـــا كثـــير من الكتاب • فهـــو فى المقـــامة (الموصلية)(٥٨) يتحدث عن سذاجة النـــاس فى قصتين فى داخـــل المقـــامة •

فى الأولى : أوهم بطله بو الفتح الاسكندرى الناس أنه يستطيع أن يحيى ميتهم ففرحوا بذلك وانهالوا عليه وعلى صـــاحبه ابن هشام بالصلات والهبات ، وكانت النتيجـــة أنه لا يستطيع احيـــاء الموتى • فأوسعوه ضربا وسبا ، وهرب فى النهاية مع صاحبه •

وفى الثانية : أوهم النـــاس أنه يستطيع رد الســـيل عنهم الى الصحراء وطلب منهم مقابل ذلك جارية عذراء يتزوجها ، وبقرة صفراء تذبح فى مجرى السيل ، وبالطبع فقد أكل من لحمها ، وكلف النـــاس بذلك رهقا ، ولكنه فى النهاية كالعادة يستغل سذاجتهم دون جدوى ، ويتركهم ساجدين ويهرب مع صاحبه •

وهذه السذاجة وان كانت مزرية الا أنها موجودة وبكثرة ،لا فى مجتمع الهمذانى وحده ، ولكن فى كثير من المجتمعات الانسانية •

---

(٥٨) مقامات الهمذانى ص ٩٨ •

وفى المقامة (الخمرية) (٥٩) ، يعطينا الهمذانى صـــورة للذين يقولون ما لا يفعلون • وينهون الناس عن أمور هم أولى بالنهى عنها • اذ أن أبا الفتح الاسكندرى بطل مقاماته كان فى هذه المقامة اماما فى أحد المساجد يصلى بالناس صلاة الفجر ، فدخل جماعة من الســكارى المسجد للصلاة وهم فى حالة سكر ومجون غير مكترثين بحرمة الدين • فشم فيهم الامام أبو الفتح رائحة الخمر فألب الناس عليهم فأوسعوهم ضربا ولكما وســبا ، « حتى مزقت الأرديــة ، ودميت الأقفية ، وحتى أقسمنا لهم لا عدنا » •• هكذا قال السكارى ، وخرجوا من المسجد ، وسألوا عن الامام فقيل لهم : انه الرجل التقى أبو الفتح الاسكندرى فعجبوا من نسكه مع علمهم بفسقه وقالوا : « الحمد لله لقد أسرع فى أوبته ولا حرمنا الله مثل توبته » •

واستعرضوا الحانات ، وقد جعلوا (الدنيــا اماما والاســتهتار لزما) حتى وصلوا الى حانة فيها ساقية لعوب ، ذات دل وأسلوب ، فسألوها عن خمرها فقالت :

خمر كريقى فى العذوبة م واللذاذة والحــــلاوة
تذر الحليــم وما عليــه م لحلمــه أدنى طـــلاوة

وحين سألوها عن مطرب الحسان أجابت : بأنه شيخ لطيف وقور ظريف ، واســتدعته لهم ، واذا به أبو الفتح الاسكندرى الذى كان اماما ، وألب الناس عليهم فى المسجد • فلما رآهم نخر نخرة المعجب، وصاح وزمهر وضحك حتى قهقه ثم قال • ألمثلى يقال ؟ أو بمثلى تضرب الأمثـــال :

دع من اللـــوم ولــكن أى دكـــــاك تـــرانى

(٥٩) مقامات الهمذانى ص ٢٣٨ •

أنــا من يعــرفه كــل م تهـــام ويمــــانى
أنــا من كــل غبــــار أنا من كل مـــكان
ســاعة ألزم محــرابا م وأخــرى بيت حـــان
وكذا يفعل من يعقــل م فى هــذا الزمــــان

قال عيسى بن هشام : « فاستعذت بالله من مثــل حاله ، وعجبت لقعود الرزق عن أمثاله » •

ولا يعنى ذلك أن كل امام مثــل أبى الفتح الاسكندرى ، ولكنه يريد أن كثيرا من الناس لا يأبهــون بأوامر الله ونواهيه ، ويعيشون حياتهم مستهترين لا يبالون •

وأكثر من ذلك أن البديع يرسم بعض الصــور للانحلال الخلقى فى بعض مقاماته ، كالمقامة (الشامية) التى حذفها عدد غفير من ناشرى المقامات الهمذانية لما حوت من ألفاظ الاباحية والفحش ، ولأن حذفها أولى من نشرها • اذ أنها تحكى قصة رجل تزوج من امرأتين لم يوفق معهما ولم توفقا معه فذهبتا الى القاضى تطلبان الطلاق ، فاستجوب القاضى الزوج ، ثم الزوجتين ، وتحدث البديع على لسانهم بكلام يعف الباحث أو الناشر أن يذكره •

وليس ذلك فى المقامة الشــامية فحسب • بل أيضا فى المقــامة (الرصافية) • اذ أن البديع ذكر فى نهايتها قصة مفحشة لأمر حدث بين شــيخ وغلام ، حذفها الشيخ محمد عبده فى شرحه لمقامات البديع الهمذانى • وكتب فى نهاية المقامة : « وأتى ــ أى الهمذانى ــ بقصة لأبى الفتح الاسكندرى حذفناها لعدم الفائدة فيها مع وجود ألفــاظ تنافى آداب هذه الأيام » (٦٠) •

---

(٦٠) مقامات بديع الزمان الهمذانى ص ١٦٣ • شرح الشيخ محمد عبده ط ٢ • دار المشرق ـ بيروت ١٩٨٦ •

وفى نهاية المقامة (الشرازية) (٦١) يشـكو أبو الفتح لعيسى بن هشام من زوجته العاقة التى شقى بها • فقال ابن هشام : هلا سرحت واسترحت ؟ فأنشد الاسكندرى أبياتا من الشعـر المفحش أنكرها الامام محمد عبـده وقال فى نهاية المقـامة : « قال كاتب المقـامات : فأشار اشارة أنكرتها وأنشد أبياتا حفظتها وما نقلتها » (٦٢) •

ولم يتوقف الأمر على تصوير الانحلال الخلقى فى مجتمع القـرن الرابع الهجرى ، بل تحدث الهمـذانى عن كثـير من الجوانب فى هذا المجتمع • فتحـدث عن اللصـوص وعن أنواعهم وأعدادهم وحيلهم وأعمالهم ، كما هو الحال فى المقامة « الرصافية » (٦٣) التى ذكر فيها أكثر من ثمانين نوعا من اللصوص : « منهم . أهل الكف والقف ، ومن يعمل بالطف ، ومن يحتال فى الصف ، ومن يخنق بالدف ، ومن يكمن فى الرف ••• » الى آخر هذه الأنواع من اللصوص •

بل أن البديع ذكر اللصوص وتحدث عنهم فى كثير من مقاماته ، وهذا ان دل على شىء فانما يدل على أن البديع كان عدسـة لاقطـة لم يترك شيئا الا وتحدث عنه ، ورسم صورته • وهـذا ما حـدا بالدكتور مصطفى الشكعة الى أن يقول : « ومجمل القول أن مقامات بديع الزمان تعتبر من الوثائق التاريخية التى تعطينا فكرة صريحة عن الحياة الاجتماعية فى زمانه وأحوال العصر وأخلاق الرجال » (٦٤) •

---

(٦١) مقامات الهمذانى ص ١٦٧ •

(٦٢) مقامات بديع الزمان الهمذانى ص ١٧٠ • شرح الشيخ محمد عبـده •

(٦٣) مقامات الهمذانى ص ١٥٧ •

(٦٤) بديع الزمان الهمذانى ص ٣٨٨ ، ٣٨٩ •

رابعا : الأسلوب :

لم يكن بديع الزمان الهمذانى كاتبا عاديا فى عصره ، ولكنه كان كاتبا وشاعرا من طراز رفيع ، وأكبر الدلائل على ذلك أنه بذ أساتذه له فى فنون الأدب وعلوم اللغة ، ويكفى أنه تفوق على الخوارزمى فى الرسائل ، وعلى ابن دريد فى فن المقامات ، لدرجة أن كثيرا من المؤلفين والدارسين لا يعلمون أحدا له فضل السبق فى فن المقامات سوى الهمذانى • وقد فتن بذلك الأستاذ محمد كرد على فقال : « لو ادعى مدع أن الكتابة ما ختمت بابن العميد — كما قالوا — بل بالهمذانى ، لكان حقا وصدقا » (٦٥) •

وجعل الدكتور مصطفى الشكعة مقامات الهمذانى فتحا جديدا للمؤلفين والأدباء من كتاب القصة العربية ينسجون على منوالها ويترسمون خطاها ، فقال : « ولا شك أن مقامات بديع الزمان تحفة رائعة من تحف الأدب العربى وفتح جديد فى محاولة كتابة القصة العربية ، وقد نسج على منواله عشرات من المؤلفين والأدباء الذين جاءوا فى عصور تليه ، مترسمين خطاه فى الطريقة والسياق ، وان نوعوا أحيانا فى الموضوعات والأغراض »(٦٦) •

ولاشك أن ذكاء البديع ومقدرته اللغوية وقدرته على التعبير بأسلوب يجمع بين هدف ابن دريد من أحاديثه — أى التعليم والتثقيف اللغوى — وبين هدفه هو من اقامة القصة وما تتضمنه من الحوار الواضح بين بطل مقاماته وراويه ، وبين البطل والناس الذين يذهب اليهم مكتديا شاكيا الحال طالبا النوال بأسلوب أدبى مؤثر يشبه السحر بل هو أكثر • ذلك كان له أثره البالغ فى نفوس كتاب الأدب وقرائه على مدى العصور الأدبية جميعا •

---

(٦٥) كنوز الاجداد ص ١٨١ طبعة دمشق •
(٦٦) بديع الزمان الهمذانى ص ٣٦٧ •

لكن قدرة البديع على التعبير وفطنته الى ما يجب لكل موضوع من المعانى والألفاظ والاسلوب المعبر جعلته لا يسلك طريقا تعبيريا واحدا ، وانما جعل لكل موضوع مايناسبه،أى أنه قسم كلامه بين الرقة والعذوبة، وبين التعقيد والاغراب الشديد ، فهو كما يقول الدكتور الشكعة : « يكيل بكيلين ويكتب بقلمين » (٦٧) • فهو فى أحيان كثيرة يترك لفكره وقلمه العنان فيعبر فى وصفه للشىء بألفاظ غريبة ومعان عجيبة كأنه ينتقيها ليدلل بها على تفوقه على ابن دريد • ومن ذلك وصفه للنهيدة فى المقامة (النهيدية) (٦٨) فيقول متحدثا الى الفتيان الذين أخبروه بأنهم لم يذوقوا الطعام منذ ثلاث ليال • قال لهم بعد أن تنحنح : « فما رأيكم يافتيان فى نهيدة فرق كهامة الأصلع فى جفنة روحاء مكللة بعجوة خيبر من أكتار جبار ربوض ، الواحدة منها تملأ الفم ، من جماعة خمص عطش خمس يغيب فيها الضرس ، كأن نواها ألسن الطير يجحفون فيها النهيدة ، مع أقعب قد احتلبن من الجلاد الهزمية الربلية ••• » •

وحين يصف الفرس فى المقامة (الحمدانية) (٦٩) يقول موجها الكلام الى سيف الدولة الحمدانى الذى طلب منه وصف الفرس : « وهو طويل الأذنين ، قليل الاثنين ، واسع المراث ، لين الثلاث ، غليظ الأكراع ، غامض الأربع ، شديد النفس ، لطيف الخمس ، ضيق القلت ، رقيق الست ، حديد السمع ، غليظ السبع ، دقيق اللسان ، عريض الثمان ، مديد الضلع ، قصير التسع ، واسع الشجر ، بعيد العشر ••• » الى آخر الوصف •

---

(٦٧) المرجع نفسه ص ٣٦٥ •
(٦٨) مقامات الهمذانى ص ٧٦٦ •
(٦٩) مقامات الهمذانى ص ١٥١ •

وهكذا فى كثير من مقاماته وبخاصة التى ترك لقلمه فيهـا العنان بحثا عن غريب اللغة وحوشيها • اذ أنه كان يغرب فى بعض ألفاظه ، ثم يضطر الى شرح الغريب منها على طريقة أساتذة اللغة ، ولعل هذا هو الذى دعا بعض الدارسين لأن يقول : « ان المقامات لا يستفاد منها سوى التمرن على الانشاء ، والوقوف على مذاهب النظم والنثر»(٧٠)•

ويقول الدكتور شوقى ضيف ، متحدثا عن اهتمام الهمذانى بفنون البديع والغريب من ألفاظ اللغة وحشده الكثير منها : « وأنت ترى أن بديع الزمان يعنى عناية واضحة برصف أسجاعه مضـيفا عليها ألوانا من البديع وخاصة من الجناس والتصوير ، اذ كان يهتم بهما اهتماما واسعا ، كما يهتم بشىء آخر وهو كثرة حشده للغريب فى مقاماته •• حتى اذا استوفى من ذلك ما يريد ، عاد فشرح لفظه كأنه أسـتاذ من أساتذة اللغة لا أديب ينشىء قصة ، وهذا نفسه أحد الأدلة على أنه لم يرد بكثير من مقاماته الى غاية قصصية خالصة ، انما أراد بها الى غاية تعليمية ، وقد أدته هذه الغاية الى أن يكثر من الأساليب المصنعة ، كما أدته الى أن يكثر من اللفظ الغريب » (٧١) •

ثم يؤاخـذه الدكتور ضـيف على كثرة اهتمـامه بالمعتاص من الكلمات الغريبة فيقول : ونحن لا نلوم البديع على اهتمامه بالاستعارات ، لأنها كانت احدى زخارف مذهب التصنيع ، ولكن نلومه على اهتمامه بالكلمات المعتاصة الغريبة غير المسموعة ، فان اغراب الكلمات من حيث هو لا يمكن أن يعتبر زخرفا أو تجميلا وتصنيعا ، بل انه يعتبر عيبا وآفة حين يحتكم اليه الكاتب فى فنه ، وما الجمال الذى يستهويه فيـه ؟

---

(٧٠) الفخرى فى الآداب السـلطانية لابن الطقطقـى ص ١٠ - طبعة المطبعة الرحمانية •

(٧١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٢٥٢ •

انه يخلو من كل جمال ، وانه لدليل على أن وسائل الأداء فى النثر أخذت تتعقد منذ البديع ، اذ يجنح الكاتب الى وسائل لا تتصل بالفن ، وانما تتصل بالاغراب من حيث هو ، ومن أجل ذلك كنا نزعم أن بديع الزمان — على الرغم من أنه علم من أعلام التصنيع — أخذ التصنيع يتسرب الى آثاره ونماذجه فى رسائله ومقـامانه ، وهل أدل على ذلك من أنه كان يتخذ اللفظ الغريب كطرفة فنية يعيب بها الجاحظ وغـيره من سابقيه ؟

وحقا : انه لم يطبق ذاك على كل مقـاماته ، ولا كل جوانبها ، ولكنه على كل حال عنى به فيها ، كما عنى به فى رسائله » (٧٢) .

فعلا انه لم يطبق ذلك أى استخدامه للغريب من ألفاظ اللغة فى كل مقاماته ، ولكنه الى جانب ذاك كان يتحدث فى الكثير منهـا بلغة رقيقة سهلة عذبة .

فهو فى المقامة (الوعظية) (٧٣) يتحدث بلغة سهلة رقيقة مفهومة، وكأنه بذكائه الحاد فطن الى أن الموعظـة — عادة — تكون للعـامة والخاصة ، فراعى فيها المستوى الثقافى لجميع الناس حتى تكون المنفعة أشمل وأعم ، فيقول : « أيها الناس : انكم لم تتركوا سدى ، وان مع اليوم غدا ، وانكم واردوهوة فأعدوا لها ما استطعتم من قوة ، وان بعد المعاش معادا فأعدوا له زادا ، ألا لا عذر فقد بينت لكم المحجـة وأخذت عليكم الحجة من السماء بالخبر ، ومن الأرض بالعبر ، ألا وان الذى بدأ الخلق عليما ، يحيى العظام رميما ، ألا وان الدنيا دار جهاز ، وقنطرة جواز ، من عبرها سلم ، ومن عمرها ندم ... » الى آخـر مواعظـه .

---

(٧٢) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٢٥٣ .
(٧٣) مقامات الهمذانى ص ١٣٠ .

وحين يتحدث عن كرم الأسود بن قنان فى المقامة «الأسودية»(٧٤)، يقول بكلام سهل عذب رقيق يناسب كرم الضيافة والجود . لأن الكريم بماله ، كريم فى لفظه . فحين قال له الرجل الذى نزل عليه يطلب الأمن والقرى : « يافتى العرب أدتنى اليك خيفة ؛ فهل عندك أمن أو قرى ؟ قال : بيت الأمن نزلت ، وأرض القرى حللت ، وقام فعلق بكمى ، فمشيت معه الى خيمة قد أسبل سترها ، ثم نادى يافتاة الحى ، هذا جار نبت به أوطانه ، وظلمه سلطانه . وحداه الينا صيت سمعه ،أو ذكر بلغه ، فأجيريه ؛ فقالت الفتاة : اسكن ياحضرى :

أيا حضرى اسكن ولاتخشى خيفة	فأنت ببيت الأسود بن قنان
أعز ابن أنثى من معد ويعرب	وأوفاهم عهدا بكل مكان
وأضربهم بالسيف من دون جاره	وأطعنهم من دونه بسنان
كأن المنايا والعطايا بكفه	سحابان مقرونان مؤتلفان
وأبيض وضاح الجبين اذا انتمى	تلاقى الى عيص أغر يمانى
فدونكه بيت الجوار ومنعة	يدلونه شمعتهم بثمان

وهكذا يعبر الهمذانى بأسلوبين مختلفين فى مقاماته ليدل بذلك على أنه يستطيع الأمرين معا . وأن مواطن الرقة يناسبها تعبير عذب رقيق ، ومواطن الغلظة يناسبها تعبير غليظ بألفاظ غريبة ومعان عجيبة .

كذلك يلاحظ على البديع الهمذانى اهتمامه بفنون البديع اللفظية التى هى من أنواع الزينة والزخرف فى الكلام والتعبير . فهو قد طابق وقابل وجانس كثيرا ؛ ولكن الأكثر من ذلك كله اهتمامه بالسجع وتقسيم الجمل والفقرات . وهذا واضح فى كل مقاماته — تقريبا — فلا يحتاج الى مثال للتدليل عليه ، وانما الشواهد واضحة بينة فى جميع المقامات .

---

(٧٤) مقامات الهمذانى ص ١٣٨ .

وهو بذلك يفطن الى الذوق العربى ، وما تألفه الآذان العربيـة من موسيقى عذبة شجية تأتى من الشعر العمودى ، وكذا من السجع وبقية فنون البديع فى النثر الفنى • ولذلك اعتبره الدكتور شوقى ضيف مقدمة من مقدمات التصنيع بل أحـد أسـاتذته فى عصره حيث يقول : « وما من ريب فى أن هذه الجوانب كلها ـ يقصـد فنـون البديع ـ عند البديع هى التى تجعلنا نزعم أنه كان مقـدمة من مقدمات مذهب التصنيع ، وليس معنى ذلك أنه يخرج عن مذهب التصنيع واطاره ، بل هو أحد أساتذته فى عصره ؛ حتى لتشبه المقامة من مقاماته واجهـة أحد المساجد المزخرفة لعهـده لكثرة ما شـغل فيه بالتنميق والتصنيع والترصـيع »(٧٥) •

ولما كان الهمـذانى شـاعرا مجيدا فقـد نضحت شـاعريته على مقاماته ، فورد ذكر أبيات كثيرة من الشعر فى مقاماته اما من نظمـه هو ، واما مقتبسة من شعر غيره ، تناسب الحـال والمقام فى المقـامة التى اقتبس فيها • ولكننـا لا نستطيع أن نعمـم القول مثلما عممـه الدكتور مصطفى الشكعة الذى يرى أن مقامات البديع جميعها لا تخلو من أبيات لا يقل عن خمسة فيقول : « وليست هناك مقامة تخلـو من أبيات تقل عن خمسة فى المتوسط ؛ وتزداد فى البعض الآخر حتى تربو على العشرين • وأكثر هذه الأشعار ذكرت فى غرض واحد ، ولمناسبة واحدة هى الكدية »(٧٦) •

فبعد النظر والتمحيص وطـول التأمل فى مقـامات الهمـذانى الـ « احدى وخمسين مقامة » المتداولة بين الدارسين والباحثين،وجدنا ثمانى مقامات منها لم يذكر فيها أى بيت من الشعر ، وهذه المقـامات

(٧٥) الفن ومذاهبه ص ٢٥٤ •
(٧٦) بديع الزمان الهمذاني ص ٣٦٣ •

الثمان هى : السجستانية والرصافية والشيرازية والنهيدية والوصية والصيمرية والدينارية والمضيرية •

على أن المقامة الأخيره ــ أعني المضيرية ــ ورد فيها قبل نهايتها عجز بيت من الشعر هو : فهل أنا فى ذا يا آل همذان ظالم ؟

وصدره هو : وكنت اذا قوم غزونى غزوتهم •

والواضح أن البديع لم يرد البيت كاملا ، انما أراد ما يوافق منه المعنى المراد فى المقامة • والا لذكر البيت كاملا •

وفى كل من المقامتين (الأهوازية والصفرية) بيت واحد من الشعر • وفى كل من المقامتين (البغدادية والأصفهانية) بيتان من الشعر • وفى المقامة (التميمية) ثلاثة أبيات من الشعر • وفى المقامة (السارية) أربعة أبيات من الشعر •

وهكذا كانت أغلب المقامات الهمذانية تتضمن أبياتا من الشعر ربما تزيد وربما تقل • ولكن التعميم فى الحكم يجعل الكلام غير دقيق فى مثل هذه الأمور •

وأما قول الدكتور الشكعة : « وأكثر هذه الأشعار ذكرت فى غرض واحد ولمناسبة واحدة هى الكدية » ففيه هو الآخر نظر ، وعليه كثير من التحفظ • لأنه بالنظر والتدقيق فى المقامات وجد أن أكثرها فى موضوعات أخرى غير الكدية • وبالطبع فان الأشعار التى تذكر فيها لابد أن تناسب الحال والمقام • ولذلك فقد وجد فيها أشعار فى المديح ، مثل الأبيات التى قيلت فى مدح خلف بن أحمد الأمير فى المقامة الخليفة ، والأبيات التى أنشدتها فتاة الحى لأبى الفتح الاسكندرى تمدح فيها رجل البادية صاحب القرى • وفيها أشعار كثيرة فى الوعظ والنصيحة والتنفير من الدنيا ؛ كما فى المقامة (الوعظية) والمقامة

(المارستانية) وغيرها من المقامات التي حوت أبياتا من الشعر فى مثل هذه الموضـــوعات •

على أن شعر هذه الموضوعات وان كان يمت الى الكدية بصـــلة ، الا أنه فى أغراض أخرى غير الكدية ولم يكن صريحا فى الكدية •

كما فيها أبيات فى الهجاء ، مثل هجاء ذى الرمة للفرزدق فى المقامة « الغيلانية » وفيها أبيات فى الوصف مبثوثة فى كثير من المقامات •• الى غير ذلك من الشعر الكثير الذى يعبر عن أغراض كثيرة غير الـــكدية سواء أكان الشعر من نظم البديع الهمذانى أو من اقتباسه •

واذا كان الشعر الذى ينشده بديع الزمان فى مقاماته — سواء له أو لغيره — يوافق المعنى المطروق فى المقامة • فان المقامات قد تضمنت معانى كثيرة الى جانب الكدية • والشعر قد تضمن هذه المعانى كما تضمن معنى الكدية•والدكتور مصطفى الشكعة نفسه بعد كلامه السابق يقول: « ولئن غلبت الكدية على المقامات ، الا أنها حوت أغراضا أخـــرى : كالمدح والوصف والنقد والأدب والألغاز والوعظ والحجاج فى المذاهب وأحوال الزمان والفكاهة »(١) •

ولما كان البديع شاعرا مجيدا تنساب الكلمات والمعانى النثـــرية والشعرية على لسانه وهو صاحب بديهة حاضرة وذاكرة قوية • فكان يكمل الشعر بالنثر ، والنثر بالشعر كما فى قوله فى المقامة (الأسودية) :

« •• ثم نادى : فتاة الحى ، هذا جار نبت به أوطانه ، وظلمـــه سلطانه ، وحداه الينا صيت سمعه ، أو ذكر بلغه ، فأجيريه ، فقـــالت الفتاة : اسكن يا حضرى :

أيا حضـــــرى اسكن ولا تخشى خيفـــة
فـــأنت ببـــيت الأســـــود بن قنـــــان

أعــز ابن أنثى من معـــد ويعـــرب
فـــأوفاهم عهـــدا بـكل مـــكان

وقوله فى المقامة (الأذربيجانية) :

« •• وصرت لى حمى الأمن ، ووجدت برده ، وبلغت أذربيجان، وقد حفيت الرواحل ، وأكلتها المراحل ، ولما بلغتها :

نزلنا على أن المقام ثلاثة   فطابت لنا حتى أقمنا بها شهرا

وقوله فى المقامة (المغزلية) :

« •• هناك عظم وخشب ، وفيه مال ونشب ، وقيل وبعد ، فقال الفتى : نعم — أيد الله الشيخ — لأنه غصبنى على :

مرهــف ســـنانه   مذلق أســـــنانه
أولاده أعـــوانه   تفريق شمل شـــانه

وقوله فى المقامة « الوعظية » :

« وقد سمعت أن على بن الحسين كان قائما يعظ الناس ويقول : يا نفس حتام الى الحياة ركونك ، والى الدنيـا وعمارتها سـكونك ؟ أما اعتبـرت بمن مضى من أســلافك وبمن وارته الأرض من آلافك ، ومن فجعت به من اخوانك ، ونقل الى دار البلى من أقرانك ؟؟

فهم فى بطـــون الأرض بعد ظهـورها
محاســـنهم فيهـا بـــوال دواثـر
خلت دورهم منهم وأقــوت عراصــهم
وســاقتهم نحــو المنايـا المقـــادر
وخلـوا عن الدنيا وما جمعـوا لهـــا
وضـــمتهم تحت التـــراب الحفائر

غير أن الهمذانى فى هذه المقامة أتى بقصيدة طويلة ، ثم جزأها : وأدخل بين الجزء والجزء بعضا من الجمل والفقرات النثرية التى تتفق مع الأبيات فى المعنى والموعظة ولا تند عن السياق •

كما يلاحظ على الهمذانى فى مقاماته أيضـــا : أنه كثير الاقتبـــاس والاستشهاد فى هذه المقامات ، لا من الشـــعر فقط ، ولكن أيضـــا من القرآن الكريم والحديث الشريف ، والحكم والأمثال العربية • ومن ذلك قوله فى المقامة المارستانية : « ان الخيرة لله لا لعبده ، والأمور بيد الله لا بيده ، وأنتم ـــ يا مجوس هذه الأمة ـــ تعيشون جبرا ، وتموتون صبرا ، تساقون الى المقادور قهرا ، و « لو كنتـــم فى بيوتكم لبـــرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم » •

ويتحدث فى المقامة نفسها الى الذين يعظهم على سبيل التـــوبيخ والتقريع لهم مستشهدا بالقرآن الكريم والحديث الشريف : « فليخزكم أن القرآن بغيضكم ، وأن الحديث يغيظكم ، اذا سمعتم : «من يضلل الله فلا هادى له » ألحدتم ، واذا سمعتم « زويت لى الأرض ، فأريت مشارقها ومغاربها » جحدتم : واذا سمعتم : « عرضت على الجنة حتى هممت أن أقطف ثمارها ، وعرضت على النار حتى اتقيت حرها بيدى » أنغضتم رؤوسكم ، ولويتم أعناقكم » •

وفى المقامة نفســها يذكر شيئا من الحـــكم التى هى على ســـبيل المحاجة انكارا لقولهم · « وتقولون : خالق الظلم ظالم ، أفلا تقولون : خالق الهلك هالك ؟ » •

يذكر فى المقامة الجاحظية أمثالا عربية تجرى مجرى الحكم فيقول « يا قوم لكل عمل رجـــال ، ولكل مقام مقـــال ، ولكل دار ســـكان ، ولكل زمان جاحظ •• » الى آخره •

وغير ذلك كثير من آيات القــرآن الــكريم ، ومن المأثورات التى ذكرها فى مقاماته على سبيل الاقتباس أو الاستشهاد •

وأخيرا : من الملاحظات على أسلوب البديع وطريقته فى صــياغة مقــاماته أنه لزم صــيغة واحــدة فى بداية كل مقــامة من مقــاماته جميعها • وهى قوله : « حدثنا عيسى بن هشام قال ••• » لم ينــوع فى هذه البدايات ولم يغــير فى صياغتها ، وانما هى صيغة ثابتة فى كل مقاماته •

وهذه الصيغة « حدثنا فلان قال » أو « حدثنا فلان عن فلان عن فلان قال » كان يبدأ بها من قبل البــديع رواة الأحــاديث النبــوية والأسانيد اللغــوية والتاريخية ومنهم ابن دريد الذى سبق البــديع بأحاديثه الأربعين والتى تبدأ بهذه الصيغة الثابتة • غير أن أبا بكر بن دريد لم يكن راوى أحاديثه واحد ، وانما كان يبدأ حديثــه أحيانا بقــوله : « أخبرنا عبد الرحمن عن عمه ••• » وأحيانا : « أخبرنا » ويذكر غير عبد الرحمن وغير عمه •

وأحيانا يقول : « أخبرنا عبد الرحمن عن عمه عن ••• » ويذكر من روى عنه عم عبد الرحمن الحديث • أى أنه نوع فى ذكر الراوى، لأن راوى أحاديثه ليس واحدا • وفى هذا ما يدل على أن أحاديثه لم تكن من انشائه ، وانما كانت من محفوظه نقلا عن غيره ، وليس فيهــا حوار ولا قصة ، اللهم الا فى القليل منها • وأغلبها يدور حول الوصف والحكم ، وهو فيها يعنى باللغة التى يقوم أبو على القالى بتفســيرها وبيــان مفرداتها •

ونستطيع القول بأن البديع فى هذه الصيغة كان مقلدا ولم يــكن مجددا بدليل أسبقية غــيره له وبخاصــة ابن دريد • وهــذا ما رآه الدكتور شوقى ضيف أيضا حيث يقول : « وهو — أى البديع — يبدأ

كل مقامة بهذه الصيغة الثابتة : « حدثنا عيسى بن هشام قال » وهى تدل دلالة قاطعة على أنه حين حاول تأليف هذه المقامات كان فى ذهنـــه أن يقلد طريقة الرواة ، بل بعبارة أدق كان فى ذهنه أن يقلد ابن دريد فى أحاديثه • فابن دريد يبدأ أحاديثه دائما بالسند •• ويقلده فى ذلك البديع ، ولكنه لم يجر أحاديثه أو مقاماته فى سند مكذوب على شاكلة الأسانيد اللغوية والتاريخية المكذوبة ، انما أجراها فى سنده الخـــاص الذى أنشأه لنفسه واخترعه اختراعا »(٧٧) •

وهكذا كان البديع فى مقاماتـــه ، قد تنوع فى موضـــوعاته وعنى عناية فائقة بالفكاهة فيها ، وصاغها فى قوالب قصصية جذابة تجعـــل القارىء — مع العناء الشديد فى استيعاب الكلمات اللغوية — فى جاذبية دائمة لهذه المقامات ومعـــانيها ، كما اهتم اهتـــماما كبيرا بالصـــياغة والأساليب البلاغية ، ويعتنى بالزخرف والزينة اعتناء هاما،فاستخدم السجع والطباق والجناس والتورية ومراعاة النظير ••• وما الى ذلك من فنون البديع التى توحى للقارىء بأن الهمذانى كانت غايتـــه من مقاماته الترصيع والتجميل أكثر من الوصف والحوار •

كما أنه كان يغرب فى بعض ألفاظه ، ثم يضطر الى شرح الغريب منها على طريقة أحاديث ابن دريد التى كان أبو على القالى يضـــطر الى تفسيرها وشرح مفرداتها •

وقد بلـــغ من اهتمام البديـــع بالتوشية والتنميق فى مقاماته أن شبهها شوقى ضيف بواجهات المساجد المزينـــة المزخرفة حيث يقـــول : « حتى لتشبه المقامة من مقاماته واجهة أحد المساجد المزخرفة لعهـــده لكثرة ما شغل فيه بالتنميق والتصنيع والترصيع »(٧٨) •

---

(٧٧) المقامة ص ٢٤ •

(٧٨) الفن ومذاهبه ص ٢٥٤ •

بل ان الدكتور مصطفى الشكعة يعتبر التأنق فى الاسلوب والتنويع فى الصياغة وبسطة الموضوعات .. كل ذلك من أهداف البديع لاشاعة الجو الثقافى بين مقاماته ، فيقول : « الذى لاشك فيه أن بديع الزمان لم يكن يغفل الناحية الثقافية فى مقاماته فالى جانب الاطراف والمخلق كان يرمى الى جو ثقافى .. ولذلك نجد بديع الزمان يتأنق فى أسلوبها وبسطة موضوعها ، ويأتى تارة بالاسلوب العذب الناعم الرخى ، وتارة أخرى بالكلمات الغريبة الحوشية ، ومرة ثالثة يسرد وقائع تمت الى تاريخ الأدب أو النقد الأدبى بسبب قريب ، وفى بعض المقامات يأتى بألغاز وأحاجى تنشط العقل وتشحذ الفكر ، ولا يهمل البديع فى بعض مقاماته الوعظ والحجاج فى المذاهب الى غير ذلك من الأمور التى تمت الى الثقافة وتوسيع المدارك بروابط نسب وأواصر قربى »(٧٩) .

وهكذا كانت مقامات بديع الزمان الهمذانى لوحات فنية رائعة لفتت الأنظار والعقول اليها ، وكانت سببا هاما فى امتداد النظر والعقول الى أحاديث ابن دريد للدراسة والموازنة ، ثم الحكم للهمذانى فى النهاية بالبراعة والتفوق ، وأنه قد عبد طريق المقامات لمن جاء بعده .

واذا كانت سنة التطور والترقى تدعو اللاحق للاتيان بأفضل مما صنعه السابق فان من جاءوا بعد الهمذانى وكتبوا مقامات على غرار ما كتب ومثل عدد مقاماته أو أقل لم يرتقوا بفنهم ولم يزيدوا على ما وصل اليه الهمذانى من الرقى فى هذا الفن ولا حتى فى العدد . بل أخفق كثير ممن جاءوا بعده واقتدوا به فى كتابة المقامات فلم يطاولوه لا فى العدد ولا فى الناحية الفنية .

حقا : انه كان بارعا ماهرا فى كتابة مقاماته التى شق بها الطريق لكل من جاء بعده من كتاب المقامات .

---

(٧٩) بديع الزمان الهمذانى ص ٣٤٤ .

خاتمة

وخلاصة القول : فان مقامات بديع الزمان الهمذانى تعد من أروع ما كتب فى القرن الرابع الهجرى • اذ أنها لوحات فنية قيمة عالج الهمذانى فيها موضوعات شتى بأسلوب قصصى ممتاز ، وأشاع فيها الفكاهة الحلوة والدعابة الجميلة التى كانت تحدث من بطل مقاماته أبى الفتح الاسكندرى ويرويها عنه عيسى بن هشام •

وبالرغم من وجازة السنين التى عاشها بديع الزمان الا أنه أنجز أدبا جما شعرا ونثرا • وتحدى رجالا مشاهير فى الأدب واللغة فى عصره وقبل عصره فبذهم جميعا كما هو الحال مع أبى بكر الخوارزمى كاتب الرسائل الشهير الذى سابقه الهمذانى فسبقه وانتصر عليه ولفت الأنظار اليه • وكما هو الحال مع أبى بكر بن دريد عالم اللغة الشهير قبل عصره بقليل • وهو صاحب الأحاديث الأربعين التى دونها أبو على القالى فى كتابه الأمالى ، كما دون كثيرا منها ابن خلكان فى وفيات الأعيان والثعالبى فى يتيمة الدهر والحصرى فى زهر الآداب وغيرهم •

فلما رآها الهمذانى وقرأها تحدى بمعارضتها بأربعمائة مقامة فى الكدية • والمعروف فى المعارضات أنها تكون فى نفس المعنى السابق • ولما كانت بعض أحاديث ابن دريد فى الكدية • فقد جعل الهمذانى مقاماته — الا قليلا منها — فى الكدية • وهذا ما تحدث عنه فى رسالته الثالثة والخمسين بعد المائة(١) أثناء تحديه للخوارزمى ، بأنه كاتب الرسائل وكاتب المقامات التى لا يقدر الخوارزمى على الاتيان بمثلها أو بمثل عشر مفتريات منها •

---

(١) انظر : كشف المعانى والبيان عن رسائل بديع الزمان • للشيخ ابراهيم الاحدب ص ٣٨٩ ٣٨٠ •

ولما كان هدف ابن دريد من أحاديثه تعليم الناشئة اللغة فقد جعل الهمذانى هدفه منها هو نفس هدف ابن دريد • ولذلك أغرب فى معظم مقاماته ليدلل باغرابه وخشونة ألفاظه على أنه يستطيع أن يأتى بمثل ما أتى به ابن دريد من الغريب والعجيب من ألفاظ اللغة ومعانيها وربما أكثر ، الا أنه فى بعض مقاماته كان سهلا ميسرا فى ألفاظه ومعانيه وبخاصة التى تحدث فيها عن أمور دينية من باب النصيحة والموعظة كالمقامتين (الوعظية) و (الأهوازية) • أو من باب الجدل الدينى بين عقيدته كسنى وبين عقيدة المعتزلة كالمقامة (المارستانية)• غير أن حديث الحصرى عن تحدى الهمذانى بمعارضة أحاديث ابن دريد الأربعين بأربعمائة مقامة • وحديث الحريرى بأن الهمذانى غير مسبوق بمقاماته • جعل الدارسين ينقسمون على أنفسهم بين قائل بأن الهمذانى مسبوق بابن دريد ، وأحاديثه كانت نواة لمقامات الهمذانى• وقائل بأن الهمذانى مبتدع فن المقامات وليس مسبوقا بشىء منها •

والواقع أنه كان — فعلا — مسبوقا بها ، وجعلها نواة لمقاماته حين كتبها • وقد دللنا على ذلك فى ثنايا البحث •

لكن الهمذانى — على كل حال — فاق ابن دريد فى كل شىء • فى العدد والاسلوب والقالب الفنى الذى صب فيه معانيه اجتذابا القارئين ، وفى تنويع الموضوعات واشاعة الجو الفكاهى فى معظم مقاماته ان لم يكن كلها • كما أن مقاماته متقاربة فى حجمها •

أما أحاديث ابن دريد فكان منها الطويل جدا والقصير جدا ولا تقارب بينهما • واذا كان الهمذانى قد اتبع فى أسلوبه مراعاة المقام لمقتضى الحال ، فأتى بالغريب والعجيب من الألفاظ والمعانى حين اقتضى الأمر ذلك ، وأتى بالسهل المتنع من الاسلوب حين اقتضى الأمر ذلك أيضا ، فان ابن دريد لم يتبع ذلك فى أحاديثه ، وانما جاءت هكذا دون

مراعاة لمقتضى الحال • ففيها الغريب والعجيب من الألفاظ والمعـانى دون مراعاة ، كما هو الحال فى خطبة الأعرابى فى المسجد الحرام التى أغرب فيها أغرابا شديدا ، وكان الواجب عليه مراعاة أمـور المصلين ؛ فمنهم البدوى الذى يفهم ما يقال ، ومنهم الحضرى الذى لا يفهـم أكثر ما يقـال •

ومن أحاديثه أيضا : الحكم الكثيرة التى روى بعضها عن أعراب، ومع ذلك فهى سهلة ميسرة فى ألفاظ يفهمها العامة والخاصة فى كل زمان ومكان دون حاجة الراوى الى تفسير وبيان • بالاضافة الى أن رواتها مختلفون ومعظمهم أعراب • وهذا ما جعلنا نعتقد بأن أحاديث ابن دريد ليست من املائه ، انما هى من محفـوظه أو من كتب الأدب واللغـة ، جمعها ونسبت اليه •

ويبدو أن الهمذانى كان ملما الماما كبيرا بحيل المكدين وطرقهم فى ابتزاز الأموال من الناس • كما أنه كان متاثرا تاثرا شـديدا بما كتب فى عصره وقبل عصره عن المحتالين وأشكالهم وأساليبهم ، وبخاصة عند الجـاحظ والبيهقى والأحنف العكبرى وأبى دلف الخزرجى وابن دريد وغيرهم • ولذلك اختار بطل مقامته من الأدباء المحتالين ، وجعله يتشكل بأنماط مختلفة من الشخصيات ، وطوعه الهمذانى للقيام بجميع الأدوار والتحدث بجميع الأسـاليب المعروفة لدى المحتـالين ، ولم يكن تاثر الهمذانى بهؤلاء فقط فى فن الكدية، ولكنه أيضا كان متأثرا تأثرا شديداً بالساسانيين المحتالين الذين ابتزوا أموال النـاس بحيلهم وطرقهم فى الأداء • ولذلك اختار الهمذانى بطل مقاماته فى الكدية الا ثلاث عشرة منهـا لم تكن فيها •

ولما كان الرجل مراعيا الاسلوب القصصى فى مقاماته ، فكان ذلك ذريعة لاختلاف الدارسين • فبعضهم يرى أنها مجرد حكايات عـابرة تخلو من عناصر القصة ، ومن ثم فهى ليست قصصـا بالمعنى الحقيقى

للقصة • وبعضهم يرى أنها قصص مكتملة العناصر ، ففيهـا الحبكة والمفاجآت العجيبة والعقد التى أحكمت احكاما قويا حتى جذبت انتباه القراء وتطلعوا لخروج البطل أبى الفتح من مآزقها باستغراب ودهشة، فكان يخرج من هذه المآزق الغريبة بسهولة ويسر • ويعجب القـارىء من خروج البطل وانقاذه من العقدة القوية • ولا يسع القارىء حينئذ الا أن يستلقى من الضحك والشهادة للهمذانى بالتفوق فى هذا الفن •

وقد رجحنا الرأى الثانى وملنا اليه ، وهو أن القصص مكتملـة فى المقامات بعناصرها • واذا كانت هنـاك بعض المقامات غير مكتملـة العناصر القصصية : فذلك لا يغض منها ، ولا يقلل من شـأنها • لأن القصة فى القرن الرابع الهجرى كانت لاتزال فى أطـوارها الأولى من النمـو والرقى •

هذا وقد لفت نظرنا من طول قراءتنا الكثيرة والمتأنية المقـامات مجمـوعة من الخصائص الفنية فيها •

وأولها : الموضوعات التى عنى الهمذانى بمعالجتها فى مقاماته • اذ لم تقتصر المقـامات على الكدية والاسـتجداء عن طريق الحيـل والأساليب الأدبية المؤثرة • وانما طرق الهمذانى فيها موضوعات كثيرة ومتنوعة كالمدح والوصف والهجاء والجدل الدينى • وكذا الموضوعات الأدبية والنقدية •• وغيرها من الموضوعات التى نجدها قد عولجت فى مقامات الهمذانى بأسلوب قصصى وفكاهى رائع •

والواضح من ذلك كله أن بديع الزمان قد عمد الى التنـويع فى الموضوعات والباسها أثوابا قصصية ، وأشـاع فيها الفـكاهة الجميلة والدعابة اللطيفة حتى يجعل القارىء فى شوق مستمر للقراءة،فلا ينتهى من مقامة الا ليبدأ فى غيرها • وفى نهاية المطاف يكون قد حصل جمعا

غفيرا من ألفاظ اللغة ومعانيها ، وحقق الهدف الذى من أجله أنشئت المقامات وتم وضعها •

وثانيها : هو اشاعة الفكاهة فى جميع المقامات — تقريبا — فلا تكاد تخلو مقامة من الفكاهة الجميلة والمحببة الى النفس • وهى أيضا مستهدفة حتى لا يمل القارىء القراءة ، بل يظل منجذبا باستمرار للقراءات فى هذه المقامات فلا تعييه الخشونة اللغوية التى تسود أكثر المقامات •

والهمذانى بهذا كان فطنا حين وازن بين الجد والهزل ، وأعطى كل جانب ما يستحقه من التعبير • وهذا مما زاد به على ابن دريد فى أحاديثه حيث لم يشع ابن دريد فى أحاديثه الجو القصصى كما فعل الهمذانى ، وان كانت الحكاية قد وجدت فى بعض أحاديثه لكنها باهتة ولم يتحقق لها الا النذر اليسير من عناصر القصة • كما لم يشع فيها جو الفكاهة اللطيفة والنادرة الجميلة ، ولكنه جعل كل اهتمامه برواية الحديث اللغوى ليحقق هدفه من وراء ذلك • بغض النظر عن الطريقة التى يروى بها الحديث •

أما الهمذانى فكان اهتمامه برواية المقامة عن ابن هشام الذى يتحدث بأسلوب قصصى فكه عن الأمور التى يقوم بها أبو الفتح وطرق احتياله على الناس ليؤثر فى نفوسهم ويبتز أموالهم •

وثالثها : الحديث عن بعض الصور والأفكار الشائعة فى مجتمع القرن الرابع الهجرى الذى عاشه الهمذانى ، وكيف كانت أخلاق الناس فى عصره • فتحدث عن سذاجة الناس فى المقامة (الموصلية) • وعن الأئمة الذين يأمرون الناس ولا يأتمرون وينهون عن المنكر ولا ينتهون • فى المقامة (الخمرية) • وعن بعض صور الاباحية والفاحشة التى سادت بعض المجتمعات كما فى المقامتين (الشامية

والشيرازية) .. الى آخر الصور الكثيرة والمتنوعة التى شاعت لا فى عصر الهمذانى فقط ، ولكن فى مجتمعات كثيرة .

ورابعها : الحديث عن الاسلوب المستخدم فى مقامات الهمذانى . وعرفنا من قراءتنا الطويلة لهذه المقامات أن الهمذانى استطاع بذكائه النادر ومهارته اللغوية وعقليته الفنية أن يجمع بين هدف ابن دريد وهو تعليم الناشئة اللغة وتثقيفهم بها ، وبين هدفه هو من اقامة القصة وما تتضمنه من الحوار الواضح بين بطل مقاماته وراويتها وبين البطل والناس الذين كان يذهب اليهم مكتديا شاكيا حاله طالبا رفدهم بأسلوبه الساحر المؤثر . وكل ذلك كان له أثره البالغ فى نفوس الناس وبخاصة الأدباء منهم على مدى العصور الأدبية جميعها . فكان البديع بأعماله الأدبية وبخاصة المقامات قدوة حسنة وأثرا طيبا لمن جاء بعده واقتدى به وكتب مقامات على منوال مقاماته .

وقد بلغ من ذكاء البديع وافتنانه فى كتابة مقاماته أنه فطن الى ما يجب لكل موضوع من موضوعات مقاماته من التعبير والاسلوب اللائق بحيث يرق أسلوبه عندما تستدعيه الرقة ، ويغرب حينما يستدعيه الأمر للاغراب والتعقيد الشديد . وهو يدير الحديث بلباقة ، فيعرف متى يرق ومتى يغرب ؟

وقد ساقته فطنته الى تقديمما يناسب الأذن العربية من موسيقى عذبة شجية تأتى من الشعر والنثر على السواء . ولذلك اهتم بفنون البديع اهتماما شديدا فجاءت عباراته مسجوعة تتراوح فى أغلبها بين الجناس بأنواعه والطباق . وكان ولعا بتقسيم الجمل ، فجاءت الجمل فى مقاماته متوازنة فى عدد كلماتها وموسيقاها ، فدلل بذلك كله على مقدرة لغوية لا تدانى ، وعقلية فذة وذكاء خارق .

ولما كان الهمذانى شاعرا فقد أضاف الكثير من شعره وشعر غيره الى مقاماته بطريقة محببة الى النفس ، دفعا للملل والكلل .

واذا كانت المقامات فى أساسها قد أنشئت فى الكدية الا أن هناك موضوعات كثيرة فى المقامات لم تكن فى الكدية ، وبالتالى فان الشعر الوارد فيها ليس فى الكدية ، كما هو الحال فى المقامات التى كتبها فى المديح أو الهجاء أو الوصف أو الجدل الدينى .. أو ما الى ذلك .

وكان الهمذانى كثير الاقتباس والاستشهاد فى مقاماته لا من الشعر فقط أو من النثر فقط ، ولكن أيضا من القرآن الكريم والحديث الشريف والحكم والأمثال وكلام العرب . الى غير ذلك .

وكما كان ابن دريد يبدأ أحاديثه بطريقة الرواية « حدثنا فلان عن فلان عن فلان ... قال » فكان الهمذانى يبدأ مقاماته بهذه الصيغة الثابتة ، وهما معا مقلدان رواة الأحاديث النبوية والأسانيد اللغوية والتاريخية .

غير أن صيغة الهمذانى أكثر ثباتا من صيغة ابن دريد حيث أن الأخير لم يكن له راوية واحد وانما تعدد الرواة فى أحاديثه التى توحى بأنها ليست من انشائه ، وانما هى من محفوظه أو منقوله اليه .

واستطاع الهمذانى أن يشق طريقا فى الفن لغيره ممن اهتموا بكتابة المقامات من بعده فى صورة قصص . الواحدة منها مستقلة تماما فى معناها وموضوعها عن الأخرى ، ولا يشركها مع غيرها الا أن الراوى واحد فى جميع المقامات وكذا البطل ، اللهم الا فى القليل منها لم تظهر صورته .

وتجلت براعته فى أنه أدار الحديث والحوار على لسان الراوى

عيسى بن هشام والبطل أبى الفتح الاسكندرى دون تدخل منه ، حتى أحسن القارىء بأن شخصية المؤلف قد تلاشت تماما .

ولذلك قلده من كتبوا المقامات بعده فى أمور كثيرة . فى طريقة الرواية وفى الراوى والبطل وفى السجع وتقسيم الجمل وغلبة الخشونة اللفظية على أسلوب المقامات والمزج بين الشعر والنثر فيها ، وتسمية أكثرها بأسماء البلدان التى رحل اليها الكاتب . وحتى فى العدد فأغلب المقامات التى كتبت بعد الهمذانى لا يتجاوز عددها الخمسين مقامة .. الى غير ذلك من الأنماط الكثيرة التى شق غبارها الهمذانى وقلده فيها غيره من كتاب المقامات .

وبعد : فهذه عجالة تناولت فيها مقامات بديع الزمان الهمذانى بالدراسة المتأنية والبحث الدقيق القراءات الطويلة والتأمل فى معناها ومبناها وعددها وعلاقتها بالكدية وخصائصها الفنية،وكذا تأثر الهمذانى بالسابقين ، وتأثر اللاحقين به فيها .. وما الى ذلك من الأمور الكثيرة التى وقفت عليها دارسا ومحللا ومستنتجا . غير مدع أنها الدراسة الأخيرة والكلمة الفاصلة فى هذه المقامات ، وانما هو جهد كابدناه فى هذه الدراسة راجين من الله تعالى أن نكون قد وفقنا فيه .

وقد وضح لنا من خلال هذه الجولة الممتعة أن مقامات بديع الزمان بالرغم من الدراسات الكثيرة التى أجريت حولها ، فهى فى حاجة للمزيد من الدراسة والتمحيص .

وحسبنا ما قمنا به ، وما اجتهدنا فيه . والله نسأل أن يوفقنا الى سواء السبيل .

مراجع البحث

١ ـ الاساليب الادبية فى النثر العربى القديم ـ د/ كمال اليازجى ـ دار الجيل بيروت ٠

١ ـ الأمالى لأبى على القالى ـ الجزء الثانى ـ طبعة دار الكتب المصرية ٠

٣ ـ البخلاء ـ الجزء الأول ـ لأبى عثمان الجاحظ ـ ضبط وشرح احمد العوامرى ، وعلى الجارم ـ دار الكتب العلمية بيروت ٠

٤ ـ بديع الزمان الهمذانى ـ ما رون عبود ـ ط ٤ دار المعارف المصرية ـ سلسلة نوابغ الفكر العربى ٠

٥ ـ بديع الزمان الهمذانى ـ د/ مصطفى الشكعة ـ ط ١ ١٩٨٣ ـ عالم الكتب بيروت ٠

٦ ـ بديع الزمان الهمذانى ـ فيكتور الكك ـ المطبعة الكاثوليكية ١٩٧٠ ٠

٧ ـ تاج العروس للزبيدى ـ الجزء العاشر ـ دار صادر ـ بيروت٠

٨ ـ تاريخ الأدب العربى ـ الجزء الثانى ـ د/ عمر فروخ ـ دار العلم للملايين بيروت ٠

٩ ـ تاريخ الادب العربى ـ الجزء الثانى ـ كارل بروكلمان ـ ترجمة د/ عبد الرحمن النجار ـ دار المعارف بمصر ٠

١٠ ـ ديوان زهير بن أبى سلمى ـ طبعة دار الكتب المصرية ٠

١١ ـ ديوان لبيد بن ربيعة العامرى ـ دار صادر بيروت ١٩٨٥ ٠

١٢ ـ زهر الآداب وثمر الألباب ـ الجزء الأول ـ لابى اسحاق الحصرى ـ مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٣ ٠

١٣ ـ شرح مقامات بديع الزمان الهمذانى ـ الشيخ محمد محيى الدين عبد الحمية ـ دار الكتب العلمية بيروت ٠

١٤ ـ الفخرى فى الآداب السلطانية لابن الطقطقى ـ المطبعة الرحمانية بمصر ٠

١٥ ـ الفن ومذاهبه فى النثر العربى ـ د/ شوقى ضيف ـ ط ١٠ ـ دار المعارف بمصر ٠

١٦ ـ فى النثر العباسى د/ وهيب طنوس ـ طبعة مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية دمشق ١٩٨٠ ٠

١٧ ـ كشف المعانى والبيان عن رسائل بديع الزمان ـ الشيخ ابراهيم الاحدب الطرابلسى طبعة بيروت ١٨٩٠ ٠

١٨ ـ كنوز الاجداد ـ محمد كرد على ـ طبعة دمشق ٠

١٩ ـ لسان العرب لابن منظور مجلد ١٢ ـ طبعة بيروت ٠

٢٠ ـ مجلة الرسالة العدد ٤٥ المجلد الثانى من السنة الثانية ٠

٢١ ـ المحاسن والمساوىء للبيهقى ـ الجزء الثانى ـ مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٦ ٠

٢٢ ـ مذكرات الدكتور / عبد الوهاب عزام لطلبة الليسانس ١٩٤٤ كلية الآداب جامعة القاهرة ٠

٢٣ ـ معجم الادباء لياقوت الحموى ـ الجزء الثانى ـ دار الفكر للطباعة والنشر ٠

٢٤ ـ معجم البلدان ٠ لياقوت الحموى ـ مجلدا ـ دار صادر بيروت ١٨٧٩ ٠

٢٥ ـ مقدمة مقامات الحريرى ـ بدون ٠

٢٦ ـ المقامة ـ د/ شوقى ضيف ـ الطبعة الخامسة ـ دار المعارف بمصر ٠

٢٧ ـ مقامات بديع الزمان على أحاديث ابن دريد ـ دكتورة / اكرام فاعور ـ الطبعة الاولى ١٩٨٣ ـ دار اقرأ بيروت ٠

٢٨ ـ مقامات بديع الزمان الهمذانى ـ شرح وتعليق الشيخ محمد عبده ـ طبعة ، دار المشرق بيروت ١٩٨٦ ٠

١٩٢

٢٩ ـ النثر الفنى فى القرن الرابع ـ د/ زكى مبارك ـ طبعة دار الكتب المصرية ٠

٣٠ ـ وفيات الاعيان لابن خلكان ـ الجزء الاول ـ مطبعة عيسى الحلبى بمصر ١٩٣٦ ٠

٣١ ـ يتيمة الدهر لأبى منصور الثعالبى ـ الجزء الرابع ـ الطبعة الاولى ١٩٣٤ مطبعة الصاوى بمصر ٠

الفهــــرس

رقم الإيداع بدار الكتب ٩٤٢٨ / ١٩٩١